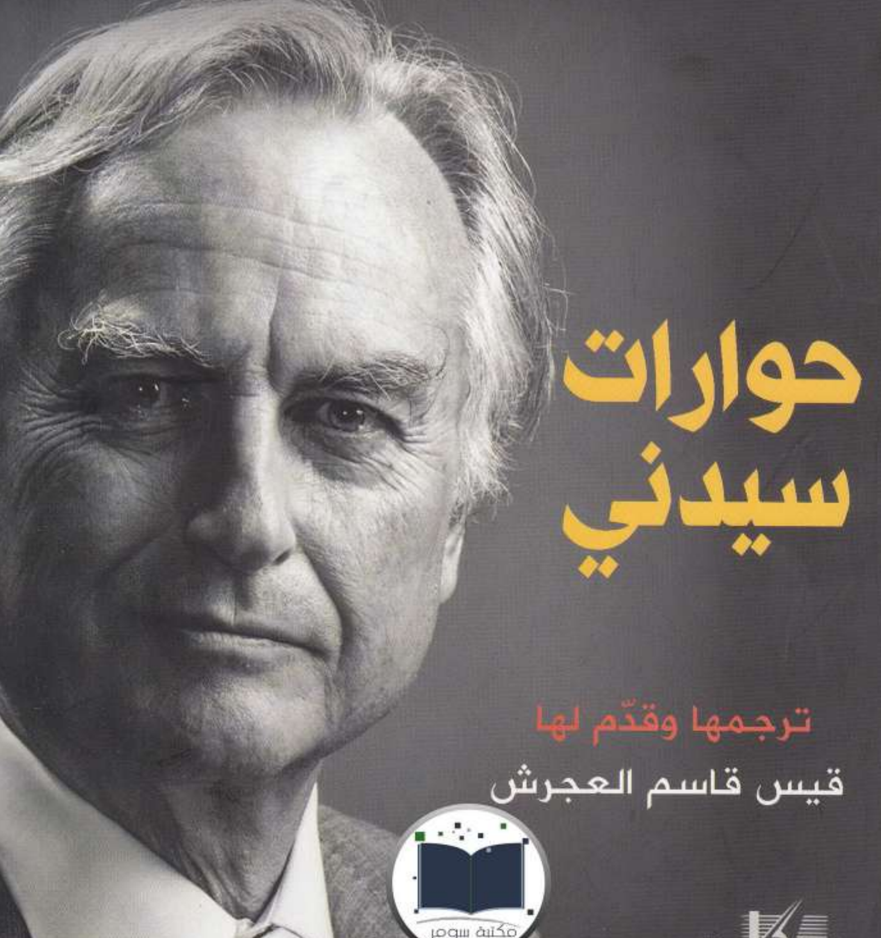
ريتشارد دوكنز

Richard Dawkins



حوارات سيدني

ترجمها وقدّم لها

قيس قاسم العجرش

سطور



ريتشارد دوكنز

حوارات سيدني

حوارات فيِ النشوء والتطوّر والعِلم وانكشاف فضاء الوهم



حوارات سيدني

حوارات في النشوء والتطوّر والعِلم وانكشاف فضاء الوهم

SYDNEY DEBATES

ريتشارد دوكنز

ترجمها وقدّم لها: قيس قاسم العجرش

Richard Dawkins

Qays Qasim Al-Ajresh

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo.com

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 230 - 1

ريتشارد دوكنز

حوارات سيدني

حوارات في النشوء والتطوّر والعِلم وانكشاف فضاء الوهم

ترجمها وقدّم لها

قيس قاسم العجرش



الفهرس

المقدمة

لا يكفي أن نسميه عِلماً ما لم يعلم الناس به؛ إنه ليس مركبة فضائية محمّلة بالمعلومات وتنتظر الرسو عند كوكب ما... العِلم المتهم بأنه عاجز عن توصيف القيم الإنسانية، وبأنه لا يفسرها. «لكن العقلانية العِلمية، والمنطق الذي يبنيه العلم في عقل الإنسان، بلا شك، يمثّل أرقى منجز إنساني وصلت إليه البشرية على الإطلاق»[1].

لكن ما هي العلوم التي (يجب) أن تصل إلى الناس؟ يفترض د. ريتشارد دوكنز أنها تلك العلوم التي توضح أولاً استحالة حدوث الخرافة، وتجلب الناس ومعهم آليات تفكيرهم الجمعي إلى مساحة آمنة بعيداً عن تأثيرها السلبي. ولا يغني عن ذلك أن نسميها «خرافة» فنكون في مأمن من تحوّلها إلى سموم تلوث العِلم نفسه؛ هذه استراتيجية دفاع فاشلة، لأننا سنجد في كل زمان مشعوذاً أو أكثر سيلوي عنق العلوم (بالكلام فقط) ويجعلها تبرر الخرافة.

لماذا أخذ دوكنز قضية المعرفة العِلمية إلى ساحة بحجم العالم بأسره كي يعرضها ويقاتل لتحقيق أهدافه فيها، ويخوض الجدالات من أجلها؟

---

(1) Ricahrd Dawkins; «The Extended Phenotype». Oxford: Oxford University Press. 1982.

لأنه يرى أن المعرفة قد وصلت بالفعل إلى حافة صراع سافر مع الفرضيات الخيالية، أو الروحانيات التي تتسبب في تزيف المعرفة الإنسانية. يقف العالم اليوم على عتبة تصادم ولحظة حقيقة ـ أو إن التصادم قد بدأ بالفعل، فإما الاستمرار بنهج الهيام والإنتشاء بفرضيات بلا يقين، أو أن نعي مستوى التحدي العلمي الذي يقسم العالم إلى نصفين حقيقيين بشكل لم يسبق له مثيل.

إن دوكنز يرى أن الصراع قد وصل مع انبثاقة عصر الترابط البيني البشري إلى ذروته التي يتهدد معها البنيان المعرفي للإنسانية جمعاء بالتقويض. وليس الإرهاب العالمي إلّا حالة بائنة مكشوفة من حتمية الصراع على مستوى الذروة بين ما تمليه الروحانيات والخرافات (وحتى الأديان) من إملاء يزيف معنى المعرفة العلمية، وبين العلوم التي راكمتها المعارف الإنسانية بالدليل والتجربة والبراهين وهي تترسخ يوماً بعد آخر.

وربما يصح أيضاً أن نقول إنها تلك العلوم التي تترسخ بازدياد الاستكشافات العلمية والتاريخية؛ يعني إنها ترصّن نفسها بنفسها أو عبر علوم أخرى. ولا ضير فيما لو حدث بعض التناقض بين طيّاتها فهذا ليس دليلاً أبداً على بطلانها، ولا ضير حتى وإن تسببت الأبحاث الجديدة في نفي مُسلّمة علمية قديمة، ففي النهاية (حتى مع فرض النقض) فإننا إزاء ترصين أكبر لجبهة العلم نفسها؛ الجبهة العريضة الواسعة التي نستخدمها لتسيير حياتنا اليومية في كل بقعة على وجه الأرض. إنها الجبهة التي تُصلح أخطاءها بنفسها، بينما تقودنا الخرافة إلى مجهول يحوّل الخيال إلى «حقيقة» متخيّلة ومشهورة، وبالتالي يفسد ما بين أيدينا

من وقائع ودلائل. ريتشارد دوكنز اختصر هذه الفلسفة الإجرائية بأن بدأ بالفعل بالدعوة إلى أهم المواثيق العلمية جدلية، وبإبراز الجانب العقلي المقارن فيها، وهي نظرية التطوّر الأحيائي التي بدأت منذ أن وضع تشارلز داروين مبادئ تفسير التشكّل الأحيائي عبر الإنتخاب الطبيعي.

هذه العلوم ستجعل القصّة لا تنتهي أصلاً مهما تمدّدت رُقعة الخرافة، ولن تترك لها رقعة ترتاح فيها أبداً حيث ما بسطت سوقها الذي تسوّق فيه بضاعتها بالأصل على أنها حقائق علمية. باختصار، هناك إمكانية لهزيمة الخرافة على يد العلم، لكن العلم لا يمكن هزيمته على يد الخرافة، طالما أن الخرافة نفسها تستعين به (عبر توظيف ما يبدو على صورة علم)، وبهذا فهي تفتح على نفسها باب دخول العلم الحقيقي (أو لنسمّه العلم المُرضّن مجازاً)، وهو نفس الباب الذي تبدأ منه هزيمة الخرافة.

هل ستتمكنون من إحصاء عدد المرّات التي حاول فيها دُعاة الخرافة أن يربطوها بالحقائق العلمية؟ الدافع هنا بديهي، وهو إدراكهم أن العلوم (التي تربط نفسها بالحقائق والبراهين) هي الأسهل والأمضى وصولاً إلى عقل الناس من أي إرادة أخرى. هذا ليس دافعاً بديهياً فقط، إنما إدراك حسّي داخلي يجعلهم يعرفون أيّ الخيارات يمكن لها أن تسوّق نفسها.

ما يقوله دوكنز هنا عن نوعية العِلم الذي يجب على عامة المُدركين، من عامّة الناس، الإحاطة به قبل التعرّض لرشقات الحرب القائمة بين الخُرافة والعلم؛ إنّها المعرفة التي ترسّخت وأثبتت بعضها بعضاً، وكلّما مضى خط الوجود صارت لها تطبيقات تدخل كجزء أساسي من حياتنا اليومية. ومع هذا، فالخُرافة شيء لا يستهان به أبداً، إنها متلازمة إنسانية

ستبقى طالما توفر حيّز حقيقي من الفراغ المعرفي الذي ينتظر إجابات جديدة عن الأسئلة.

ورغم أن نطاق الكتابة هنا ليس مَغنياً تماماً بتفسير وجدل معاني الخرافة، لكن من المفيد أن أتناول نمطاً من أنماط تعريف الخرافة. فكاتب الخيال العلمي الكندي الأصل، دوغلاس هيل (Douglas Hill) يعرّف الخرافة بأنها: «شيء من الفولوكلور الشعبي، وينظر إليها العامّة على أنها تفرّع غير شرعي عن التاريخ الديني. وهي في الأعم الأغلب تمثل طرقاً للتنبؤ، أو التجنّب، أو التحكّم، أو تفسير بعض الأزمات بأدوات تنتمي إلى ما وراء الطبيعة، وفي الغالب لا يمكن إثباتها عقلاً».

أما العالم السويسري في الطب النفسي، كارل يونغ (Carl Jong)، فيعرّف الخرافة على أنها «عقيدة أو نسق من العقائد ذات الصلة فيما بينها بصلات خيالية بين الأحداث. وهي غير قابلة للتبرير العقلي، وتفتقر إلى الدليل الموضوعي، لكنها تمتاز بالقدرة على البقاء في المجتمع لفترة طويلة». ومثل هذين التعريفين، يمكن أن نجد العشرات من الجُمل والتعابير التي تجمع أغلبها على أن الخرافة تغيب العقل أولاً، ولا سبيل إلى إثباتها عملياً أو علمياً. هنا يتساءل دوكنز عن ذلك الفرق الحقيقي بين الخرافة والعقائد الدينية. في الحقيقة فإنه يستنتج بأن الفرق قليل للغاية، وهو يتمثل في أن العقائد الدينية تحصّن نفسها بموانع تمنع خضوعها للمساءلة. كما إنها تمتاز بقدرة (خبيثة) و(مراوغة) على البقاء.

«هل بالإمكان أن نتواجد في مكانين مختلفين في وقت واحد؟».

هل يمكن للإنسان مثلاً أن يتواجد في مكانين مختلفين في آن واحد؟ الخرافة تجيب بقوة وبثقة بالقول: نعم! لكنها تعلّق ذلك على

قدرة الإنسان نفسه وليس على الإمكانية المجرّدة، بمعنى أن الإجابة ستأتي على شكل تساؤل. أيّ إنسان نَعني؟ فعامة الناس لا يمكن لهم ذلك، لكن أبطال القصص الخيالية، الدينية، العقائدية، السحرية،...الخ، يمكنهم ذلك. ومن بين هذه الأصناف القصصية كلها، نجد أن السرد الديني وحده يحصّن نفسه بالضد من الخضوع للتساؤل.

كل ما عليك فعله لتعرف جواب «كيف يمكن لإنسان أن يتواجد في مكانين مختلفين في وقت واحد؟» هو أن تؤمن بهذه القائمة الطويلة التي ستأخذك إلى طريق مجهول، لا مجال للإجابات والمعرفة فيه.

هنا تتفوق الخرافة (ظاهرياً)، لأنها ستحيلنا إلى جدل خيالي عن القدرة اللامتناهية التي قد يحوزها الإنسان من الصانع القدير، فيما لو كان على صلة به، وفيما لو قرر القدير له ذلك أيضاً. وما إن تعلّق الجدل بالقدير (أو بأي إله آخر بالنسبة لغير الموحّدين)، فقد حُسمت قضيّة السؤال وتحوّل إلى السؤال القديم: إن كنت تؤمن بقدرة القدير (أو أي إله آخر) أم لا تؤمن؟ وهذه ستعيدنا إلى معركة أولى وهي وجود الصانع القدير من عدمه.

لكن العلم يجيب بطريقة أسرع وأكثر إنسانية. نعم يمكن أن أتواجد في مكانين مختلفين في زمان واحد! فيما لو كنت أنا (إلكتروناً) فقد يمكن لي التواجد في مكانين في وقت واحد، والسبب أن الوقت (كمعيار فيزيائي) لا يمكن قياسه إلّا بالأحداث. وانتقال الإلكترون من فضاء جزيئي إلى آخر، هو أمر لا يمكن قياسه بالوقت، لأن الوقت أقل (دقّة)، وأقل (قدرة) من أن يتمكن من قياس ذلك الحدث. يقترب هذا المثال من الصدق الخالص كلّما صغرت المسافة التي ينتقل فيها الإلكترون.

هل تصدّقون هذا؟

حسناً، إذا لم يكن هذا مفهوماً لكم؛ «كيف يمكن للإلكترون أن يكون في مكانين مختلفين في آن واحد»، فتذكّروا أن الوقت يتقسّم إلى أجزاء متناهية في الصغر، لكنّه يتقسّم إلى حد معيّن بعدها لن يكون قابلاً للقسمة أو للقياس، وإن التسارع في السرعات يمكن أن يزداد إلى سرعات عالية جداً، لكن إلى حدّ معيّن، بعدها لا يمكن زيادة السرعة.

ودرجات الحرارة، يمكن أن تنخفض إلى (C273.15) تحت الصفر المئوي (وهو الصفر المطلق)، بعدها لن تنخفض أبداً.

ما هي سرعة الضوء مثلاً؟ إنها سرعة يسري بها الفوتون من سطح الشمس إلى الأرض، ليستغرق أكثر بقليل من 8 دقائق لقطع تلك المسافة. والعلم يقول: «لا توجد سرعة ممكنة تفوق سرعة الضوء».

هل يمكن القول بأن الصانع القدير يمكن أن يجعل الضوء يصل إلينا من الشمس بأربع دقائق مثلاً بدلاً من ثمانية؟

نعم يمكن (قول) هذه العبارة، لكن لا يمكن تحقيقها.

وماذا إذا أراد القدير أن يحققها؟

نعم يمكن أن (يريد) تحقيقها، لكنّه لم يفعل ولن يفعل! لماذا؟ لأنّه لا يخرق قوانين الطبيعة، ولم يسبق أن خرقها. لم يخرقها (إلّا) في الرواية التي لا تتحقق ولا تثبت بأي وسيلة علمية أو حسّية أو منطقية، وهي الرواية المتعلّقة بالأديان حصراً.

هذا نموذج لما يناقشه ريتشارد دوكنز ويتعرّض له بكلمات تناسب فهم غالبية الناس على وجه هذه الأرض، من متوسطي التعليم.

هذه الإجابة، ستفتح باباً آخر أمام الوجدان الإنساني كي يفهم طبيعة الأشياء بمعزل عن الإيمان، يفهمها بمعنى العِلم بها، بمعنى الإدراك وفقاً لتسلسل المعلومات التي تفسّر وتثبت إحداها الأخرى، ولا دخل للإيمان في هذه المتوالية من الحقائق. الحقائق العلمية لا يمكن أن تُفهم باستخدام مُتغير الإيمان الذي هو متغير لا يمكن قياسه علمياً، هو ببساطة شأنٌ ليس علمياً وانتهت الجملة. (ويجب أن تنتهي) كي تسمح لنا بفهم أعمق واستكشاف بُعد علمي آخر لمقاربات هذه الإجابة.

العلم الحديث، المبني على الوقائع والحقائق ورصدها وتحليلها، هذا النوع الذي يبرهن على نفسه بنفسه، هذا العلم فقط هو الذي نتوقع فيه الإجابات، وفقط فيه ستكون الإجابة فعلياً. لكن إحدى أهم اشتراطات هذا النوع من الأنساق المعرفية هي أن يكون مفهوماً للناس. ليس لدى العلماء أحجيات الكهنة وترنيماتهم ليوهموا الناس بالحقائق، إنما لديهم حقائق لكنها تنتظر التسويق. وللأسف، فإن معظم المُشتغلين في عمق العلوم الصرفة والبحتة، لا يصرفون الجهد ذاته لإفهام العامّة ما أنجزوه. ولو أنهم جرّبوا ذلك، لما تبقى لهم من وقت خلال حيواتهم المحدودة كي يخصصوه للبحث العلمي.

مع بداية القرن العشرين، كانت المعارف البشرية قد وصلت إلى مرحلة مرتبكة تماماً، صحيح أنها كانت تنمو بسرعة لكنها كانت تتناطح يومياً مع الأديان والعقائد، وتنفيها أو تتعرض للّيّ الأعناق من أجلها، لكن لم تكن الإنسانية تملك من خيار غيرها. لقد اكتسبت صفة الارتباك لأنها من جهة كانت حصيلة للمعارف والعلوم التاريخية المنقولة والمجرّبة والتي تراكمت عبر آلاف السنين، ومن جهة أخرى، فقد كانت تتعارض

في مواضع كثيرة مع الأديان الإبراهيمية ومبهماتها المقدّسة التي تستمر في تشبيك التقديس حول ذاتها، وتنجح في ذلك كلّما طرأ الجديد على حياة البشرية ومحتواها المعرفي.

ومن جهة ثالثة، كان العلم قد برهن بنفسه، على أن كمّاً كبيراً من مكتشفاته قد تبيّن لاحقاً أنها لم تكن على مسار التفسير الصحيح، وإنها جرى تصحيحها لاحقاً، مما يعني أن أي اكتشاف علمي حديث سيخضع للتشكيك (لأنه نتاج دحض لحقائق مؤقتة تبيّن انحرافها لاحقاً)، ويعني أيضاً أن حقائق العلم لا يمكن لها الصمود مع التسارع في الجديد الذي يصحح ويلغي وقد ينسف حقائق قديمة (لم تعد تسمّى حقائق لحظة بروز حقيقة علمية جديدة).

هذا الاشتباك، منح الخرافة والعقائد المبثوثة عن الأديان الإبراهيمية بوجه الخصوص قدرة الاستمرار في نهجها السابق، المبني على ابتزاز العلم أولاً؛ ادعاء امتلاكها للبراهين العلمية دون الإضطرار إلى البرهنة فعلياً عليها.

وهي بذلك تتمظهر وتتلبس بطريقة العلم في التوثيق وببراهينه وبقرائنه، بينما لا تصل إلى مرحلة الإثبات والتجريب. بل إنها تسلك مزدوجاً يجمع بين العلم والعقيدة، أيهما أتيح إليها منفذاً، وهذا هو الاشتباك المؤدي إلى ضياع الحقيقة نفسها. في الحقيقة لم تكن تمتلك من العلم إلّا صبغته الخارجية.

يقول دوكنز في هذا الشأن: «حتى لو آمنت بأن هناك صانعاً قديراً للكون، فلماذا يسعى بعض المؤمنين إلى إهانة هذا الصانع القدير عبر افتراض أنه أمر أحدهم أن يمشي على الماء، أو أن ينفذ مُعجزة تكسر

القواعد التي وضعها هذا الصانع للكون؟ بينما لم يثبت أنه كسر هذه القوانين أو اخترقها أبداً».

د. ريتشارد دوكنز هنا يمارس استثناءً عن هذا المألوف، فقليلة هي المرّات التي يمكن أن نسجلها حين حمل عالم معروف فكرة التبسيط والشرح لأعقد العلوم إلى عموم الناس. وابتدأ دوكنز من نظرية يصعب جداً دحضها، وهي نظرية التطوّر الداروني. بل إن الدلائل عليها تتراكم خلال البحث العلمي والتنقيبات بشكل لم يسبق أن مرّ على البشرية خلال تاريخها. لقد ساعدت التكنولوجيا على سبر أغوار أماكن على وجه الأرض ما كانت متاحة أبداً للاستكشاف، وفي كل كشف جديد تتعزز وتتبلور نظرية داورن في التطور. بل إنها تستكمل نفسها بطريقة فسّرت الكثير من العقد العلمية التي لم يقترب منها دارون.

وفي نهاية الكتاب سيجد القارئ مختصراً مفيداً للأحداث الكونية ربما يساعد في ترتيب وتجسيد خط التطوّر في الذهنية المتبعة لأفكار دوكنز التي تحاول هذه المجموعة من الحوارات والمقالات والمناظرات التلفزيونية أن تبيّنها بصورة أوضح، والتي أسميناها بـ(حوارات سيدني) تبعاً لاثنتين من هذه الحوارات جرت هناك، بينما حدثت الحوارات الأخرى في الولايات المتحدة أو أماكن أخرى. وسيجد القارئ أيضاً مقالات مهمة لدوكنز، وحوارات أجراها بنفسه مع مختصّين بارزين، الهدف منها أن يأخذ بآرائهم إلى أكبر رقعة ممكنة من مساحة المعرفة الجماهيرية.

هذه المجموعة المترجمة، والتي وضعتُ لها بعض الهوامش أين ما رأيت الحاجة إلى مزيد من التفسير، هي مساهمة في جلاء الصورة

العلمية للقارئ بشأن ما يطرحه دوكنز من أفكار شكّلت محوراً برسم الجدل العام في الغرب، كما في باقي أنحاء العالم. ولعلها تزيد من مساحة المعرفة وسعة الإدراك، وشمولية الفهم للطريقة التي يفكّر بها الناس، ويتعاطون بها الحقائق العِلمية، حول العالم وليس في عالمنا العربي فقط.

قيس قاسم العجرش ـ بغداد 2017.

(1)

عن الدين والإلحاد... حوار سيدني

«أفضل الإصلاحات الأخلاقية في تاريخ الإنسانية، مثل عتق العبيد، أو تحرير المرأة، لم تساهم فيها المسيحية إلّا بشيء قليل جداً».

د. ريتشارد دوكنز

مناظرة تلفزيونية بين الكاردينال جورج بيل، والبروفيسور ريتشارد دوكنز على محطّة (ABC news) الأميركية. قدمها توني جونز في برنامج (أسئلة وأجوبة)، وأجريت المناظرة في مدينة سيدني بأستراليا. وبُثت في 9 نيسان 2012.

الكاردينال جورج بيل (George Pell)؛ ولد في استراليا، ودرس اللاهوت الكاثوليكي منذ عهد صباه المبكر، ثم أنهى دراساته العليا في روما، وفي عام 1996 رسَمه البابا يوحنا بولس الثاني أسقفاً على أبرشية ملبورن الأسترالية. ثم تم ترسيمه كاردينالاً عضواً في مجمع الكرادلة العالمي عام 2003. وهو يحمل شهادة الدكتوراه في تاريخ الكنيسة من جامعة أكسفورد 1982. وله عدد من المؤلفات المطبوعة واسعة الانتشار.

* * *

توني جونز: مساء الخير وأهلاً وسهلاً بكم في برنامج (أسئلة وأجوبة). أنا توني جونز وسيجيب عن أسئلتكم عالم الأحياء المشهور ريتشارد دوكنز. وهو مؤلف كتاب «وهم الإله». ومعنا أيضاً أعلى رجل مرتبة في الكنيسة الكاثوليكية في أستراليا، أسقف سيدني، الكاردينال جورج بيل. رجاء رحّبوا بالسيدين.

سؤالنا الأول سيأتي من السيدة... تفضلي

سيدة من الجمهور تسأل: كلما حلّ عيد الفصح في أستراليا، نجد القادة الدينيين يحثّون باسم الرّب خلال مواعظهم على اعتناق قيم السلام، والتسامح، والتكامل السياسي، والتآزر الأخلاقي والاجتماعي. وكلّ هذا كما هو واضح لكم ينتمي إلى القيم الإيجابية والمفيدة. سؤالي هو؛ بأي طريقة يعتمد تنفيذ هذه القيم وتطبيقها على وجود الله؟ وهل من الممكن مثلاً أن يكون المُلحد داعياً إلى السلام، ومسؤولاً اجتماعياً يعوّل عليه؟

توني جونز: د. ريتشارد دوكنز، لنبدأ معك، تفضل بالإجابة.

د. ريتشارد دوكنز: حسناً، من الواضح أن الجواب لهذا السؤال هو نعم. أعني أيضاً أن العكس ممكن الحدوث لكنه غير محتمل. صحيح أن المسيحية قد تبنّت عدداً من أفضل القيم الإنسانية، لكنها بالأصل قيم لا تمت بجذورها إلى المسيحية ولا لأي ديانة أخرى. وأظن أن من المؤسف حقاً أن الفرد قد يحتاج إلى الدين من أجل أن يكون إنساناً قويماً مستقيماً. لقد وضعت المعرفة البشرية أسس الفلسفة الأخلاقية قبل أي ديانة واسعة الانتشار حالياً.

ولو سلّمنا بأن الفرد بحاجة إلى الدين من أجل الأخلاق، فإن هذا يعني واحدة من اثنتين؛ إمّا أنه قد استخلص أخلاقياته وقيمه الإيجابية من الكتب المُقدّسة، الإنجيل أو القرآن أو الكتب الأخرى. أو أن المرء سيلتزم بالأخلاق القويمة فقط خوفاً من الله، وفقط طمعاً بالجنّة وخوفاً من الجحيم. وفي الحقيقة أنا لا أرجو لكم أن تقتبسوا منظومتكم الأخلاقية من الكتاب المقدّس. صحيح أنكم قد تصادفون في النّصوص المقدّسة أبياتاً شعرية هادفة، و«موعظة الجبل»[1] مثالٌ ممتاز على ذلك.

لأن هذا الكتاب يفقد ميزة التوفيق بين ما جاء في العهد القديم والعهد الجديد. وبالأخص الأفكار الفظيعة التي جاء بها العهد الجديد. أعني جوهر الفكرة المسيحية من أن المسيح الذي هو ابن الرّب وقد جاء ليخلّصنا من الخطيئة؛ الخطيئة التي ولدنا بها ونعيش معها. والطريقة الوحيدة لهذا الخلاص هي بموت المسيح فداءً لنا، أظنّ أن هذه فكرة فظيعة بذاتها المجرّدة. طبعاً سيكون من المفزع أن الرّب، الذي هو مستودع المعرفة والحكمة والقوّة، لم يتمكن من التفكير في طريقة لتخليصنا من الخطايا وغفرانها إلّا أن يأتي بنفسه إلى الأرض، ويتمثّل بشخص ابنه، ثم يعرّض نفسه للتعذيب والإعدام كي يتمكن من الغفران لنفسه.

توني جونز: حسناً لنستمع إلى رأي جورج بيل في هذا.

---

(1) موعظة الجبل؛ وهي شريعة العهد الجديد. طرح فيها المسيح قضايا تنظيمية، وشرح فيها بعضاً من تعاليم العهد القديم. وتعد أهم الإرشادات التي على المسيحيين أن يلتزموا بها. وهي تشكّل ثلاثة فصول كاملة من إنجيل متّى. كما شرح فيها الصلاة التطويبيّة. وخلال التاريخ، تبنّى عدد من المفكرين والمصلحين ما جاء بها من عظات، على سبيل المثال: تولستوي وغاندي.

الكاردينال جورج بيل: حسناً هناك بعض الأشياء ينبغي قولها وإيضاحها. أولاً إن تقاليدنا الأخلاقية تعود إلى ما يقرب من أربعة آلاف سنة مضت منذ أن ظهرت مُتبنياتها. ومن المفيد النظر إلى مجتمع روما قبل المسيحية (روما الوثنية)، حيث كان العبيد يشكّلون فيه ما يقرب من 40% في المائة من السكّان. ويمكن أن تشاهد النساء والرجال يتقاتلون حتى الموت في مسرح الكوليسيوم. لم يكن للنساء من حقوق تذكر. وكانت عمليات الوأد تجري بصورة شائعة، حيث لم تكن العائلات النبيلة ترغب بأطفال من الإناث. المسيحية غيّرت هذا، ليس بالضرورة كل ذلك اختفى، لكنّها غيّرت منه بصورة كبيرة. وعن المسيح، فالمسيحية تتكون منّا ولها أهلها، العهد الجديد جاء لينقّي الشوائب التي طرأت على العهد القديم. لقد مضت المسيحية تعيد كلمات الرّب إلى نصابها عبر العهدين؛ القديم والجديد.

توني جونز: هل يمكن لي أن أقاطعك، فقط لأعود إلى صلب موضوع السؤال؛ هل يمكن للمُلحد أن يعيش حياة مستقيمة وفاضلة، وأن يكون شخصاً مسؤولاً اجتماعياً؟ يعني بلا حاجة للدين؟

الكاردينال جورج بيل: نعم يمكن ذلك، بكل تأكيد. بل إن هذا يساعد على الإيمان بالله. وهناك شاعر بولوني إسمه ميولش[1] قال ما معناه إن الأفيون الحقيقي اليوم هو أن هناك من يرتكب الجرائم ظنّاً منه أنه سيفلت في النهاية من العقاب الإلهي. وأن أولئك الذين ارتكبوا الفظائع فإنهم سيفلتون في النهاية، أمّا الذين كانوا هم الضحايا وعاشوا المعاناة من الظلم فهم مجرّد أناس عاشوا حياتهم مظلومين... هذه هي الحكاية.

---

(1) يقصد الشاعر البولوني تشيزلاو ميولش (Czesław Miłosz)؛ (1911 ـ 2004).

توني جونز: حسناً لننتقل إلى موضوع تالٍ، وهناك سؤال من الجمهور.

سيدة من الجمهور تسأل: في العادة يتعرّض الدين لهجمات وانتقادات باعتباره السبب وراء كمّ كبير من الحروب والنزاعات. لكن ماذا عن كل الأشياء الجيدة التي قدمها للمجتمع؟ إن الدين المتمحور حول عبادة الله، كان وما زال موطناً لظهور العديد من المدارس والمستشفيات وغيرها من الخطوات التي لا تُحصى في مجال العلم. والسؤال موجّه إلى د. ريتشارد دوكنز، إن كنت تؤمن أن التقدّم الذي أنجزته الإنسانية ليس إلّا وسيلة من وسائل البقاء والاستمرار، فهل يمكن لك أن تشرح لنا ما المغزى من كل هذا؟ ولماذا نزعج أنفسنا بالأصل؟

د. ريتشارد دوكنز: إنها لفكرة مذهلة أن نقول «لماذا نزعج أنفسنا، فقط لأننا نمتلك الدلائل العلمية على سبب وجودنا». إن لدينا بالفعل سبباً علمياً يجيب عن التساؤل «لماذا نحن هنا». وعلى هذا، فإن من المتاح لنا أن نصنع معنى للحياة خاصاً بنا. إن علينا أن نجد لأنفسنا غرضاً من الوجود في هذه الحياة، على أن يكون هذا الغرض غير متناسل أو موروث من تاريخنا العلمي.

وعندما تقولين إن المسيحية كانت السبب في حدوث الكثير من الأفعال والأحداث الجيدة والإيجابية في التاريخ الإنساني، بما في ذلك التقدّم العلمي بشكل عرضي، فإنني أجد في ذلك مدعاة للفكاهة والسخرية. أنا أعتقد بأن أفضل الإصلاحات في التاريخ الإنساني، مثل عتق العبيد، وتحرير المرأة، (وهما المِثالان اللذان ذكرهما الكاردينال) إنما قد حدثت خلال التاريخ بأقل إسناد متوقّع قدّمته المسيحية. وأنا كمُلحد، وكذلك أصدقائي المُلحدون، نرى في أنفسنا أننا أدّينا غرضاً

لحياتنا، وذلك باتخاذ موقف تجاه العالم، وواجهنا البشرية بالحقائق؛ أخبرناهم بأننا لسنا مُخلّدين، ولن تبقى أرواحنا للأبد. وعلينا أن ننتفع مما هو متاح من الوقت لوجودنا على ظهر هذا الكوكب. وعلينا أن نجعله على أفضل ما يكون. وأن نحاول تركه على هيئةٍ أفضل مما وجدناه عليه.

توني جونز: الآن، إلى حد ما أنت قد أجبت عن السؤال، لكن ينتظرنا سؤال آخر يلحق بالسؤال الأول، سؤال من الجمهور.

قيم البقاء للأصلح

سيدة من الجمهور تسأل: حسناً، سؤالي لك هو: بلا وجود للدين، أين سيرسو الحال بقيمنا الأخلاقية؟ أليس من المحتمل أن نعود وننتكس لنسلك سلوك التفسير الداروني بأن البقاء للأصلح؟

د. ريتشارد دوكنز: طبعاً أتمنى ألّا نعمد كبشر أن نسلك سلوك قانون البقاء للأصلح في حياتنا السياسية والاجتماعية، وكذلك في اختيارنا القِيم التي نعتمدها لنحيا على هذا الكوكب. ولطالما قلت، إنني مناصرٌ قوي للتفسير الداروني العلمي فيما يتعلّق بالإجابة عن سؤال: «لماذا نحن موجودون». أما أن نحيا حياتنا كبشر وفقاً للمفهوم الداروني في تفسير التنازع على البقاء، أي أن نجعل المجتمع مُجتمعاً دارونياً (أي كما يصف دارون سلوك المجتمعات الحيوانية في نزاعها على البقاء) فإنه سيكون مجتمعاً أبعد ما يكون عن الراحة والأمان لو اخترناه كنموذج للعيش. أعني إنه سيكون نوعاً من المجتمعات التاتشرية التاتشرية[1].

---

(1) يضرب دوكنز هنا مثلاً ساخراً بمارغريت تاتشر كونها غلّبت منطق القوة على السياسة.

ولهذا السبب أقول؛ إن أحد أهم الدروس التي نستخلصها من دراسة النظرية الدارونية هي ألّا نقع في ما تصفه لنا النظرية نفسها، وأن نحاول ألّا نستقي قيمنا الإنسانية منها، إنها نظرية تخبرنا بما حدث كي نصل إلى حياتنا الحالية ككائنات حيّة.

توني جونز: والآن السؤال نفسه أوجهه إلى الكاردينال بيل.

الكاردينال جورج بيل: هذا الأمر يسترعي الانتباه، لأنني أظن أن البروفيسور دوكنز قد قال للتو في ظرف دقيقتين شيئين متناقضين تماماً. الأول أن العلم ليس بمقدوره أن يُخبرنا لماذا نحن موجودون. وفي الدقيقة الثانية يحاول أن يقول إن العلم أجاب بشكل ما عن هذا السؤال.

د. ريتشارد دوكنز: لا، لا، أنا قلت؛ إنه ليس باستطاعة العلم أن يخبرنا «لماذا» نحن هنا.

الكاردينال جورج بيل: نعم، لا يمكن له.

د. ريتشارد دوكنز: حسناً، إذن أنا أناقضك ببساطة في هذا الطرح[1]

الكاردينال جورج بيل: حسناً، ما السبب الذي يجعل العِلم عاجزاً عن إخبارنا عن سبب وجودنا هنا؟ العِلم يُخبرنا كيف حدثت الأشياء. لكنّه لا يخبرنا أيّ شيء عن السبب في حدوث (الانفجار العظيم) مثلاً، ولماذا كان هناك انتقال من الحالة المادية الجمودية إلى الحالة الحيّة؟ العِلم صامت في هذا الشأن، ولم يفسّر لنا لماذا وجد الإجابة عن كل سؤال يتعلّق بالمُعطيات العِلمية، بينما ترك قضيّة الحياة والروح دون

---

(1) دوكنز هنا يفرّق في طرحه بين السبب (الغرض) في الوجود (والذي لا يعرفه العِلم)، وبين قصّة الوجود (والتي اكتشفها العِلم بأفضل مما فعل الدين)، وفقاً لرأيه.

أن يمسّها، فلماذا يمكن له أن يكون ديناً بديلاً عن وجود الله؟ ولماذا نفترضه هو الأصلح؟

د. ريتشارد دوكنز: لماذا هو الأصلح؟ هذا سؤال مُنفصل وسأعود إليه. لماذا وُجدنا؟ أنت تتلاعب بكلمة «لماذا» في هذا السؤال. العِلم يعمل على حلّ المعضلات والعوامل التي قادت إلى وجودنا. فجواب «لماذا» التي طرحتها سيكون ضمن هذا النطاق، جواب «لماذا» التي طرحتها والتي تتحرّى عن الغرض من الوجود، فهي في رأيي سؤال بلا معنى. لا يمكنك أن تصيغ سؤالاً من قبيل «لماذا الجبال موجودة؟» وكأنك تريد أن تقول إن هناك غرضاً حتمياً يقف خلف وجودها، هل يجب أن يكون للجبال غرض؟ ما يمكن أن تسأله فقط هو: «ما هي الظروف والحقائق التي قادت إلى وجود الجبال»، وهكذا بالنسبة لكل كلمة «لماذا» طرحتها هنا. صحيح أن هناك فجوات معرفية ومعلوماتية في العلم لم تملأ بعد، لكنّي أتمنى لك نيافة الكاردينال، ألّا تقع في فخ القول بأن الله سيملأ هذه الفجوات المعلوماتية بواسطة الدين بدلاً من العِلم.

الكاردينال جورج بيل: لا لن أقول هذا، ويسعدني أن أعود لأشرح هذه النقطة.

توني جونز: سنعود إلى هذه النقطة لاحقاً لأني أعرف أن هناك أسئلة متعلقة بالقضايا الكبرى التي تكلمنا عنها للتو، لكن يمكن لك الرّد وبعدها ننتقل إلى أسئلة أخرى.

الكاردينال جورج بيل: شكراً، جزء من كينونة الإنسان أن يسأل «لماذا» وُجد على وجه الخليقة. هذه الأسئلة هي التي تميّزنا عن

الحيوانات. أن نسأل لماذا نحن هنا، وهذا سؤال تشترك فيه العلوم كلّها، لكنها كلّها ليست لديها الإجابة عن هذا الموضوع؛ الهدف من وجودنا. قد يكون للعلم إجاباته الدقيقة بشأن وجود الجبال، لكن ليس بمقدور العِلم أن يجيب عن «لماذا وُجد الإنسان؟» وهنا اسمح لي أن أذكرك بأن تطبيق الداروينية الاجتماعية لم يصدر عن تاتشر، إنما صدر عن سفاحين مثل هتلر وستالين شرعوا بالفعل في تطبيق «الانتقاء»على الشعوب. ولأنه كفاح من أجل البقاء، فالقوي يأخذ ما يتمكن من أخذه، والضعيف يتنازل عمّا يتوجب عليه التنازل عنه. وليس هناك من شيء نفعله لكبح هذا القسر والعذاب، وهذا ما رأيناه في أكبر حركتين سياسيتين إلحاديتين[1] شهدتهما الكرة الأرضية خلال القرن المنصرم.

د. ريتشارد دوكنز: أوه، هذا سُخف. هذا طرح سخيف. لقد جمعتم هنا جمهوراً غير متحيّز، فقط للملاحظة. صحيح، دعني أوضح مسألتين مهمتين هنا؛ الأولى، لا علاقة للإلحاد لا من قريب ولا من بعيد بكلّ من هتلر أو ستالين. قد يكون ستالين مُلحداً، لكن هتلر لم يكن كذلك. أما ستالين فقد كان بحد ذاته إلهاً لا يحتاج إلى الدين. لا يهم ما كانت عليه مشاعرهما تجاه الإلحاد. لقد ارتكبا الفظائع لأسباب مُختلفة كليّاً، لا تتعلق بموقفهما من وجود إله. والآن، أنت مُحق في وصفك لما حاول هتلر فعله، بأنه حاول تطبيق الداروينية الاجتماعية على بني البشر. وهذا بالضبط ما عنيته حين قلت سابقاً إن علينا أن نتجنب الداروينية في سلوكنا الاجتماعي فهي نظرية تفسّر ما جرى وليست طريقة نخطط بها الحياة في المستقبل. الداروينية تفسّر بطريقة علمية كيف أتينا إلى هذا الكون.

(1) يقصد النازية في ألمانيا، والشيوعية في الإتحاد السوفياتي.

والآن، نيافة الكاردينال، أنت قلت إن السؤال عن أصل الوجود وسببه هو جزء من طبيعة البشر، قد يكون ذلك صحيحاً لكنه لن يجعل التساؤل مُنتجاً أو ذا أهمية. هناك الكثير من الأسئلة من هذا النوع بإمكانك طرحها. السؤال «لماذا»، ليس بالضرورة أن يكون سؤالاً يستحق البحث عن إجابة له. هناك عدد من الأسئلة يمكن للجمهور توجيهها ومع ذلك فلا إجابة لها. «ما هو لون مشاعر الغيرة مثلاً؟». هذه أسئلة أقل ما توصف بأنها غبية. «لماذا»، هذا سؤال غبي، يمكن لك أن تسأل بدلاً من ذلك، ما هي العوامل التي أدّت إلى وجود أو ظهور شيء ما. هذه أسئلة معقولة وموزونة، لكن سؤال من قبيل «ما هو الغرض من وجود الكون؟» فهو سؤال غبي لا معنى له، بل إنّه لن يقودك إلى شيء حتى لو افترضت أن إلهاً ما هو من صنع الكون بذكائه وبإرادته، سنصل إلى النتيجة نفسها. لماذا خلق هذا الإله الكون؟ لن تكون هناك أي إجابة عقلانية.

الكاردينال جورج بيل: هل لي بمداخلة سريعة؟ أنا أعتقد بأن طرح مثل هذا التساؤل هو أمر إنساني، لم أشترط أن نصل إلى جواب عن هذه التساؤلات، لكنّ الطرح نفسه هو ميل إنساني غير خفي، وحساس، وحقيقي، مثل سؤال: «لماذا يجب أن نرى معاناة في هذا الوجود؟». لقد رافقتْ مثل هذه الاستفهامات الوجود البشري دائماً ولا مجال لنفيها.

الإلحاد واللاأدروية

سيد من الجمهور: سؤالي إلى ريتشار دوكنز؛ في مقابلات سابقة لك، سبق أن قلت إنك غير قادر على أن تثبت عدم وجود الله، وإنك تعدّ نفسك (لا أدروياً؛ أي تعتمد عقيدة عدم المعرفة) أكثر مما تعد نفسك

مُلحداً. لكن لماذا تظهر نفسك وكأنك بطل حركة الإلحاد حول العالم؟ ولماذا توافق على الظهور في عروض تلفزيونية تظهر فيها وكأنك مُجالد بروتستانتي من أجل قضيتك التي هي الإلحاد؟ أليس هذا ملمحاً فيه من اللاعلمية، والنفاق الشيء الكثير؟

توني جونز: فعلاً يا ريتشارد، أنا مشوش قليلاً، لأنك قد أشرت إلى نفسك قبل قليل إلى أنك مُلحد، لكنك في لقائك مع أسقف كانتربري شددت على أنك لا أدروي.

د. ريتشارد دوكنز: في كتابي «وهم الإله»، فصّلت سبع نقاط تمثّل معياراً تصاعدياً حول الموقف من الإيمان. تبدأ من كون الفرد واثقاً تماماً من وجود الله، وهذا لنفترضه رقم ـ 1 ـ في المعيار، وتنتهي بأن يكون واثقاً تماماً من عدم وجود إله، وهذه لنفترضها رقم ـ 7 ـ على المعيار. ورقم ـ 6 ـ لأولئك الذين يحملون مقاصداً ونوايا أن يكونوا مُلحدين. فأنا أعيش حياتي كما لو لم يكن هناك إله، لكنكم لن تجدوا أيّ عالِم من أيّ اتجاه عقلي يمكن له أن يبرهن لكم على عدم وجود أي شيء. ليس باستطاعتي أن أثبت عدم وجود إله، وليس باستطاعتي أن أثبت لكم عدم وجود أرنب عيد الفصح مثلاً (لهذا أنا أعدّ نفسي لا دينياً في ما يتعلّق بوجود الإله، أو أرنب عيد الفصح)، أعيش كمُلحد، لكنني كعالِم لا أقدّم أي برهان على عدم وجود إله، لهذا أنا (لا أدروي/ لا ديني) فيما يتعلّق بوجوده المُفترض. من جهة أخرى، فجميع المؤمنين يمكن عدّهم (مُلحدين) بالأديان الأخرى.

توني جونز: إذن تدفعني إلى السؤال، ما البرهان الذي سيجعلك تغير رأيك؟

د. ريتشارد دوكنز: إن هذا سؤال صعب جداً، ومهمٌّ جداً في الوقت نفسه. في بعض الأحيان أفكر، لو أن صوتاً عظيماً صدر عن كائن ضخم يبلغ طوله 900 قدم![1] يمثل يسوع وبصوت يشبه صوت بول روبنسون[2] فاجأني وصاح «أنا موجود»، ومع هذا، ففي الحقيقة سأتساءل حينها عن واقعية ذلك الوجود، لا يفترض عليّ أن أقبل بأي شيء لا يثبت علمياً ويخالف قوانين الكون، لم يسبق أن تم كسر هذه القوانين.

الكاردينال جورج بيل: لو كنت مكانك لظننتُ نفسي مُصاباً بالهلوسة.

د. ريتشارد دوكنز: بالضبط، أنا أوافقك تماماً، تماماً.

توني جونز: هل يمكن أن أحوّل السؤال إليك نيافة الكاردينال؟ هل يمكن لك أن تمنح دوكنز نوعاً من الأدلّة والبراهين التي قد تنفعه لو أراد أن يؤمن؟ أدلّة علمية مثلاً على وجود الله؟

الكاردينال جورج بيل: لا، لأنه لن يقبل سوى بالأدلّة المُرتبطة بالتجارب الحسّية والفيزيائية. وبعبارة أخرى، فهو يستثني ويتجاهل عالم الميتافيزيقيا (الغيب). إن أسس التناقض، ونفي الإمكانية الجدلية لا تعمل عملها بالضد من المنطق، إنما تذهب إلى ما وراء المنطق. لكن هل يمكن لي أن أقترح اقتراحاً بسيطاً حول السبب الذي يدعو دوكنز إلى أن يسمّي نفسه مُلحداً؟ لأنه كتب ذات مرّة عام 2002 يقول بأنه كان

(1) دوكنز هنا يشير إلى أن مُدناً عدّة في العالم صنعت تماثيل عملاقة للمسيح، أشهرها التمثال العملاق في ريو دي جانيرو بالبرازيل والذي أقيم على قمّة جبل مطل على المدينة.

(2) يشير إلى المغنّي الأميركي الشهير بول روبنسون صاحب الصوت القوي.

يناقش فيما إذا كان يعدّ نفسه (لا أدروياً) أو (لا دينياً)، وقال حينها إنه يفضّل استخدام مصطلح (مُلحد) لأنه يشكل صدمة أكبر، وهو مصطلح أشبه بالقنبلة، وأكثر ديناميكية. وهو مصطلح يمكن أن يهزّ الناس، بينما أن ترحل حول العالم وتقول إنك (لا أدروي) أو (لا ديني) فإنه ليس بالأمر المُثير.

توني جونز: حسناً، لندع دوكنز يرُد.

د. ريتشارد دوكنز: أنا لا أذكر أنني قد كتبت هذا، ولكنه لا يفاجئني. لكنها قضيّة مستمرة في أن نتحرى أفضل الطرق لإفهام الناس. لكن هناك مشكلة في المصطلح (مُلحد) بحدّ ذاته، وخاصة في الولايات المتحدة. ولا أعرف إن كان الشيء نفسه ينطبق عليه هنا في أستراليا. هناك امرأة آيرلندية اسمها (جوليا سويني)، وهي مُمثلة، مثّلت فيلماً عن الكيفية التي هربت بها من التزاماتها تجاه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي كانت تتبعها. وكان فيلماً حاذقاً جداً. وفي النهاية تكاشف والدتها بأنها (مُلحدة)!، فتتصل بها أمّها عبر الهاتف وتقول: «حسناً، أنا لا أمانع ألّا تكوني مؤمنة بالله لكن أن تكوني ملحدة!، فهذه مصيبة!». ما أريد قوله هو أن الكلمة (مُلحد)، على خلاف قولنا غير مؤمن بالله؛ لها وقع سيء في الأسماع. ولهذا يرغب عدد من الناس بمغادرة هذه الكلمة إلى مصطلح (لا ديني)، أو ببساطة (علماني)، ولهذا في كثير من الأحيان أستخدم كل هذه الإشارات اللغوية والدلالية معاً.

توني جونز: نيافة الكاردينال، هل بإمكاني العودة إليك حول سؤال الوجود الإلهي؟ لماذا تبدّى لله أن يُعطي، بصورة عشوائية، برهان وجوده لمجموعة صغيرة من اليهود قبل 2000 عام؟ ولم يلحقها بأي برهان آخر؟

الكاردينال جورج بيل: حسناً، أظنّ بأنه لن يكون هناك أي دليل علمي متوفر لشرح الأسباب. لكنّي لا أومن بأن الله يأتي بأيّ فعل بشكل عشوائي. رغم أن الله قد أرسى للخليقة نظاماً، يبدو للبعض بأنه يختار اختيارات عشوائية. لكنك لو أردت أن يُنجز شيء ما فعليك أن تسأل جهة ما. ولأسباب معيّنة فقد اختار الله اليهود ليُظهر لهم دلائل ربّانيته ووجوده. في بعض الأحيان نحن نختار أن نسأل الأشخاص المشغولين لأننا نعرف أنهم سينجزون المطلوب، وقد نترك الأشخاص غير المُنشغلين لأنهم لن يؤدوا الغرض. لم يكن اليهود حينها متساوين في العقلية والوعي، أو حتى بالمستوى الثقافي مع المصريين أو غيرهم.

توني جونز: غير مناظرين لهم بالوعي؟

الكاردينال جورج بيل: نعم كانوا أقلّ شأناً في الوعي، والمنظومة الأخلاقية أيضاً.

توني جونز: كيف لك أن تقدّر هذا؟

الكاردينال جورج بيل: لأن باستطاعتك أن ترى ثمرات حضارتهم. مصر كانت القوّة الأعظم لآلاف السنين قبل المسيحية. بلاد فارس كانت قوّة عظمى أيضاً. لكن الفقراء، والمساكين كانوا من الشعب اليهودي، وكانوا بالأصل مجرّد رعاة. ثم ضاعوا في التيه، وما زالوا تائهين بين هاتين القوّتين.

توني جونز: لكن أن تكون راعياً، هذا ليس بالمعيار المعقول لتحديد المستوى الثقافي ومستوى الوعي، ألا توافقني في هذا؟

الكاردينال جورج بيل: لا، ليس معياراً. لكنّه مؤشر إلى الحال الثقافي

السائد بينهم. وقد تجد عدداً كبيراً من الناس يتمتعون بالذكاء العالي، لكنهم يفتقرون إلى الرقي الثقافي، ما أريد قوله هو...

توني جونز: عذراً على المقاطعة، لكن هل يشمل ذلك المسيح نفسه أيضاً؟ والذي كان يهودياً وجزءاً من المجتمع اليهودي.

الكاردينال جورج بيل: محاولة جيّدة منك يا توني، لكن المزامير كانت واضحة في الإشارة إلى رُقي تلك الشعوب، وعظمة ما أنجزوا من ممالك. ولا مقارنة بين اليهود وبين تلك الشعوب، لكن المسيح لم يأتِ كفيلسوف لتعليم النُخبة. جاء المسيح للفقراء، والمساكين والمسحوقين. في الحقيقة نجد الآن اليهود وقد تحوّلوا إلى نخبة علمية واجتماعية في كل بلدان الأرض، رغم أنّهم تعرّضوا إلى الرفض والتطويق والطرد من أعمالهم ومصالحهم. أعني أن المسيح كان أعظم ابنٍ لله، ولو تركنا ذلك جانباً، فهو أعظم رجل حلّ على هذه الأرض. ولهذا فأنا أكنّ احتراماً لليهود، لكنّي لا أريد أن أبالغ بحجم دورهم الإنساني ومساهمتهم في الحضارة الإنسانية في ذلك الوقت.

الانفجار العظيم والانبعاث من لاشيء

سيد من الجمهور: سؤالي إلى ريتشارد دوكنز، المؤمنون بحدوث الانفجار العظيم، يؤمنون أيضاً أنه لم يكن هناك قبله من شيء على الإطلاق. ثم فجأة، بعد ذلك، انبثق هذا الكون من الانفجار العظيم. ولو أغلقت راحة يدي، ونطقت فوقها بكلمة (انفجار) ثم فتحتها، فستبقى فارغة. نريد منك أن تفسّر لنا، بكلمات يفهمها الناس، كيف حدث ذلك؟ كيف يمكن للكون أن يأتي من لا شيء؟

د. ريتشارد دوكنز: حسناً، من الواضح أنك لست متخصصاً في الفيزياء، وكذلك أنا. لكنني سعيد أن أقول هذا هنا: بأنني خلال تواجدي في أستراليا سأقدم مجموعة من المحاضرات العامة مع زميلي لورانس كراوس (Lawerence Krauss)[1] وفي الحقيقة فهو يكتب الآن كتاباً يجيب بالضبط عن هذا التساؤل، كيف يمكن أن نستخرج شيئاً من لاشيء. بالتأكيد إن الحصول على شيء من لاشيء، إنما يخالف المألوف في الفهم العام للفيزياء الكمّية. وصحيح أن الحواس العامة والأدوات العقلية التقليدية لا تسعفك في فهم كيفية خروج شيء من لاشيء. لكنّي أوكد لك أن كل العلوم التطبيقية تساند أطروحة نظرية «الانفجار العظيم»، ولهذا فإن هذا الموضوع مهم جداً. لكنك لو حاولت أن تستبدل التفسير الفيزيائي لهذا الانفجار بمفهوم «الإله الذكي»، فإنك ستصل إلى تفسير أسوأ بالنتيجة. وهو تفسير أكثر عُسرة على التبرير أو الفهم أو التسبيب، وأكثر افتراقاً عمّا أكدته العلوم البشرية التي تزداد معرفتها يوماً بعد آخر.

ما يعمل العلماء على تفسيره الآن، لا يشتمل فقط تفسير كيفية استخراج شيء من لاشيء كما حدث في الانفجار العظيم، إنما تفسير كيفية انبثاق الكون على هذه الصورة من التعقيد. كانت تلك الحلقات التي عمل عليها دارون، واليوم العلماء يتبعونه في التفسيرات والعمل على فكّ رموز الكون. وما زال علماء الفيزياء يعملون على استكشاف الأصول، وعلاقتها الكونية. ومن بين العلماء العاملين على هذا الشأن،

---

(1) لورانس كراوس (Lawerence Krauss)؛ بروفيسور أميركي في الفيزياء النظرية. ومؤسس معهد الأرض والفضاء في جامعة أريزونا. من أهم كتبه «كون من لاشيء».

البروفيسور كراوس، حقيقة إنه لمن العجيب والمُعقّد جداً انبثاق هذا الكون عن الانفجار العظيم.

توني جونز: عذراً للمقاطعة، لكنه سؤال قديم؛ توماس أكويناس[1] طرحه للتساؤل. حيث قال إنه لا بد وأن مرّ على الكون وقت لم تكن فيه المحسوسات موجودة، لكن كيف للمحسوس أن يأتي من لاشيء؟ كانت تلك وجهة نظره، وهي الآن تكرر على مسامعنا.

د. ريتشارد دوكنز: حسناً، من الممكن لشيء أن يأتي من لاشيء، وهذا ما تحاول الفيزياء الحديثة أن تخبرنا به. وأنت طلبت منّي أن أتكلم بلغة يفهمها العامة. فلو قلت لك إن لدينا (المادة) ومعها (المادة المُضادّة)، فسيكون لديك في الحصيلة لا شيء. وما ينادي به لورانس كراوس اليوم، ويحاول أن يشرحه عبر الفيزياء الحديثة هو شيء من هذا القبيل. لو بدأتْ العملية من لا شيء، ولو كانت قابلة للانعكاس فستنتهي إلى لا شيء. أو أن تنتهي إلى إيجاد (المادة) و(المادة المضادّة) في قبالتها. الفيزياء الحديثة تعمل على هذا الأمر، ابتداء من الرياضيات تحديداً. لأنها نظرية رياضية قبل أن تصبح نظرية فيزيائية. لست مؤهلاً للإجابة عن هذا السؤال التفصيلي، لكنّي متأكد باستحالة حلّها عبر افتراض وجود (ذكاء) خفي يدير العملية. لأن هذا الافتراض سيحيلنا إلى سؤال أكبر عن أصل وجود هذا الذكاء المتحكّم وكيف أتى إلى الوجود. هذا حتماً لن يكون جواباً، مهما كان مفهوم الفيزياء الذي يأخذنا إليه الانبثاق

---

(1) توماس أكويناس (Thomas Aquinis)، أو توما الأكويني؛ فيلسوف لاهوتي من الكنيسة الكاثوليكية، عاش في القرن الثالث عشر الميلادي. فرّق بين الفلسفة واللاهوت، وقال إن الفلسفة تعتمد على العقل وحده لكن اللاهوت يعوّل على الوحي من غير إنكار للعقل، وحاول بهذه الطريقة أن يقرّب بين الفلسفة والدين.

من لاشيء. وإذا كان يمكن للفيزياء أن تخبرنا كيف انبثق شيء من لا شيء، فهي تخبرنا أيضاً بأبعد من هذا. إنها تعلّمنا (وفق علومنا الطبيعية ـ حسب كراوس)، بأن هذا اللاشيء كان متقلقلاً. شيء ما كان مقيّداً أن يبزغ إلى الوجود منه. وإذا كنتُ أفهم كراوس بصورة صحيحة، فإن هذا الأمر يحدث طوال الوقت. يبدو هذا المبدأ وكأنه نسخة فيزيائية من المغالطة المنطقية الشهيرة: خطآن ينتجان صواباً واحداً. تومض الجزيئات والجزيئات المضادة، فتنطفئ مثل سراج الليل، تفني بعضها بعضاً. ثم تعيد خلق نفسها بعملية معاكسة من اللاشيء.

لقد استغرق التكوين العفوي للكون جزءاً من الثانية في الانفجار العظيم، ثم بعد ذلك استغرق مكاناً يشمل الكون وكل ما يحتويه، في رقم له من الأصفار 29 صفراً إلى جانبه.

توني جونز: كاردينال جورج بيل، هل يمكن أن نسمع رأيك؟

الكاردينال جورج بيل: شكراً، حسناً، هناك علل ومشكلات كثيرة فيما يطرحه دوكنز هنا. لكن المشكلة الأكبر هي أنه يلغي الوجود الإلهي وبالمقابل لا يضع شيئاً مفهوماً كبديل. إنه يستمر بالحديث والشرح وكأن الوجود الإلهي هو نوع من الترف ضمن الزمان والمكان. لكن حتى الفلاسفة الإغريق قبل 500 عام قبل ميلاد المسيح، افترضوا أن الله هو خارج الزمان والمكان. إن الله ضرورة، مكتفٍ بذاته، غير مُسَبَّب، ولا شروط موجودة كي يخضع لها. لهذا فإن إلغاءك هذا الوجود الإلهي لا يعني أنك قد وصلت إلى تفسير بديل مفهوم ومقبول، بل كل ما هنالك أنك لويت أعناق الحقائق الإلهية الأزلية، والتي بها يكون كلّ شيء مفهوماً.

ثاني النقاط المهمة، فإن كراوس لم يقل شيئاً يفترض أن الانفجار العظيم صدر عن لاشيء. لقد تنصّل في كتابه من هذا الربط، وذلك في آخر الصفحات، ولا أعلم هل أن دوكنز قرأ هذه الصفحات أم لا، لأنني رأيت أنك قدّمت لكتاب كراوس. لقد شرح كراوس كيف أن الانفجار العظيم نشأ عن تلاقي بعض الجزيئات، وربما تلاقي (فراغ) ببعض القوى الكهرومغناطيسية التي عملت عليه. هذا ما قاله كراوس. وكان هناك مراجعة ممتازة للكتاب نشرتها صحيفة نيويورك تايمز. فكتاب كراوس لا يحتوي على أي صفحة يتعرّض بها للدين، مع كونه ناكراً وناقضاً علنياً لأفكار الدين. ومع هذا فلم يقل أبداً أن شيئاً ما خرج عن (لاشيء)، لم يقل هذا أبداً.

د. ريتشارد دوكنز: بإمكانك أن تجادل في هذا، وبالتأكيد الأمر يعتمد على مفهومك لـ(لاشيء)، لكن لماذا تجدون هذا الأمر مضحكاً؟!

الكاردينال جورج بيل: أظن أن الأمر مدعاة للسخرية لو حاولت أن تعرّف معنى (لاشيء).

توني جونز: دعني أضع هذا الأمر في سؤال، بما أنك تعجز عن إثبات وجود الله، فهل هذا اللاشيء الذي تتحدث عنه، يمكن أن يكون قوّة خفية خلّاقة؟

د. ريتشارد دوكنز: إذا كنت تتحدّث عن الله وتعتبره ذكاءً خلّاقاً إذن فأنت تتحدث عن شيء بالغ التعقيد، وليس هناك احتمال لوجوده. وهو شيء يتطلب تفسيراً بذاته. الـ(لاشيء) الذي تحدّث عنه كراوس، سواء

كان (لاشيء)[1] بمفهوم الناس العاديين، أو بمفاهيم علماء الفيزياء، فهو حتماً سيكون أمراً أسهل وأبسط بكثير مما تحاول نظرية وجود الصانع الذكي والقدير إثباته.

في الحقيقة إن كل العلماء يكافحون، ويناضلون من أجل شرح كيف يمكن أن نحصل على النظام البديع والمُعقد للكون، لكنه ناتج عن بدايات سهلة وبسيطة، وبالتالي تكون سهلة على الفهم أيضاً. لقد طرح كراوس مفهوم المادّة المتفاعلة التي تتفاعل مع الفراغ، كما طرح مفهومه عن (لاشيء)، ومن السهل أن نجادل فيما إذا كانت (لاشيء) هي الكلمة المناسبة لما طرحه كراوس أم لا. لكن على أي شاكلة كانت تفسيرات كراوس؟، فهي تفسيرات سهلة، ولهذا فهي يمكن أن ترتبط ببعضها علمياً وبسببية متبادلة. بينما تقف فكرة (الله)، أو الصانع الذكي، كفكرة لا تصلح لأي نوع من أنواع التفسير. وليس موفّقاً أن نذكر بتعريفات توماس أوكويناس وفرضياته بأن هذا الصانع الذكي خارج عن الزمان والمكان. إن هذه العملية مجرّد تملص من التفسير، وهزيمة أمام

---

(1) يشرح لورانس كراوس هذه الجزئية بالنص التالي: عام 1919، تمكنت بعثة رصد فلكية من تحديد الانحناء الضوئي لأحد النجوم خلال عملية رصد للكسوف الشمسي. والضوء كما تعلمون يسير بخطوط مستقيمة. لكن هذا الانحناء طابق في نسبته ما سبق لآينشتاين أن توقعه في تطبيقات نظريته. وعلى الفور، عاد المجتمع العلمي ليحتفي بآينشتاين باعتبار أن نظريته قد وجدت برهاناً إضافياً. النتيجة من هذا الرصد هي دخول مفهوم «الفضاء المنحني» إلى حيّز الرياضيات، بعد أن كنّا نتحدث بثلاثة أبعاد فقط. وهو الأمر الذي قاد فيرا روبين (Vera Rubin) فيما بعد (1976) إلى برهنة وجود «المادة المعتمة». وحين أضفنا كمّ المادة المعتمة إلى كمّ المادة المرئية لم تكن النسبة 1:1 كما توقعنا، بل كانت النسبة هي 10:1. هذا يعني أن هناك عملية «سحق» قد جرت للمادة المعتمة. ولا يمكن أن تكون محتوية على البروتونات والنيوتيرونات بالنسبة الطبيعية لباقي المواد في الكون. وكان هذ مفتاحاً أولياً لفهم كيف سينتهي الكون بمعرفة مصير المادة المعتمة. / من كتاب «A Universe fro Nothing _ Lawrence.M.Krauss _ 2012».

المُطالبة بمفهوم يفسّر ظواهر العِلم وما أثبته العلماء عبر مئات السنين من البحث العلمي الذي يؤكد بعضه بعضاً.

نظرية التطوّر والكنيسة

سيّد من الجمهور: كوني شاباً كاثوليكي الديانة ومشتغلاً في حقل العلوم، أود أن أسأل نيافة الكاردينال أن يوضّح لنا رأي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في نظرية التطوّر، وأن يعلّق لنا برأيه عن المزاوجة بين العلم والدين، هل هي في الواقع مزاوجة حقيقية؟ هل يلتقي العلم والدين في هذا الموضوع؟

الكاردينال جورج بيل: حسناً، العِلم والدين هما نشاطان مختلفان. لكنّي أظن أن دارون قد أنجز إسهاماً عظيماً في العِلم. وقد التقيت بعلماء في البيولوجيا والسلوك الحيواني، وأحدهم كان عالماً مهماً وعمل على دراسة تجمعات النمل لسنوات عدّة، وقال إنه تمكن من تغيير سلوكيات النمل في المستعمرات بتغيير الظروف. وقال إن دارون أدرك أن هناك نواحٍ لا يمكن للتطوّر أن يفسرها. وكان دارون موحّداً على المستوى الشخصي. وهو قد عبّر عن عدم إيمانه بأن الكون والإبداعات التي فيه يمكن أن تأتي بمحض المصادفة. وهنا قال عن نفسه «أنا في هذا الصدد أصنّف نفسي كموحّد».

د. ريتشارد دوكنز: ببساطة شديدة، هذا ليس صحيحاً.

الكاردينال جورج بيل: عذراً، لكنها الحقيقة.

توني جونز: دعني أفسر لك جوهر السؤال، هل تؤمن بأن الإنسان قد تطوّر عن القرد[1] مثلاً؟

---

(1) أجاب دوكنز في أكثر من موضع، بأن الإنسان لم ينحدر من القرد، وإن هذه=

الكاردينال جورج بيل: نعم، إنسان نياندرتال ربما.

د. ريتشارد دوكنز: النياندرتال، هم أبناء عمومة للبشرية، نحن لا ننحدر من نياندرتال. بل كلانا (البشر ونياندرتال) ننحدر من أصل واحد.

الكاردينال جورج بيل: أين يمكنك أن تجد نياندرتال اليوم لو كانوا أبناء عمومتنا مثلما تقول؟

د. ريتشارد دوكنز: بالتأكيد لم يعودوا موجودين، إنما انقرضوا.

الكاردينال جورج بيل: بالضبط هذه هي النقطة التي أريد إيضاحها. الروح ليس قطرة شراب تضاف إلى مزيج ما، إنه مبدأ الحياة. وكان هناك الإنسان الأول. الآن نحن نؤمن بأن الإنسان الأول قد تطوّر في جنوب أفريقيا. لست متأكداً من الفترة الزمنية التي قضاها هناك قبل وجودنا هذا، نعلم عنه بسبب الرسومات التي خلّفها هناك على جدران الكهوف وباقي الدلائل الأخرى. وبالتأكيد لم نتحصل على بقايا مماثلة من النياندرتال، فيصحّ هنا أن نقول: لا نعرف بالضبط متى كان الإنسان الأول موجوداً على سطح الكوكب، إنما توجّب أن يوجد هذا الإنسان الأول.

توني جونز: إذن أنت هنا تتحدث عن سيناريو مشابه لقصّة آدم وحواء، لكن مع وجود حقيقي لهما، يعني أنك تؤكد هذه القصّة.

الكاردينال جورج بيل: في الحقيقة إن (آدم وحواء) هو مصطلح مجازي يعبّر عن قصّة مجازية، لكن ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن الحياة

= بروبوغندا إعلامية. الأصل أن القرد والإنسان يشتركان في أصول واحدة. بل إن جميع الأحياء قد انبثقت من المايتوكوندريا المعززة بالنواة والتي ظهرت قبل 1.6 مليار سنة.

والأرض، مثلها مثل أي إنسان. الأمر ليس معقوداً على العلم كلّه، وهذا ما يريد القدير أن يقوله، والأهم من هذا؛ أولاً إن الله هو من خلق السماوات والأرض والحياة. ثانياً؛ إن المفتاح لهذا الكون هو الإنسان. ثالثاً؛ إنها بالفعل عملية ميثولوجية معقّدة وبالغة الاستحالة محاولة تفسير أصل الشرور في هذا العالم. وهي بالتأكيد ليست من ضمن الحقائق العِلمية التي يمكن برهنتها فيزيائياً أو حسّياً. بل إنها قصّة دينية قيلت لأسباب دينية، ولمقاصد دينية تقويمية.

توني جونز: فقط لأستوفي هذه النقطة حقّها من النقاش، ولأن العهد القديم مليء بالقصص المشابهة، فهل يمكن أن نستدل على نقطة معيّنة نفرّق فيها بين الحقائق والمجاز في تلك القصص؟ مثلاً قصّة تلقّي موسى للوصايا العشرة مكتوبة مباشرة من قبل الإله.

الكاردينال جورج بيل: لست متأكداً من أن العهد القديم يقول بأن الوصايا العشرة قد كُتبت من قبل الله مباشرة، لكن لو نحيّنا هذا جانباً، ألم يكن موسى مُصلحاً كبيراً؟ كان هناك تواصل بديع مع الذات الإلهية. في الواقع، عبر قراءة سيرة موسى يمكن لنا باعتبارنا كاثوليكيين، أن نقف مع الإغريق على منصّة واحدة في الإعلان عن الذات الإلهية حين قال له الرّب؛ اذهب إلى المصريين وقل لهم: إني أنا الله الذي تعرفونه[1].

(1) هذه الجملة التوراتية تتطابق في المعنى والمبنى بين القرآن والكتاب المقدس والميثولوجيا الإغريقية. جاءت في القرآن على شكل: «إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي»، سورة طه 14. وفي التوراة قيلت بالشكل التالي: «אֶהְיֶה אֲשֶׁר אֶהְיֶה"، سفر الخروج، الآية 14. وبالعربية تقرأ: «إيهيا آشير إيهيا». وكذلك في التاريخ الهيلينستي الإغريقي يظهر شيء مماثل.

د. ريتشارد دوكنز: طبعاً، يدفعني الفضول أن أعرف، لو لم تكن قصّة آدم وحواء قصّة حقيقية، فمن أين أتت قصّة الخطيئة الأساسية التي يقول بها الكهنوت المسيحي؟ لكنّي مع هذا، أريد أن أوضح قصّة وجود إنسان أول (أبو البشر). إن هذا سؤال صعب ومحيّر في الحقيقة. لأننا نعرف أن الأنواع السابقة التي انحدرنا منها هي ما تسمى بـ(الهوموايريكتوس Homoerectus، وقبل هذا كان هناك نوع مما يسمّى بـ(الأسترالابثكس Australopithecus)[1]، لكن لم يكن هناك أبداً كائن أخير من نوع الهومو ايريكتوس وخرج منه مباشرة أوّل أنسان من نوع (الهوماسابيان Homosapiens)[2] (وهو الإنسان المُنتصب الذي ينحدر منه الجنس البشري الحالي)، كل مخلوق ولد هو في الحقيقة ينتمي للنوع نفسه الذي يتكوّن منه والداه المباشران، لكن عملية التطوّر حدثت بشكل تدريجي وبطيء للغاية. ليس بإمكاننا أن نقول إنه فجأة قد

---

(1) الأسترالابثكوس (Australopithecus)؛ هو إنسان غرب أفريقيا. عاش قبل 2 ـ 4 مليون سنة، وبدأ باستخدام أولى الأدوات الحجرية البسيطة. ويمكن اعتباره القرد الذكي الأول، ويغطي جسمه الشعر. وتقول الأبحاث الأحفورية إنه كان يتغذى بشكل كبير على الفواكه والأثمار البرّية. وآخر هذه الأحفوريات (2010): إن هذا الإنسان الذي عاش قبل 3.4 مليون سنة، قد استخدم الأحجار لتقطيع أجسام حيوانات صغيرة، مما يعني أنه قد مارس الصيد بطرقه البدائية، دون أن تكون لديه أدوات متطورة نسبياً للصيد.

(2) الهوماسابيان (Homosapiens)؛ هو الإنسان المُنتصب القامة. ظهر منحدراً عمّا يسمى بالإنسان العامل. عاش الهوموسابيان فترة أطول نسبياً من فترات أسلافه؛ حيث تقدّر الأبحاث الأحفورية أنه عاش من الفترة قبل 1.6 مليون عام إلى غاية 400 ألف سنة ماضية. وهناك أحفوريات تشير إلى بقاء هذا النوع بشكل نادر إلى غاية 50 ألف سنة ماضية، وخاصّة إنسان جاوة الأندونيسية. الهوموسابيان هو الإنسان الذي نشأ في أفريقيا، وهو أول إنسان يعيش خارجها مع أول موجات النزوح، وهذا ما يفسّر بقائه لفترة طويلة نسبياً. وفي عهده ابتدأ استخدام النار.

ظهر الإنسان الحالي. لم يحدث في التاريخ الأحيائي أن أنجب نوع من الكائنات نوعاً آخر مختلفاً عنه وثم بدأت بعد ذلك عملية تناسل للنوع الحديث، هذه تحدث عبر أجيال طويلة تعاني التغيير التدرجي النسبي، والأمر يتم عن طريق ترجيح مورثات على مورثات أخرى، ثم يتحوّل هذا الترشيح إلى (صفة ثابتة)، أو (شفرة جينية مفضّلة) ينقلها الكائن الحي إلى الجيل التالي.

لقد كان هناك دوماً فرق طفيف بين الجيل والجيل الذي قبله. هذه نقطة علمية أرى من المهم أن يفهمها الناس. ولا أعلم إن كانت التبريرات الدينية تتناسب مع هذه الحقيقة العلمية، لكن عدداً من الباباوات المتلاحقين حاولوا أن يركزوا على أن الله أضاف التراب إلى خلق الإنسان في مرحلة ما ثم أضاف الروح. ولدينا اليوم سجل من الأحفوريات المكتشف حول العالم، وخاصة من منطقة غرب أفريقيا تكشف لنا عن تاريخ سحيق من الوجود البشري والتطوّر. في وقت ما كان هناك إنسان الأسترالابثك، وإنسان الإيريكتس، وإنسان الهومو سابيان الأول، إلى أن وصلنا إلى الإنسان الحديث (الهوموسابيان الحديث)، ففي أي لحظة من تلك العصور المليونية في الأعوام بذر الله بذرة الروح؟ وماذا يمكن أن نفعل بفكرة الخطيئة الأولى إذا لم يكن هناك آدم وحواء حيث اكتشفنا من خلال نيافة الكاردينال أن القصّة مجازية؟

الكاردينال جورج بيل: بالتأكيد أنت لا تتوقع أن الله كان يتجوّل بين المخلوقات ليحقنها بحقنة الحياة، ولو لم يكن هناك من مخلوق أوّل إذن نحن لسنا من البشر الآن. الروح هو مبدأ الحياة. وهناك أرواح

للحيوانات. كل الكائنات الحيّة لها نوع من الروح. لكن روح الإنسان أرقى وأكثر تعقيداً من أرواح الحيوانات، حيث أن لنا كبشر إمكانية التواصل واللغة والتحضّر.

علم المناخ والأدلّة

سيدة من الجمهور تسأل: سؤالي للكاردينال جورج بيل؛ أنت أحد المشككين في أن التغيرات المناخية تقف خلفها مسببات بشرية ومن صنع الإنسان، وطالبت بأدلّة واقعية وملموسة تربط بين التغير المناخي وبين مسؤولية البشر. فلماذا لم تطلب مثل هذه الأدلّة حين يتعلّق الموضوع بإثباتك لوجود الرّب؟

الكاردينال جورج بيل: أنا سعيد جداً أن أجيب عن هذا السؤال، أولاً؛ أنا لست من المشككين بحقيقة التغيرات المناخية. لقد عشت طويلاً في ملبورن، وعادة ما يقال إن كان الجو لا يعجبك فيها فانتظر 20 دقيقة أخرى، كناية عن التقلّبات السريعة للجو. لكنّي أضع شكوكاً حول حجم الإسهام البشري في إحداث هذه التغيرات المناخية والتسبب بها. حين نتحدث عن المناخ، فيجب أن نضع الأدلّة. لكن في سؤال الوجود الإلهي، فهو ليس سؤالاً موضوعاً برسم العلم كي يجيب عليه، والعلماء اعترفوا بهذا. إنه في الحقيقة سؤال مفتوح للمنطق حسب اعتقادي. لديك الأسباب التي تجعلك تأخذ بحقائق العلم، لكن الانتخاب أو الاصطفاء العشوائي لم يعد يؤمن به أحد، وهناك الكثير من العلماء من الذين رفضوا هذه الفكرة. ليس هناك من انتقاء عشوائي كما قال به دوكنز.

د. ريتشارد دوكنز: أنا لم أتحدث عن انتخاب عشوائي، وأرفضه رفضاً قاطعاً، ولا أعتبر أن التطوّر الداروني هو انتخاب عشوائي. التطوّر أبعد ما يكون عن العشوائية.

الكاردينال جورج بيل: إذا لم يكن عشوائياً إذن ثمّة هدف وغرض يقفان خلفه. أو أن تشرح لنا ما معنى كلمة (غير عشوائي) في مفهومك.

د. ريتشارد دوكنز: بالتأكيد، لقد عملت طوال حياتي على هذا الموضوع. إن هناك تنوّعاً جينياً عشوائياً انتقالياً بين الجيل وما يليه، وليس هناك من بقاء عشوائي. كما أن عملية إعادة إنتاج الأجيال تجري بلا عشوائية. وكلّما تقدّمت الأجيال، تصبح الكائنات الحيّة أكثر مُلائمة في ما تفعله. إن هذا الأمر لا يجري بعشوائية في جوهره، بل هو يحمل غرضاً جينياً آنيّاً يُنجز عبر الانتقاء، هذا ما يسمّى الانتخاب الطبيعي. هذا لا يشبه تبنّي الأغراض والأهداف بالمعنى الإنساني والعقلاني أو الفلسفي، ليس بمفهومنا للغرض، الجين لا يفكر مثل البشر. بل إنه يفهم الأغراض والأهداف عبر الانتقاء نحو الأنسب، وعبر تغليب مورثات معيّنة بالضّد من مورثات أخرى غير مرغوبة، بمعنى أنها غير ملائمة لغرض البقاء. صحيح يمكن لك أن تنظر إلى جناح طير وتقول إن له غرضاً معيّناً، ويمكن أن ننظر إلى العين البشرية ونقول إن لها غرضاً واستخداماً هي الأخرى، لكنّه استخدام حياتي. وليس بمفهوم الغرض البشري من الوجود نفسه. فليس لوجود الكائن نفسه أيّ غرض. لقد تطوّرت هذه الأعضاء عبر عملية الانتخاب الطبيعي التي هي ليست عملية عشوائية. ومع هذا كلّه، فأنا أوكد أن عدداً كبيراً من الناس يقعون في فهم أن (اللاغرض) الذي أصف به حياة الإنسان، إنما مرتبط بأن

عملية الانتخاب الطبيعي هي الأخرى بلا غرض، وتجري بطريقة عشوائية. وهذا عكس الواقع تماماً.

الكاردينال جورج بيل: أنا أومن بأن الله هو من خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الكائنات كلّها. لست متأكداً من الطريقة التي يعمل بها الكون، وهناك من يعبّر عن ذلك بتعبير «التصميم الذكي»، أو أن هناك «صانعاً ذكيّاً» ربط هذه الأشياء كلها معاً. هذا أمر لا يُثبت عن طريق العِلم. إنه مناط بالدين والإيمان أن نؤمن بأن الله هو الخالق.

المعاناة

سؤال من سيدة من الجمهور: كيف يمكن أن نصف الإله الرؤوف والرحيم، والقوي والخالق الذي في الوقت نفسه يخلق كل هذه المعاناة لخلقه؟ كيف يعقل أن هذا الأمر يجري بعلمه؟

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة ليس من اختصاصي أن أجيب كيف يمكن لمثل هذا الرّب أن يكون موجوداً بالأصل. حتى داروين نفسه تساءل عن وجود الرّب أمام معاناة المخلوقات، ووقتها كان يتحدث عن مملكة الحيوان. لكن المعاناة والصعاب، هي طور طبيعي من الوجود الحياتي وظروف الحياة نفسها. ولهذا سبق أن قلت إنني لا أريد أن أحيا وفقاً للصراع الداروني، أو الذي وصفه داروين من أجل البقاء. فهناك كم هائل من المعاناة في عالم الصراع الطبيعي على البقاء. لكنني مهتم بحقيقة ما حدث، وليس لدينا أكثر علمية من نظرية داروين لتشرح لنا أنساق الحياة التي وصلنا إليها في هذا الزمان المقتطع من مليارات السنوات. ربما سيكون جيداً لو أن هنالك نوعاً من العدالة الطبيعية، لذلك أترك للكاردينال أن يفسّر الطرق المفترض أن يعامل بها الله الإنسان.

الكاردينال جورج بيل: ربما يكون هذ السؤال من أصعب الأسئلة، لأنه يقع في قلب ما نحن بصدد مناقشته. وربما لو أتيح لي قبل الموت أن أسال الرّب العادل سؤالاً واحداً سيكون عن سبب وجود معاناة الناس. من جهة أخرى، سيكون من الصعب على الملحد أن يفسّر لنا لماذا هناك خير في هذه الدنيا، ولماذا هنالك جمال، وطيبة. ولماذا هنالك فضائل. ربما أن من فضائل المسيحية هي أن المعاناة هي الفداء للخطايا، وهي الخلاص. وقد ابتدأنا بالمسيح الذي فدانا من أجل تخليصنا.

د. ريتشارد دوكنز: لا ريب أن الإيمان بوجود الله له منافع شخصية، ونفسية، وربما حتى اقتصادية. ربما ينفع في تثبيت استقرار المجتمعات، ربما كان له وظيفة ما، لكن هذا لا علاقة له بما نعمل عليه كعلماء. كلما تقدّم العلم، كلما حصلنا على إجابات أكثر عن الكيفية التي يعمل بها هذا الكون. أما الخرافة التي لا تقدم شيئاً فقد سبق أن أودت بالمجتمعات إلى السقوط في وديان سحيقة من الجهل، فقط لأنهم كانوا يُرجعون كل شيء يحصل إلى قوة الله، وهذا أمر ينفيه العلم نفياً قاطعاً.

(2)

الكفاح في الإلحاد.

«نابليون: هل يحتوي كتابك هذا على أيّ ذكر لله؟

لابلاس: سيدي، لم أكن بحاجة إلى استخدام مثل هذه الفرضية»

من حوار بين نابليون بونابرت وبيير ـ سايمون لابلاس، عالم الرياضيات الشهير ـ 1795.

* * *

ألقى د. ريتشارد دوكنز هذه المحاضرة ضمن لقاءات تيد للحوار (TED Talks)، وهي منظمة تهتم بتشجيع الحوارات في المجالات الجدلية، ألقيت هذه المحاضرة في منتيري ـ كاليفورنيا/ الولايات المتحدة الأميركية في شباط 2002.

ومنظمة TED هي منظمة غير ربحية تأسست عام 1984 تهدف إلى تنظيم حوارات ومهرجانات للتعبير عن الآراء من أجل نقل الأفكار القوية، وإتاحة فرصة أمام الرأي العام كي يكون في تماس حر معها.

* * *

هذه الموسيقى كانت رائعة، أعني موسيقى الافتتاح، إنها موسيقى «مسيرة الفيلة» وهي مقطع من «أوبرا عايدة»[1] ربما سأختارها وأوصي بها أن تُعزف في جنازتي. ربما تسألون لماذا، لأنها موسيقى مليئة بحماس الانتصار؛ حين سأموت، ربما سأشعر بالانتصار. أعني إنني لن أشعر بأي شيء. لكن لو أتيح لي أن أشعر بشيء لحظتها فإنني سأشعر بنشوة الانتصار. ببساطة لأني نلت فرصة الحياة. ولأنني أكون قد قضيت فترة معيشتي على هذا الكوكب الرائع، وقد أتيحت لي الفرصة أن أفهم لماذا كنت قد ظهرت بالأصل على هذا الكوكب.

بالمناسبة هل تفهمون لهجتي الإنكليزية؟ ربما تكون غريبة عليكم قليلاً.

مثل عدد كبير منكم، فقد استمتعت بالندوة التي عقدت يوم أمس والتي كانت تتمحور حول الحيوانات. والتي تحدث فيها روبرت فول[2] وفرانس لانتنغ[3] وآخرون؛ حيث استعرضوا جمال الكائنات. ملاحظتي الوحيدة تأتي على ما قاله جيفري كاتزينبيرغ (Jeffrey Katzenberg)، وهو منتج تلفزيوني، يمتدح الحصان حين قال: «إنه أجمل المخلوقات التي وضعها الله على الأرض». بالطبع نحن نعرف أنه لم يقصد ذلك حرفياً. لكن في هذا البلد، وفي هذا الزمان ينبغي على المرء توخي الحذر.

---

(1) أوبرا عايدة؛ المقطوعة الموسيقية الشهيرة التي ألفها الموسيقي الإيطالي الشهير جيوسيبي فيردي.

(2) روبرت فول (Robert.Full)؛ عالم أميركي في الأحياء والفسلجة الجينية، يعمل في جامعة كاليفورنيا ـ بيركلي ـ الولايات المتحدة الأميركية.

(3) فرانس لانتنغ (Frans Lanting)؛ مصور فوتوغرافي ألماني تخصص بتصوير الحياة البرّية، ونال شهرة واسعة.

أنا عالم أحيائي، وأهم اختصاصاتي هي نظرية التطوّر، بل هي النظرية المركزية التي أعمل في نطاقها، وأعني نظرية داروين للتطوّر بالانتخاب الطبيعي.

ومن الطبيعي أن أبيّن لكم أن النظرية مقبولة حتماً في الأوساط العلمية حول العالم. لكن في الأوساط غير المهنية وغير المختصة خارج الولايات المتحدة يجري التجهيل عمداً بهذه النظرية بشكل كبير. لكن الذي أدهشني أن النظرية تنال في الأوساط غير المهنية داخل الولايات المتحدة، قدراً كبيراً من العدائية. وربما من العدالة أن أقول هنا إن علماء الأحياء في الولايات المتحدة إنما يعيشون في ظل حالة من الحرب والنزاع من أجل ما بين أيديهم من حقائق علمية. وأصبحت حالة مقلقة بطريقة غير مسبوقة، وانتقلت من محكمة إلى أخرى وعبر الولايات المختلفة في مطاردات قضائية، مما دفعني في الحقيقة إلى أن أقول شيئاً عن الموضوع.

إذا كنتم تريدون معرفة رأيي في داروين ونظريته، فيؤسفني القول إن عليكم قراءة كتبي، وهي كتب لن تجدوها في المكتبة بالخارج.

إن القضايا المثارة في المحاكم الأميركية الآن، هي غالباً مثارة من قبل من أسميهم النسخة الجديدة من «الخلقيين»، أو دعاة نظرية «الخلق»، وهم يطلقون على مفهومهم تعبير «التصميم الذكي». أحذركم من الوقوع في الاستغفال، فليس هناك من جديد في الأمر، إنها مجرّد تسمية أخرى لنظرية الخلق أو الحياة المخلّقة.

إن الظهور بمظهر اسم جديد وعنوان حديث، إنما جاء لأسباب تكتيكية وسياسية. أما البراهين لما يسمى بنظرية «التصميم الذكي»،

فهي ذاتها القرائن والبراهين التي جرى دحضها سابقاً، مراراً وتكراراً، منذ عصر دارون إلى يومنا هذا. لكن هناك لوبي منظم يدافع عن نظرية التطوّر، وهو يبلي بلاءً حسناً، ويتحدث باسم العلم. وأنا بدوري أحاول القيام بكل ما أستطيع لمساعدتهم. لكن فيهم من يتضايق حين أشير إلى أننا ملحدون[1] وفي الوقت نفسه مؤمنون بنظرية التطور، إنهم ينكرون علينا ذلك. بل إنهم يعتبروننا من الذين يخرقون السفينة، وربما تعرفون لماذا.

إن المدافعين عن نظرية الحياة المُخلّقة يفتقرون إلى أي دليل علمي مترابط. ولهذا يلجأون إلى تخويف الناس من الإلحاد. إنهم يقولون: علّموا أولادكم نظرية التطوّر في دروس الأحياء وسرعان ما سيكونون فريسة للمخدرات، والسرقة، والشذوذ الجنسي. وفي الحقيقة فإن كل المتعلّمين يساندون نظرية التطوّر، من البابا ونزولاً إلى عامة المتعلمين. وكان هذا الكتاب لـ كينيث ميلر والمعنون «إيجاد ربّ دارون»[2]، من أكثر الكتب نجاحاً في مهاجمة «التصميم الذكي» الذي ادعى به الخلقيون. وسبب النجاح الرئيس أنه قد كتب من قبل مسيحي متديّن. وذهب البعض إلى القول بأن ميلر إنما يمثل «رسول الرّب» لنصرة نظرية التطوّر.

---

(1) من المفيد لنا أن نعرف أن الملحدين الأميركيين وضعوا هذا المعنى موضع التأويل. فهم يرفضون مثلاً وصف الإلحاد بأنه «الإيمان بعدم وجود الله، أو آلهة». إنما ينتقلون إلى معنى أعمق وهو «عدم وجود إيمان، لا بالله، ولا بالآلهة المتعددة». والفرق هنا بأنهم يركزون على أن الإيمان (وليس إنكار الله) هو أمر غير ضروري للحياة... عن موقع «الملحدون الأميركيون» http: //www.atheists.org، وهي منظمة تأسست سنة 1963 في الولايات المتحدة الأميركية.

(2) Kenneth.R.Miller، «Finding Darwin's God».

والمفارقة هنا، أن فضحهم لزيف ادعاءات أنصار نظرية الخلق سيجعلهم في موقف مواز للملحدين عملياً. أما أناس مثلي فنحن موصومون بأننا نخرق السفينة.

لكن مع هذا، فإنني هنا أريد أن أتكلم بشيء من الإيجابية عن أنصار نظرية الحياة المخلقة، وليس من العادة أن أمتدحهم لهذا أرجو الإنصات بانتباه. أظن بأنهم محقون في شيء واحد، وهو إصرارهم على توصيف نظرية التطور بأنها نظرية تعادي الدين بالأساس. سبق وقلت بأن الأفراد المناصرين لنظرية التطور، ومنهم البابا، إنما هم متدينون أيضاً. ولكني أظن بأنهم يضللون أنفسهم. وهنا، أود أن أبين اعتقادي الجازم، بأن الفهم الحقيقي والعميق لنظرية داروين إنما سيشكل عامل تآكل شديد لعناصر الإيمان الديني.

والآن، قد يبدو لكم أنني سأبدأ بموعظة داعية للإلحاد، لكنّي أوكد لكم أن هذا ليس هدفي وليس هو الغرض من هذه المحاضرة، وأمام متابعين لهم قدر كبير من المعرفة مثلكم. لست هنا لأدعوكم إلى الإلحاد، بل إنني أدعوكم بالضبط إلى تبنّي «الإلحاد المكافح، والمناضل».

للوهلة الأولى هذا يبدو أمراً شديد السلبية، ولو كنت في مكان مؤمن شديد التمسّك بإيمانه، كنت سأخاف بالضرورة من البديل الذي تطرحه نظرية التطوّر والعلوم التي وافقتها لاحقاً. لأن البديل الإيجابي هنا يدعو ويلهم الآخرين لشد أنظارهم بعيداً عن الدين، ولأنه علم قائم على استنكار الإيمان المجرّد بلا أسباب تحديداً.

هنا، أبيّن لكم أن العقبة الأكبر التي تواجهها أي نظرية لشرح التصميم الأحيائي، هي مواجهة عدم الاحتمالية الإحصائية للكائنات الحية. الكم

الإحصائي الهائل غير المحتمل من التصميم الجيد، أو ما يسمى بكلمة أخرى «التعقيد».

إن كل حجج نظرية الخلق، تتلخص في حجّة واحدة فقط. وهي حجّة تنطلق من مبدأ إحصائي، خلاصتها: إن الكائنات الحيّة هي على مبلغ من التعقيد يستحيل معه أن تنشأ بمحض المصادفة، ولهذا فيتوجب وجود صانع لها.

هذه الحجّة بالطبع متناقضة وغير وافية. لأن أي مصمم قادر على تصميم شيء بالغ التعقيد، يجب أن يتسم هو نفسه بالتعقيد أيضاً. وهذا حتى قبل أن نبدأ بتعداد الأشياء الواجب عليه التمثّل بها. مثل غفران الذنوب، سماع صلواتنا، مباركة الزيجات، أو الوقوف إلى جانبنا في الحروب، أو أن يستهجن ميولنا الجنسية.

إن «التعقيد» هو المشكلة الأولى التي يتعيّن على أي نظرية في الأحياء أن تواجهها. وعليها أن توجد تفسيراً لها. وبالتأكيد، لا يمكن حلّها بافتراض وجود عامل أشد تعقيداً، لأننا بذلك نزيد من تعقيد المشكلة.

إن نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي، هي من الروعة بحيث تتصدى لحل المشكلة، وهي هنا (تعقيد الحياة)، وتفسر هذا التعقيد بطريقة سلسة وواضحة. وهي تفعل ذلك عبر توفير وشرح خطوات متناغمة وتدريجية لتفسيراتها. وهنا أريد أن ألفت الانتباه إلى أن إبداعية نظرية التطور إنما تتأتى بالأصل من تحدّيها للدين ونسفه ونقض معتقداته. تحديداً، لأنها نظرية متكاملة وقوية. ربما لها قدرة الرافعات القوية التي تبنى بها الأبراج والجسور في تشكيل الواقع.

إن نظرية التخليق (بواسطة وجود إله) ليست فقط نظرية ضعيفة، إنما

هي لا تتصدى لحل مسألة تعقيد الكائنات الحيّة على الإطلاق. وبالعودة إلى التكتيك الذي ذكرته في البداية، واللوبي الذي يدعم نظرية التطوّر، ربما يكون الاتهام بكوننا «نخرق» السفينة، ربما يكون هذا الفعل هو عين الصواب الممكن.

ولهذا فإن منهجي في مناهضة نظرية التخلّق يختلف تماماً عن نهج أنصار نظرية التطوّر. حيث إنني أعتمد في مناهضة نظرية التخلّق على نقض الدين نفسه ومهاجمة الزيف الذي يحمله لنا بلا أسانيد علمية.

وهنا لست مضطراً لاستخدام كلمات تعد مسيئة تجاه الدين، بل إنني سأستعير بعضاً من كلمات دوغلاس آدمز[1] الصديق الراحل الذي كنت أتمنى أن أراه هنا على منصّة (TED). يبدأ آدمز في حديث له في جامعة كامبردج بشرح المبادئ التي يقوم عليها العِلم عن طريق النظريات، القابلة للإثبات أو المعرّضة للدحض في الوقت نفسه. ويقول: «إن الدين لا يستند على المبادئ العِلمية، هو يعتمد على بعض الأفكار الجوهرية القائمة على التقديس، وهذا يعني أنه يخبرنا ابتداءً بأن هذه هي الأفكار التي لا يُسمح بمناقشتها فقط، لا ينبغي لك التحدث عنها بما يسوؤها؛ لماذا؟ فقط لأنه لا ينبغي».

«لماذا يجب علينا أن ندعم أحد الخيارين سياسياً؟ إمّا الحزب الجمهوري أو الحزب الديمقراطي؟ لماذا علينا أن نختار مثلاً هذا النهج الاقتصادي دون ذاك؟ لماذا علينا أن نختار بين نظامي (ويندوز) أو (ماكنتوش) لحاسباتنا الشخصية؟ كل هذه الأمثلة يمكن لنا أن نختار فيما

---

(1) دوغلاس نويل آدم (Doglas.N.Adams 1952 ـ 2001)؛ كاتب انكليزي، وسيناريست، كتب عدداً من البرامج التلفزيونية تبحث في أصل الكون والخليقة، وأنتج عدداً من الأفلام الوثائقية التي تحولت إلى كتب واسعة الانتشار.

بينها، أما أن يكون لك رأي حول كيفية بدء الكون، حول من خلق الكون، فالجواب لا؛ هذا أمر مقدّس. إذن فقد صار معتاداً لدينا ألّا نناقش قضايا الدين، وألّا نتساءل في معطيات الأفكار الدينية ومصادرها. ومن المثير أن نرى حجم الضجة والصخب الذي يثيره شخص يتساءل بعلمية. بل إن بإمكانه أن يهيج الجميع بالضد من هذه التساؤلات. لكن هل هناك بالفعل أي سبب منطقي يدعونا إلى عدم مناقشة الأفكار الدينية؟ باستثناء الاتفاق الذي مُرّر بشكل ما، بأنه يجب علينا ألّا نتناقش في ذلك».

هذه كانت كلمات دوغلاس آدمز. وفي رأيي الشخصي، ليست النظرة العِلمية للأمور هي فقط من تتسبب بانحسار وتآكل شديدين لعناصر الإيمان الديني، فالأمر معكوس أيضاً؛ أي أن الدين وتمدد النظرة الدينية لعناصر الحياة سيؤديان بالضرورة إلى انحسار النظرة العلمية وأدواتها المنطقية والإثباتية.

الدين يعلّم الناس أن يكونوا راضين بتوافه الأمور، وأن يقتنعوا بالمعجزات الخرافية التي لا تعني شيئاً، ولا تفسّر شيئاً. بل إنه يعمي الأنظار عن الأسباب الحقيقية المدهشة التي يمكن أن ندركها بحواسنا ونعقلها بواسطة التفسير العلمي السببي. يعلّم الناس الاستسلام للوحي وللسلطة ولهيمنة الإيمان. كل هذا بديلاً عن البحث في البراهين والأدلّة.

هذا هو دوغلاس آدمز في صورة رائعة له من كتابه «إبصار الرّمق الأخير». والآن، هناك أيضاً الدورية العلمية الفصلية لعِلم الأحياء، وبما أنني قد دعيت فيها ككاتب خارجي، فإنني سأرفق فيها بحثاً تحت عنوان «هل تسبب نيزك ما بقتل الديناصورات؟».

البحث الأول فيها، هو بحث علمي مُحكّم يبين بالدليل العلمي أن

«طبقة الأيريديوم عند تخوم المستوى (T ـ K) من الحفريات التاريخية في إقليم ياكتان (وهي شبه جزيرة في أميركا الوسطى)، تشير إلى أن نيزكاً قد سقط في تاريخ محدد ما، هو الذي تسبب بفناء الديناصورات». وهي ورقة بحثية عادية ولا شيء غريب فيها. لكن ماذا لو كانت صياغة الورقة بالشكل التالي:

«إن رئيس الأكاديمية الملكية العلمية، يشعر بتأكيد داخلي قوي؛ وحيٌ قد أخبره، بأن نيزكاً قد تسبب في فناء الديناصورات»!

أو أن تكون بالشكل التالي:

«لقد تم إخبار البروفيسور هوكستان بشكل سرّي وخاص، بأن نيزكاً قد تسبب في فناء الديناصورات».

أو بالصيغة التالية: «إن البروفيسور برودلي قد تربّى في وسط مجتمع يؤكد له أن نيزكاً قد تسبب في فناء الديناصورات».

أو أن: «البروفيسر هوكينز قد أصدر بيانا عقائدياً معبراً فيه عن إيمانه بأن نيزكاً قد تسبب في فناء الديناصورات عن وجه الأرض، وهو مُلزمٌ لكل المخلصين له».

بالتأكيد إن هذا الأمر وهذه الصياغات غير متوقعة تماماً، لكن تصوروا أنه في عام 1987 وجّه صحفي سؤالاً إلى الرئيس الأميركي جورج بوش الأب فيما إذا كان ينظر كرئيس بمساواة في المواطنة إلى المُلحدين من الأميركيين، أولئك الذين لا يؤمنون بوجود خالق للكون مثلما تؤمن المسيحية. وكان رد الرئيس بوش واضحاً وأصبح مصدراً للإشارة دائماً حيث قال بالحرف: «لا يمكن أن نعد المُلحدين مواطنين

على قدم المساواة مع باقي المواطنين الأميركيين، إن الولايات المتحدة هي أمّة واحدة تحت راية الله»[1].

إن موقف الرئيس بوش المتعصّب هذا ليس زلّة لسان سيتراجع عنها فيما بعد، ولا هو بالموقف غير المقصود. فضلاً عن إدراكه الكلّي بأنّ رأيه هذا لن يصبّ بالضّد من شعبيته، ولن يؤثر في إعادة انتخابه بل إنه توقع العكس. إن الديمقراطيين مثلهم في ذلك مثل الجمهوريين، يتباهون دائماً بتديّنهم لكي يُعاد ترشيحهم لنيل المناصب ومنها منصب الرئيس. فكلا الحزبين السياسيين في الولايات المتحدة يعملان بشعار «أمّة واحدة تحت راية الله»[2].

لكن هذا ليس ما كان سيقوله شخص مثل توماس جيفرسون (وهو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة)، لنرجع إلى مقولته التي جاء فيها: «في كلّ بلد، وفي أقصى أماكن الأرض، فإن الوعّاظ هم أعداء الحرّية».

وبالمناسبة، حين أتحدث عن الوضع في الولايات المتحدة فإني لست فخوراً جداً بأن أكون مواطناً بريطانياً بالمقابل، لكنني على الأقل أجد نفسي مرتاحاً للمقارنة حين أرى في يدي عملة ورقية بريطانية فئة

---

(1) حين وجه صحفي آخر السؤال ذاته إلى البيت الأبيض جاءه الرّد بأن السيد الرئيس باق على موقفه، وهو (أي الرئيس) مواطن متديّن، ويعتقد بأن على حكومة الولايات المتحدة ألّا تشجع أي نوع من الإلحاد، وهي تعتبره أمراً غير ضروري.

(2) أصل هذا الشعار هو القَسَم الرسمي للولايات المتحدة، والذي تبناه الكونغرس عام 1906، لتأدية القَسَم للمكلّفين بالخدمة العامّة ونصّه هو: «أقسم بالولاء لرايتي، وللجمهورية التي تمثلها، أمّة واحدة لا تتجزأ، وبالعمل على تأمين العدالة والحرية للجميع». وجرت عليه عدة إضافات إلى أن استقر عام 1954، لتضاف له عبارة «تحت راية الله».

10 جنيهات وهي تحمل صورة تشارلز داروِن، بينما يحمل الدولار الأميركي عبارة: «إننا نثق بالله!».

لنعد إلى الناحية العملية، من هو (المُلحد)؟

المُلحد هو من يحمل مشاعر مُحددة تجاه الإله يهوه (وهو الرب في اليهودية)، بالطريقة نفسها والأوصاف نفسها التي يحملها المسيحي تجاه الإله (ثوور) وهو إله مقدس عند الفايكنغ، أو تجاه الإله (بَعَل)، المُقدّس عند الأقوام القديمة التي سكنت الشرق الأوسط. وبالمشاعر نفسها التي يحملها المسيحي الاعتيادي تجاه العجل الذهبي مثلاً. يعني بعبارة أخرى، إننا كلّنا (مُلحدون) بشكل أو بآخر عندما يتعلّق الأمر بآلهة الآخرين أو أربابهم. لكن البعض منّا يغالط نفسه ومداركه، ويذهب إلى استثناء بعض المقدسات دون أخرى.

وكيف ما يكون تعريف الإلحاد، فهو بلا شك نوع من الإيمان الأكاديمي الذي يحق للشخص أن يعتنقه دون أن ينال الذّم بالمقابل. وطبعاً من دون أن يوصم بأنه غير وطني، أو أنه مواطن لا يقف على قدم المساواة مع أبناء بلده الآخرين. أو ألّا يكون له حق الترشح مثلاً. بالتأكيد هذه الأوصاف لا تدخل ضمن تعريف الملحد. ومع هذه الحقائق، نجد أن نعت شخص ما بأنّه ملحد يعادل كما لو وصفناه بأنه هتلر نفسه، أو رئيس الشياطين. والسبب نابع من تصور البعض بأن الملحد هو شخص غير اعتيادي ومخالف للطبيعة، وأنّه نوع مضمحل سيؤول عاجلاً إلى الزوال، هو ومن شاكله.

كتبت نتاليا انجيار (Natalie Angier) في نيويورك تايمز مقالاً تعبّر فيه عن غربتها كونها ملحدة. وأصبح من الواضح لها أنها كانت تحاصر

وتعامل على أنها عضوة في أقلّية. لكن ما هو عدد المُلحدين في الولايات المتحدة في الحقيقة؟ المسوحات الأخيرة تظهر نتائج مشجّعة في هذا الجانب. وتعرفون طبعاً أن المسيحية هي الديانة الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة، وربما يبلغ تعداد أتباعها بحدود 16 مليون فرد. لكن، من برأيكم يأتي في الترتيب الثاني بعد المسيحية؟ الذي يأتي بالترتيب الثاني هم مجموعة أكبر من أتباع اليهودية والبالغ عددهم (2.8) مليون أميركي، وأكثر من أتباع الإسلام والبالغ عددهم (1.1) مليون أميركي. وأقل من ذلك أتباع الهندوسية والبوذية وباقي الديانات.

إن المجموعة التي تأتي ثانياً هي (المجموعة غير المتدينة، التي بلا دين، أو التي تؤمن بالعلمانية ولا تعرّف نفسها على أنها تبعاً لديانة معيّنة) ويبلغ عددها بحدود (30) مليون أميركي. لكَ هنا أن تتساءل لماذا يعمل السياسيون على إرضاء لوبيّات فاعلة مثل اللوبي اليهودي على سبيل المثال، ويبدو لنا أن وجود إسرائيل قائم بالضرورة على وجود هؤلاء الناخبين الأميركيين. بينما تطوى أصوات غير المتدينين بسهولة في صفحة النسيان.

ولو استطاعت هذه الفئة غير المتدينة أن تحشد أصواتها فسيكون لها تأثير يعادل عشرة أضعاف الأصوات اليهودية. فلماذا لا تقوم هذه الأقلية المهمة بحشد أصواتها في الاتجاه السياسي؟

هذه كانت تساؤلات في مجال الكَم، طيب وما هي الأوضاع في مجال النوع؟ هل هناك علاقة سلبية كانت أم إيجابية بين ملامح الذكاء وعلائم الميل إلى التديّن؟

إن المسح البياني الذي أشير إليه، وهو مسح مجموعة (ARIS)

للدراسات، لم يقرن بياناته بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي أو التعليمي للأشخاص الممسوحين في الدراسة، مثلما لم يتضمن درجة الذكاء (IQ) للمشاركين. لكن مقالاً حديثاً كتبه بول. ج. بيل (.Paul G Bell) في مجلة مينسا (Mensa) قد يزودنا ببعض الحقائق الخافتة.

تعرفون أن هذه المجلة تصدر عن مؤسسة مينسا الدولية للأشخاص المتميزين في اختبار الذكاء. وهنا أقتبس مما كتب بول: «من بين 43 دراسة تم إجراؤها منذ عام 1927 تتعرض للعلاقة بين مستوى الذكاء والميل إلى التديّن، كل الدراسات توصلت إلى أن العلاقة هي علاقة عكسية، باستثناء 4 دراسات لم تنص على هذه النتيجة. بمعنى كلّما زاد معدّل الذكاء والتعليم لدى الشخص، كلّما قلّ اتجاهه نحو التديّن». طبعاً لم يتسن لي أن أطّلع على الدراسات الـ43 المعنيّة لهذا لا يمكن لي أن أعلّق على هذه النتيجة. لكنّي بالفعل أرغب في رؤية دراسات من هذا النوع تُجرى في المستقبل. وربما أجد من بين الحاضرين هنا، من يتمكّن من تمويل مثل هذه المسوحات لنخلص إلى نتائج أكثر ثباتاً.

لكن دعوني هنا أضع بين أيديكم مجموعة من نتائج الدراسات التي أجرتها مجموعة خاصة فيها بعض من أسماء أبرز العلماء. ففي عام 1988، وضع كل من لارسون وويتهام (Larson & Witham)[1]

---

(1) البروفيسور إدوارد. ج. لارسون (Edward J. Larson)؛ أستاذ في التاريخ، حائز على جائزة بولتزر. ونال شهادته من جامعة هارفارد. له عشرات الكتب واسعة الانتشار. يدرس الآن في جامعة جورجيا، مدينة أثنس، ولاية جورجيا.
لاري ويتهام (Larry Witham)؛ كاتب وصحافي وفنان، صدرت له عدة كتب في مواضيع جدلية تتعلق بتاريخ الفن، تاريخ العلم وعلاقته بالحركات الدينية، وتطور الاحتفالات وتأثيرها على انتولوجيا الشعوب. يعمل حالياً كمحرر للكتب في دور مختلفة للنشر بالعاصمة واشنطن.

دراسة تتعلق بموقف صفوة العلماء الأميركيين من الذين تم تكريمهم من الجمعية الأكاديمية العلمية الأميركية؛ موقفهم من الإيمان بالأديان. وكانت النتائج أن من بين هذه المجموعة المنتخبة هناك 7% فقط يؤمنون بدين واحد. وهناك 20% منهم لا يؤمنون بدين محدد، أما الباقون فيمكن القول عنهم إنهم ملحدون.

وبالنسبة لعلماء الأحياء والبيولوجيا، كانت النسب أقل من هذه. فقد وجدت الدراسة أن 5.5% منهم فقط يؤمنون بدين واحد، وبين علماء المادة والفيزياء كانت النسبة هي 7.5%، لكن البيانات لم تظهر النسب الأخرى لأصناف أخرى من العلماء، لكني لن أندهش لو وجدت أن النسب مقاربة أيضاً.

إن هذه النتائج تأخذنا إلى تناقض مهم يجب الوقوف عنده، تناقض بين النخب المثقفة والمتعلّمة الأميركية (الأنتلجينسيا) وبين الناخبين. ومن الغريب أيضاً أن نجد أن الرأي في تكوين الكون وبدء الخلق، سيختلف من رأي تتبناه الغالبية العظمى لعلماء الأمة الأميركية (وربما أغلب علماء العالم)، إلى رأي يتبناه عموم الشعب الاميركي، وبأنه سيختلف بين الفئتين إلى درجة تجعل المرشح للرئاسة لا يجرؤ على الكشف عن رأيه الشخصي أمام العامة. وإن كان المرشحون كلّهم يتبنون رأي العامة في هذا الشأن، فيمكن أن أقول بثقة إن منصب الرئاسة والقيادة في أقوى أمّة على وجه الأرض هو منصب ممنوع على العقلاء والعلماء من تلك الأمة!

أي أن الإنتيليجينسيا الأميركية من المستبعد تماماً لها أن نرى أحد رموزها أو المنتمين لها وهو يتسلم منصب الرئاسة، ما لم يكن مستعداً

للكذب حول ما يؤمن به حقيقة. ولكي أكون مباشراً، فإن الفرص السياسية الأميركية معبأة بالضد من أولئك الذين لديهم استعداد أكبر من غيرهم أن يكونوا أذكياء ومتميزين وصادقين فيما يخص عقيدتهم في الوقت نفسه.

في الحقيقة إنني لست مواطناً في هذا البلد، وأرجو ألّا يفهم اقتراحي بأن شيئاً يجب أن يتغير في هذا الشأن، ألّا يفهم بأنه رغبة منّي أن أكون مواطناً أميركياً. وربما تكون منصّة (TED) هي المكان الأمثل كي تشرح هذا الإحتياج. إننا في الواقع بحاجة إلى حملة وعي تفهم الآخرين بحقوق أولئك الذين لا يعتنقون التوحيد من الأميركيين. وربما تكون هذه الحملة مشابهة لما قام به المثليون قبل عدة سنوات، بيد أنني لا أتمنى للملحدين أن يجتنبوا الأماكن العامة. وفي معظم الحالات، فإن الناس الذين يصفون أنفسهم كملحدين إنما يساعدون على توضيح الصورة للآخرين، تصحيح الصورة الشائعة عن الإلحاد، أو التي أريد لها أن تلصق بالإلحاد.

فضلاً عن ذلك، فإنه سيتضح للعديدين أن الملحدين سيكونون هم المثل الأفضل لأبنائهم بعد أن تعرّضت هذه الصورة أيضاً إلى التشويه. وهم في الوقت نفسه، النوع المفضّل الذي ربما تود شركات الإعلانات توظيفه لأجل الدعاية لمنتجاتها.

وسيكون لهذا نتائج إيجابية تراكمية، مثل كرة الثلج المتدحرجة، وكلما زاد عدد المفصحين عن توجهاتهم كلما كان الأثر أكبر وقعاً. وسيصل التأثير بعد أن يتصاعد إلى حد معين سيكون مألوفاً ومقبولاً وشائعاً، لكن كل هذا يحتاج إلى أموال.

أنا أرى بأن كلمة «مُلحد» بحد ذاتها تنطوي على معوّقات ذاتية تمثل

حجر عثرة لدى البعض. وهذه المعوّقات أكبر من معناها اللغوي بكثير. إذن ما هي الكلمات المتاحة لتلطيف الوقع؟

لقد كان دارون نفسه يفضّل كلمة «لا أدري/ لا أعلم». وهنا أقتبس من قوله: «إنني لم أكن أبداً مُلحداً ينكر وجود الله، بل إنني مجرد شخص لا يدري، هذه هي الحالة التي أصف بها ذهني». حتى إن دارون أبدى انزعاجاً واضحاً من تعبيرات إدوارد ايفلنغ[1] المتشددة في ميلها إلى الإلحاد، حتى إنه لم يقبل هديته كتابه الذي كتبه عن أهمية الإلحاد. وبالمناسبة، هذا أدى إلى اعتقاد شائع وخاطئ بأن كارل ماركس حاول إهداء كتابه «رأس المال» إلى دارون، في الحقيقة إنه أهدى كتابه إلى ايفلنغ، وكانت ابنة ماركس صديقة له. وعندما مات كل من دارون وماركس، اختلطت أوراقهما معاً، وهناك كانت رسالة من دارون إلى ماركس، تلك التي تبدأ بـعبارة: «سيدي العزيز، شكراً جزيلاً» وساد الظن بأن المُهدى له هو دارون في حين إنه في الحقيقة كان الإهداء لايفلنغ. وقال فيها دارون: «سيدي العزيز، شكراً جزيلاً، لكنني في الحقيقة لا أرغب بأن تهدي لي كتابك». وهنا ساد اعتقاد خاطئ بأنها موجهة إلى ماركس في حين أنها موجهة إلى ايفلنغ.

وعلى أي حال، فقد ساد بين الاثنين حين تقابلا ـ داورن وايفلنغ ـ جو من التحدي المتبادل. وسأله دارون: «لماذا تسمي نفسك مُلحداً؟».

فأجاب ايفلنغ: «إنني لا أدروي، وفي الحقيقة هو معادل لكلمة ملحد

---

(1) ادوارد. بيبنس. ايفلنغ (Edward Bibbins Aveling 1849 ـ 1898)؛ كاتب انكليزي وبيولوجي، ومتحدّث دعا لنظرية التطوّر، وكان وجودي النزعة واشتراكي العقيدة السياسية.

لكنها أكثر اعتباراً». ومن الطبيعي أن نتوقع أن الملحد سيكون معادياً لمن يتصفون باللاأدرية.

لكن دارون ردّ عليه بالقول: «ولماذا يجب أن تكون أكثر عدوانية؟». كان دارون يظن أن الإلحاد يناسب نخب المتعلمين والمتنورين، لكن عامة الناس «لم تكن مستعدة بعد لتقبل هذه الفكرة». طبعاً هذه الحجّة تشبه إلى حد بعيد من يطالبنا «بعدم خرق السفينة» طالما هي تمخر البحار. وليس هناك أي تسجيل تاريخي فيما إذا كان دارون قد تراجع عن كبريائه أمام ايفلنغ أم لا.

وبالتأكيد فإن كل هذا قد حدث قبل أكثر من مائة عام، وقد تظنّون أننا قد أصبحنا أكثر نضجاً منذ ذلك التاريخ. حسناً، في الحقيقة لي صديق من أصول يهودية، وهو يحافظ على تقاليد يوم السبت لأسباب ثقافية واجتماعية. إنه يصف نفسه بـ»اللاأدري القلق جداً». ويقول: «إنه لا يمكن أن يسمّي نفسه ملحداً لأنه من حيث المبدأ لا يمكن إثبات عدم وجود الله»، لكن عقيدة «اللا أدري»، قد توحي وكأن الله موجود. ولهذا فهي تتساوى مع احتمالية عدم وجود الله أو الصانع الخالق. لذا فإن صديقي هذا، هو قلق جداً إلى الحد الذي يصف فيه إلحاده بأنه متأرجح، ومع هذا فهو إلحاد يقوم على احتمالية متساوية تماماً بين الضفتين؛ وجود الصانع الخالق، أو انعدامه.

لقد صاغ برتراند راسل مثالاً مشابهاً يُعنى باحتمالية وجود أبريق للشاي يحوم في مدار حول المريخ. حيث يمكن لك أن تكون «لا أدروي» فيما يتعلّق بوجود هذا الإبريق. وكونك معتنقاً لعقيدة «لا أدري»، فهذا لا يعني أن تفضّل احتمالية وجوده على احتمالية عدمها بالمطلق.

إن قائمة الأمثلة عن عدم عقلانية تفضيل احتمال الوجود على احتمال

عدم الوجود تتجاوز إبريق الشاي الذي ضربه راسل مثلاً، وتتجاوز قلق صاحبي ذي الأصول اليهودية، وتتجاوز وجود يهوه. في النهاية ستقع عليك مسؤولية تبرير وجود ما افترضت احتمالية وجوده.

ومع هذا، فلو أردنا تشجيع الناس على الإفصاح عن إلحادهم، فعلينا الإتيان بوصف أفضل من توصيف «اللا أدري»، أو توصيف «لا أعلم». لذا ما رأيكم بوصف (إنساني Humanist)؟ إن هذا المصطلح هو تعبير عامل بالفعل. وقد تبنته جمعيات علمية واسعة حول العالم. وتحفّظي الوحيد عليه بأنّه يوحي بعلوية جنس البشر على باقي الأجناس. لأن واحداً من الأشياء التي يعلمنا إياها دارون هي أن الجنس البشري هو واحد من ملايين الأجناس التي تمتّ إليه بصلة القربى. وبالتأكيد هناك أوصاف أخرى ممكنة، مثل «طبيعي»، أوغيرها لكنها قد تتسبب بالخلط أو الإرباك بين المعاني. لكني أرى أن الكلمة المبسطة المقابلة لتوصيف (موحّد Theist) هي كلمة (غير موحّد Non ـ theist)[1]، وهي بديل مناسب عن كلمة (ملحد Atheist). وهذه الكلمة (غير موحد) دلالتها بالتأكيد أقل من القول بعدم وجود خالق.

وهي كلمة متناغمة مع معتقدات الفيزيائيين مثلاً، فعندما يتحدّث ملحدون من أمثال ستيفن هوكينغ وألبرت آينشتاين باستخدام كلمة «الله»، فإنهم يستخدمونها قطعاً بصورة مجازية مختصرة لغرض اكتمال التعبير؛ إنهم يستخدمون ذلك التعبير العميق والغامض الذي هو غير

---

(1) هناك من يطرح معادلاً لهذا التوصيف وهو كلمة (لاديني) باعتبار أن الأديان، أو الدين كمفهوم بالضرورة يقود إلى الإيمان بإله من نوع ما وله مسمّى مميز، وهذا غير الاستخدام المجازي لكلمة «دين» بمعنى (سلوك)، حين نقول في المثل: دينهم دينارهم. أو في الإشارة إلى الدين بمعنى اعتناق فكرة ما.

مفهوم لحد الآن. وهنا سيكون استخدام كلمة (غير موحّد theist _ Non) محيطاً بكل هذه الأغراض، على العكس من كلمة (مُلحد Atheist) التي دائماً تصاحب بردود أفعال تتسم بالهلع والتخوّف.

أنا بالتأكيد لا أوافق آينشتاين حينما استخدم لغة بمفردات دينية، لأن الناس قد تاهوا وجرى تضليلهم بهذه الكلمات. لكني أفضّل أن نتوصل إلى إدراكٍ يفهم معنى السّم الذي تحمله كلمة مُلحد، لأنها على وجه التحديد كلمة مُحرّمة، وتحمل مشاعر الهلع والإخافة، فقط لأنّها تخضع لتابو محدد. وقد يكون من الصعوبة محاولة التأثير على الناس كي يستخدموا كلمة مُلحد، مقارنة باستخدام كلمة غير موحد، أو أي كلمة أخرى لا تحمل هذه الشحنة من التحدّي. لكن لو حصل هذا واستخدم الناس كلمة مُلحد للإشارة بحرّية إلى النسبة العالية من الذين لا يعبّرون عن آرائهم علانية في هذا المجال، فقد يكون تأثيرها ونتائجها السياسية شيئاً أعظم بكثير مما نتوقع.

لقد قلت سابقاً؛ إنني لو كنت متديناً كنت سأخشى بالضرورة من نظرية التطوّر. بل سأذهب إلى أبعد من ذلك؛ سأخشى من العلم في عمومه أن يُفهم على الوجهة الصحيحة. ذلك لأن النظرة العلمية للحياة هي الأكثر إثارة، والأكثر استجلاباً للدهشة. أكثر من أي معنى آخر. وهو أمر على العكس تماماً من الخيال الديني المفتقر لدهشة العلم.

وكما قال كارل ساغان (Carl Sagan)[1]: «كيف يُعقل أن أي دين

---

(1) كارل. ادوارد. ساغان (1934 Carl.E.Sagan _ 1996): عالم فلكي وباحث كوني أميركي، وكاتب علمي، وهو من أبرز المساهمين في تبسيط علوم الفلك والفيزياء الفلكية وغيرها من العلوم الطبيعية. من أهم كتبه (تنانين عدن _ تأملات عن تطور ذكاء الإنسان)، و(عالم تسكنه شياطين).

رئيس لم يسبق له أن نظر إلى العلم واستنتج أن هذا أمر أفضل مما عليه ذلك الدين بالفعل، أفضل مما كان يظنّه أتباعه، فالكون أكبر مما قاله رسولهم، وهو شيء في منتهى الإبداع والإتقان. وبدلاً من ذلك يقولون: لا، لا، إن ربّنا هو ربّ صغير، أصغر من هذا، ونرغب بأن يبقى كذلك. لم يجرؤ أي دين، سواء كان قديماً أم حديثاً على تقديم سعة الكون بالطريقة التي قدّمها بها العلم الحديث. وقد يأسر العلم مشاعر التبجيل بطريقة لم تحزها أي ديانة قديمة تقليدية».

والآن، أنتم أمامي نخبة من صفوة الجمهور، وأتوقّع أن يكون بينكم ما نسبته 10% من المتدينين. وبالتأكيد فإن عدداً منكم يؤمن باحترام الدين كموروث اجتماعي واتباع للتقاليد المجتمعية. لكنّي أيضاً أتوقع أن نسبة لا بأس بها منكم تمقت الدين في الخفية تماماً كما أمقته أنا في العلن. ولهؤلاء، أطلب منهم أن يتوقفوا عن المجاملة. كن صريحاً وأعلن عن مقتك هذا، وإذا كنت غنيّاً فكر قليلاً بالمساهمة بجزء من مالك كي تحدث فرقاً. لأن اللوبي المتديّن في هذا البلد (ويعني الولايات المتحدة)، يموّل بشكل كبير من قبل مختلف المؤسسات، فضلاً عن تمتعه بمختلف الإعفاءات الضريبية. إننا بحاجة إلى إنشاء مؤسسات مناهضة لهذه المعتقدات. وعادة ما يسألني الناس السؤال التالي: «كيف أثّرت بك أحداث 11 أيلول؟». وأقول هنا جواباً: «لنتوقف عن هذا الاحترام الزائف واللعين للدين».

شكراً جزيلاً.

(3)

عن اقتباسات آينشتاين

وثائقي تلفزيوني لـ د. ريتشارد دوكنز.

التقيتُ بعدد كبير من الناس الذين يرون أن ألبرت آينشتاين، بوصفه واحداً من أهم العقول في تاريخ البشرية، إنما كان مؤمناً بوجود إله واحد. لكن هل كان آينشتاين حقاً كذلك؟ وهل كان موحّداً لإله واحد خالق للكون لكنه لا يهتم له؟، أي بما يشبه موقف فولتير وديدرو؟ أم أنه كان من القائلين بوحدة الوجود (Pantheist)، ويرون أن الإله هو متجسد في الكون كلّه، وإن الخلق هو جزء من الإله؟ وهذا النوع الأخير كان مثاله اسبينوزا، حيث كان آينشتاين لا يخفي إعجابه الشديد به. فأيهم كان آينشتاين حقيقة؟

يقول آينشتاين: «أنا أومن بإلَه اسبينوزا، الذي يتجلّى في الانسجام المنتظم للوجود، أؤمن بمثل هذا الإله بدلاً من الإيمان بإله يهتم لأفعال البشر وإيماناتهم، لهذا فأنا أتحاشى أن أتصور إلهاً شخصانياً جداً». وهو أيضاً يقول: «يكفي الوقوف على هيكل الكون والاطلاع عليه بقدر ما تسمح به حواسنا التي هي غير ملائمة بالأصل لتقييم حجم هذا الكون».

إن الاستجابة الدافئة والشاعرية للكون والطبيعة هي أمر شائع بين العلماء والعقلانيين، وعلينا أن نفهم أنها ردّة فعل لا علاقة لها تماماً بالإيمان بالخوارق. وعندما نبحث في أصول المعتقدات الدينية للعلماء الذين تظهر عليهم ملامح التدين، عندما نبحث في الأعماق سنجدهم في الغالب علماء غير متدينين. وهناك واحدة من أقوال آينشتاين يجري ترديدها بلا تمحيص وهي: «العلم سيكون أعرجاً لولا الدين، والدين سيغدو أعمى من دون العلم». لكن آينشتاين قال في المقابل أيضاً: «كل الأشياء التي قرأتموها عن معتقداتي الدينية هي كذب بالطبع، لكنها كذبة تم ترديدها بشكل منهجي، أنا لا أومن بإله شخصاني أبداً، ولم أنكر عدم الإيمان هذا أبداً، ولو كان هناك شيء فيّ يمكن وصفه بأنه (ديني)، فسيكون الاحترام والتقدير اللامحدود لبُنية الكون، بحسب ما أظهره الكون لنا لحد الآن».

والآن، هل يظهر لكم أن آينشتاين قد ناقض نفسه؟ هل يمكن لنا أن نتخذ من أقواله وسيلة لدعم وجهتي نظر مختلفتين؟ لا بالتأكيد. فما عناه آينشتاين بكلمة (دين) شيء مغاير تماماً للمعنى المقصود به بالعادة حين تستعمل هذه الكلمة. إليكم المزيد من أقواله لكي يسهل عليكم تذوّق الدين المعني؛ «أنا شخص متديّن ولدي إيماني الخاص، هذا قد يبدو نوعاً ما ديناً جديداً. إن فكرة الإله المختص بي هي فكرة مستغربة تماماً بالنسبة لي، حتى إنني أراها ساذجة».

وبعد وفاة آينشتاين، حاول عدد كبير من المتدينين أن ينسبوا تديّنه إلى إيمانهم، رغم أن المتديّنين المعاصرين له رأوه مختلفاً تماماً عنهم. وبالعودة إلى عام 1940، كتب آينشتاين مقالة شهيرة بيّن فيها أسباب

قوله بأنه لا يؤمن بوجود إله شخصاني. وتسببت هذه المقالة وباقي أقواله بعاصفة من الرسائل والردود التي وصلته ونشرت موجهة إليه وكلّها كانت من أفراد متديّنين تقليديين. وقتها قال الأسقف الكاثوليكي الروماني لمدينة كنساس: «إنه لمن المحزن أن نرى رجلاً يتحدر من عِرق العهد القديم (في إشارة إلى أن آينشتاين كان يهودي الأصل) وتعاليمه، وهو ينكر التقاليد العظيمة لتلك الأرومة وأولئك الأسلاف».

كما أمعن رجال دين كاثوليكيون آخرون في انتقاداتهم له، حيث قال واحد من أشهرهم آنذاك: «ليس هناك من إله سوى إلهنا الذي نعرفه، أما آينشتاين فهو لا يعلم عمّا يتحدّث، وهو مخطئ تماماً، حيث يظنّ البعض أن حيازتهم درجة علمية عالية في مجال ما تعطيهم الحق بتقديم وجهات نظر عن كل شيء».

أجمع رجال الدين البارزون آنذاك على أن عدم معرفة آينشتاين بعلوم اللاهوت، والأديان جعلته لا يعرف بالضبط فيم يتحدث، وفوّت عليه فرصة معرفة (الله)، الحق المطلق. لكنّ ما فاتهم في الحقيقة هو أن أعظم إنجازات آينشتاين كان في إرساء مفاهيم النسبية في العلوم انطلاقاً من الفيزياء والرياضيات. وإن تطوّر العلوم الملحقة والمستخدمة لهذين العلمين خلال عشرات السنين بعد وفاة آينشتاين لم يثبت سوى صحّة نظرياته.

الحقيقة إن آينشتاين كان يفهم بالضبط ما ينكره من صفات وتوصيفات الإله الذي يصفونه ويقولون إنهم يعبدونه وفقاً للدلائل العقلية الثابتة لديهم، حيث إنها لم تثبت على الإطلاق، لا لديهم ولا لدى الذين من قبلهم.

لقد كتب وقتها أحد المحامين الأميركيين من الذين كانوا يعملون لحساب إحدى الشركات المؤتلفة الاقتصادية الكبرى يقول: «إننا نشعر

بالأسى لما تقول، وجعلت فيه فكرة الإله المشخّص فكرة سخيفة. ففي السنوات العشرة الأخيرة لم يكن هناك أي شيء محسوب بطريقة علمية ليجعل الناس يظنّون بأن هتلر يمكن أن يطرد اليهود من ألمانيا، لكن كلامك عن الذات الإلهية ربما سيبرر هذا الطرد. ومع أني أوافقك على حقّك في التعبير عن رأيك، لكني مازلت مقتنعاً بأن نكرانك للذات الإلهية يجعلك واحداً من أكبر منابع الفظاظة في الولايات المتحدة».

كما كتب حاخام نيويورك علناً في وقتها يقول: «إن آينشتاين عالم عظيم بلا شك، لكن معتقداته الدينية معاكسة تماماً لما تنص عليه اليهودية». وفي وقتها كتب رئيس جمعية المؤرخين في نيوجرسي رسالة تكشف عن ضعف عقول المتدينين، فقد كتب يقول: «إننا نحترم مكانتك العلمية، سيد آينشتاين، لكن يبدو أن هناك ما لم تتعلمه بعد؛ وهو أن الله روح لا يمكن النظر إليه واكتشافه عبر التيليسكوب أو المايكروسكوب، إننا لا نستطيع تحليل المشاعر والأفكار عبر تحليل الدم. وكما يعلم الجميع فإن الدين مبني على الإيمان وليس العلم. كل إنسان قد يعتريه الشك في بعض الأحيان، ولقد تزعزع إيماني مرّات عدّة لكني لم أخبر أحداً بذلك لسببين؛ الأول أني قد خشيت أن أتسبب بإزعاج راحة أحدهم واطمئنانه لإيمانه الشخصي. والثاني أنني لا أتفق مع القول الشهير بأن هناك عرقاً سيئاً في كل شخص جيّد يدمر إيمان أي شخص آخر. إنني أتمنى يا دكتور آينشتاين أن يكون ما نقلته الصحافة من أقوالك بحق الذات الإلهية قد تم نقله بطريق الخطأ، وأنك ستقول شيئاً سيسعد الجزء الأعظم من الشعب الأميركي الذي أسعده تكريمك واستقبالك».

كانت تلك رسالة كاشفة بشكل صادم، وكل كلمة فيها تقطر بجبن فكري وأخلاقي. الشيء الوحيد الذي فهمه منتقد آينشتاين بشكل صحيح هو أن هذا العالم العظيم لم يكن واحداً منهم، ولم يكن يفكر بطريقتهم. كان يحسّ بالسخط الشديد كلما تم تذكيره بأنه ملحد، وهناك أسباب وجيهة تدفعنا للظن بأن ما يمكن أن نسميه بـ(الآينشتانية)، التي تقول بأن الإله خفي، لكنه ليس بماكر، أو إن هذا الإله لا يقرر قراراته وفقاً لما يشبه لعبة النرد، أو السؤال «هل كان للإله خيارات حين خلق الكون؟» هذه كانت مقولات وحدوية ووجودية بشكل واضح، وهي لا تصف إلهاً لا يهتم، وبالتأكيد لا تصف أيضاً إلهاً يهتم بالفعل. إن قول آينشتاين بأن الإله لا يلعب النرد في قراراته، وجب أن تفسّر بأن «العشوائية لا تتواجد في لبّ الأشياء والأحداث».

ومقولته التي صاغها على شكل تساؤل: «هل كان للإله خيارات أخرى حين خلق الكون»، وجب بأن تفسّر على شكل السؤال التالي: «هل كان متاحاً للكون أن ينشأ بطريقة أخرى؟».

كان آينشتاين يستعمل كلمة (إله)، بدلالة لغوية تشير إلى تبنيه طريقة شاعرية مجازية محضة في الدلالة اللغوية. وهي الصفة نفسها التي استخدمها ستيفن هوكينغ حين تحدث عن الذات الإلهية كما يراها، وهنا أنقل قوله: «ولأن هناك قوّة تسمى الجاذبية، فقد تمكّن الكون من تخليق نفسه من لا شيء»، عن كتابه (التصميم العظيم). وكذلك عدد كبير من الفيزيائيين وعلماء الرياضيات والفلك الذين اضطروا في مرحلة ما إلى الحديث عن هذه الجزئية. وكانوا يحشرون كلمات ذات دلائل دينية مجازية في تعبيراتهم. وبالتأكيد كانت هذه هي المُتاحات اللغوية

التي تحت تصرّفهم. إن الإله المجازي والوحدوي الوجودي بالنسبة لمفاهيم الفيزيائيين بعيد بسنوات ضوئية عن الإله المتدخّل، صاحب المعجزات، والذي يقرأ الأفكار، والذي يعاقب على الذنوب، والذي يستجيب للدعوات، الإله المذكور في الكتاب المقدّس، إله القساوسة والملالي والحاخامات والأئمة. باختصار إنه إله بعيد تماماً عمّا يطابق التوصيف في اللغة السارية وكلامنا الاعتيادي اليومي. إن الخلط العمد بين المفهومين عن الإله يعد في رأيي خيانة فكرية عظمى. إن الكثير من هذا الخلط إنما ينتج عن الفشل في فهم ما يمكننا أن نسميه بـ«ديانة الآينشتاينية». والتفريق بينها وبين الأديان المدّعية للخوارق. لقد استعمل آينشتاين اسم الإله في عدد من مواضع كتاباته وأقواله. لكنه ليس العالم المُلحد الوحيد الذي لجأ لهذا الإستعمال اللغوي. وهو بذلك فتح المجال أمام عدد من المؤمنين بالخوارق والخرافات أن يدّعوا أنه يشاركهم إيمانهم عالم بشهرته، بل قد يكون الأشهر على مرّ التاريخ. هنا تأتي النهاية الدرامية كما وصفها ستيفن هوكينغ في كتابه (تاريخ موجز للزمن) بعبارة «لكي نعرف عقل الإله»، هذه العبارة قد أسيء فهمها بشكل ملحوظ. لقد دعت الناس إلى الادعاء خطأً بأن هوكينغ إنما هو رجل متديّن في حقيقته.

في ذلك كتب أيضاً كارل ساغان في كتابه: (نقطة زرقاء باهتة) يقول: «كيف لم يحدث أن نظرت أي من الديانات إلى العِلم لتستنتج بأن هذا أفضل بكثير مما ظننا، وأن الكون أكبر بكثير مما قاله كل الرسل والأنبياء ووصفوه، أعظم وأكثر أناقة، أكثر إحكاماً واستقراراً. وعوضاً عن ذلك فإن إلههم إله صغير، ويريدونه أن يبقى كذلك. ولو كان هناك دين سواء

كان جديداً أم قديماً فليس هناك من فرصة أن يعطي توصيفاً دقيقاً وحقيقياً للكون كما فعل العلم الحديث».

أسمع اليوم بنفسي أشخاصاً يقولون عنّي بأني شخص متديّن في أعماقي، وقد كتبت لي طالبة أميركية تقول: إنها سألت أستاذها إن كان له رأي في أطروحتي. وكانت إجابة أستاذها بأنه صحيح ما يطرحه دوكنز بأن العِلم والدين يتعارضان على أرض الواقع أينما وصلا إلى لحظة حقيقة وتصادم، لكنه (أي أنا) ينظر إلى الطبيعة والكون بنشوة الحقيقة والبرهان، وبالنسبة لي فإن ذلك هو «الدين» بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لكنني هنا أسأل، هل إن كلمة «دين» هي الكلمة الصحيحة؟ أنا لا أظن ذلك. قطعاً ليس الدين هو ما يوصلنا إلى تلك النشوة بمعرفة الحقائق العلمية، والتمتع بترف تفسيراتها المترابطة والتي تزداد رسوخاً يوماً بعد آخر، قطعاً ليس الدين من يمكنه فعل ذلك.

(4)

فايروس العقل

مضاعفة الجرعة

أعرف فتاة صغيرة قريبة لي، تبلغ من العمر ست سنوات وتتمتع بدلال أبيها. في الحقيقة هي تؤمن أن القطار توماس المُبتسم (وهو شخصية كارتونية) إنما هو قطار موجود بالفعل. كما تؤمن بوجود بابا نويل، وإن أفضل أمنياتها أن تصبح جنّية من الجنّيات الساحرات وتمتلك عصى سحرية كالتي تحملها الجنّيات بالعادة في القصص الخيالية أو في أفلام الرسوم المتحركة.

إنها، ومعها أبناء وبنات صفها الدراسي يحترمون الكلمات الجّادة التي قالها لهم البالغون، ولهذا فقد آمنوا بوجود الجنّيات الساحرات وبابا نويل. إنها في عمر سيصدّق فيه الطفل أي شيء يُقال له. ولو قلت لها بوجود ساحرات يغيّرن بعصاهن السحرية الضفدع فيغدو أميراً وسيماً فإنها ستصدّقك. ولو قلت لها إن الأطفال المشاكسين سيصطلون في الجحيم للأبد فستصدّقك أيضاً.

وقد اكتشفت من خلاها للتو، أن إدارة مدرستها بدأت ترسلها إلى

صلوات وموعظة كاثوليكية تلقى على أيدي راهبات لمرّة واحدة في الأسبوع، وكان ذلك بلا موافقة من أبيها. وهنا أتساءل؛ أي فرصة ستتاح لهذه الطفلة ذات السنوات الست في أن تختار ما ستؤمن به؟

إن الطفل البشري، قد تشكّل عبر التطوّر ليقبل الثقافة المنقولة من مجموعته البشرية. وخلال أشهر من ولادته سيبدأ بتعلّم الكلمات. وستتلقى هذه الطفلة على سبيل المثال مدى واسعاً من العبارات والكلمات والتعابير الدلالية، وقواعد الكلام، ومحاور للمواضيع التي يمكن الكلام فيها، كلّ هذا قبل أن تصل إلى نصف عمر النضوج لأبناء مجموعتها البشرية.

وعندما تجري برمجتك كي تتقبل كمّاً كبيراً من المعلومات التي يقال لك بأنّها معلومات نافعة، فيصبح من العسير أن تشذّب هذه المعلومات فيما بعد، وأن تغلق الأبواب على بعضها في الوقت نفسه. ومع وجود حُجُرات عديدة من ذاكرة العقل يتمّ ملؤها، فسيرافق تلك العملية عدد كبير من الكودونات (Codons) التي سيجري استنساخها وتكرارها. ولهذا لا غرابة في أن يكون عقل الطفل ساذجاً، ومفتوحاً على أيّة اقتراحات، وعُرضة لأيّ نوع من التخريب. وسيكون من السهولة تطويعه للصلاة والتعبّد وفقاً للكنيسة التوحيدية مثلاً، أو وفقاً لمذهب السنتولوجيين، أو ببساطة وفقاً لما تريد الراهبات تمريره. بالضبط، سيكون الطفل مثل البالغ المريض بنقص المناعة، وسيكون عرضة للإصابة بالعدوى الذهنية التي ينقلها إليه البالغون بلا عناء يذكر.

إن جزيئات الـ(DNA) هي الأخرى يمكن أن تحمل شفرات للأجسام الطفيلية معها. وفي الحقيقة فإن الميكانيكية الخليوية فاعلة

وماهرة جداً في عملية استنساخ الـ(DNA). وحينما يكون الـ(DNA) حاضراً في المشهد، فسيكون هناك ميل قوي لاستنساخه، كما إنّه يحمل ميلاً ذاتياً يسمح للآليات المتاحة حوله باستنساخه. ويمكن القول إن نواة الخلية هي بمثابة الفردوس للـ(DNA)، لكنه فردوس يدمدم بآليّة راقية وكفوءة وسريعة للاستنساخ.

إن الآلية، أو المكننة الخلوية في الخليّة الحيّة هي آلية صديقة جداً للـ(DNA)، بحيث يمكن لبعض الخلايا العجيبة الصغيرة أن تلعب دوراً حاسماً، وتوظّف نفسها كمضيّف لطفيليات الـ(DNA) دون أن تعلم أنها تستضيف الطفيليات بدلاً من الـ(DNA) نفسه، وكذلك أشباه الفايروسات المتعلقة به، وتستضيف كذلك البلازميدات (Plasmides)[1] ومجموعة أخرى من المُصاحبات الجينية. وقد يتمكّن الـ(DNA) الطفيلي، ولنسمّه باسم (PDNA)، من حشر نفسه ضمن سلاسل الـ(DNA) الرئيسية في الكروموسوم.

وهذه العملية قد تنتج جيناً قافزاً (طفرة لسلسلة جينية)، وقد تتمكن سلسلة قصيرة من الـ(DNA) القافز هذا من (مطّ) نفسها خارجة عن الكروموسوم لتشكّل «جيناً أنانياً». سيهرب ويستنسخ نفسه في مكان آخر. بل إنه يمكن أن يقتطع مقطعاً من سلسلة الـ(DNA) ويهرب به ليضيف نفسه في مكان آخر.

---

(1) البلازميدات (Plasmides) هي تركيبات جينية بإمكانها إجراء عملية الاستنساخ بمعزل عن الكروموسومات. وهي تستنسخ نمطياً دوائر صغيرة من الـ(DNA) تقف وسط السيتوبلازم الخاص بالبكتيريا. وفي العادة يستخدم العلماء البلازميدات من أجل إنجاز التلاعب أو التأثير الجيني في سلاسل الـ(DNA) الرئيسية.

هذا المكان الآخر (والذي هوة نواة لخليّة أخرى في العادة) سيرّحب به ظنّاً أنه يستقبل مورثاً يحمل خارطة وراثية أفضل مما هو متاح عنده.

المُسرطنات المميتة، على سبيل المثال، من المستحيل تقريباً تمييزها وتفريقها عن الجينات الشرعية التي دسّت نفسها بينها. وفي عملية التطوّر التي تستغرق وقتاً طويلاً، يمكننا التنبؤ بوجود هجرة للجينات «المستقيمة / الصالحة» كي تهرب وتنتمي إلى مجموعة الجينات «الخارجة عن القانون»، وبالعكس أيضاً. وخلال تلك الحركة وبالاتجاهين، فإن الجينات تبقى هي الجينات أينما ذهبت. والطريقة الوحيدة للتميز بين الجين المُضيّف وبين الجين الطفيلي هي بتعيين طريقة محددة لهذه الهجرة ستظهر نتائجها في الأجيال القادمة.

فالجين المُستضيف الشرعي هو مجرّد جين جرى تمريره إلى الجيل اللاحق عبر المسار القويم التقليدي (الأرثوذوكسي!) للبيضة أو للحيمن. أما الجينات «الخارجة عن القانون»، أو الجين الطُفيلي فهو ذلك الجين الذي حدث وأن انتقل إلى الجيل الثاني عبر مسحة دم، أو قطرة عُصرت بطريقة ما، بدلاً من اتخاذ مسار البيضة والحيمن التقليديين.

حينما تضع القرص المُمغنط (DVD) الذي يحمل معلومات على صفحته في جهاز الكومبيوتر، فإن الكومبيوتر يشكّل للقرص بيئة مواتية لاستنساخ المعلومات. هذا بالضبط ما يشبه سلوك نواة الخلية تجاه الرغبة باستنساخ الـ(DNA). الكومبيوتر وكل ملحقاته ومُدخلاته للمعلومات قد صُمم ليكون بيئة تميل إلى الدقّة في استنساخ المعلومات، وإلى الأمانة في نقلها. ولنتذكر أن مساحات الخزن في الكومبيوتر المسماة (بايتات Bayts) لا تميل من تلقاء نفسها إلى أن تكون أمينة وعالية الولاء

في حفظها للمعلومات، كذلك هذه الجزيئات من الجينات الأنانية، إنها قد تتعرض للجينات كيفما اتفق من أجل أن تستنسخ نفسها.

في الوقت الحاضر، فإن فايروسات الكومبيوتر لا تطوّر نفسها تلقائياً. وإنما يجري اختراعها بواسطة مُبرمجين من البشر. ولو تطوّرت آلياتها، فهي ستتطور بالضعف نفسه الذي تتطور به السيارات، أو الطائرات؛ يعني أنها لن تتطور بقدر سرعة التطوّر التكنولوجي العام الذي يعتمد على تجربته واستعادتها من أجل المزيد من التطوّر.

بالتأكيد أنتم لاحظتم أن السيارات المنتجة هذه السنة على سبيل المثال بالكاد تختلف قليلاً في تطوّرها عن السيارات التي أنتجت في العام الماضي مثلاً. لأن المنتج النهائي هنا (السيارة) يعتمد كلّياً على التطوير المُستلم من باقي فروع التكنولوجيا، أي أن السيارة هي بالكامل صناعة طفيلية على باقي الصناعات التي بعضها يتطور تلقائياً. بينما فايروس الكومبيوتر ينتظر قدرات البشر حصراً. لأن العاملين على تطوير الفايروسات الإلكترونية يستخدمون مهارة نظرائهم العاملين على تطوير برمجيات (مُضادات الفايروسات الإلكترونية) نفسها. إن مجموعات فايروسات الكومبيوترات، وفايروسات الـ(DNA) تنتشر للسبب نفسه، وهو وجود بيئة صديقة لا تميّز بين الفايروس الخبيث والمعلومات النافعة، فهل هناك في حياتنا بيئة مشابهة تنتقل فيها الفايروسات للسبب نفسه؟

العقل المصاب بالعدوى

سبق أن أشرت لكم إلى التدخّل في برمجة العقل الساذج لطفلة على سبيل المثال. وهذا التدخل سيكون مفيداً جداً في تعلّم اللغة والأحكام

العامّة للحياة التي يحتاجها الطفل. لكنّه سيجعل من السهل أيضاً أن يتعرّض عقله للتخريب بواسطة تدخّل الراهبات مثلاً، أو الساعات الوعظية التي يتعرّض لها الطفل بمنهجية. في العموم فإننا كلّنا نمارس عملية نقل المعلومات بين بعضنا البعض. بالتأكيد إننا لا نفعلها عن طريق حشر أقراص ممغنطة في أدمغة الآخرين، لكننا نتبادل المعلومات والعبارات عن طريق الآذان والأعين. إننا نراقب طرائق الآخرين في الحركة والملابس وكل شيء، وبالتأكيد فإننا نتأثر ونؤثّر.

نحن نتلقى ضوضاء الإعلانات التجارية، ونتفاعل معها، وإلّا ما كان رجال الأعمال ليزعجوا أنفسهم ويصرفوا أموالهم من أجل ملء الفضاء بها.

وفي الحقيقة لدينا مُحددان نوعيان اثنان يؤثران في الفايروس (أو أي نوع من أنواع ناسخات الطفيليات) والتي تتطلب وسطاً صديقاً كي تنتعش؛ هذان المُحددان يجعلان الوسط الخلوي صديقاً وودوداً تجاه آلية استنساخ الـ(PDNA) (وهي كما قلنا النسخة الطفيلية من الـ(DNA))، وهما أيضاً يجعلان الكومبيوتر صديقاً وودوداً تجاه الفايروسات التي قد تغزو برمجياته.

هذان المحددان النوعيان هما؛ أولاً، الجهوزية لاستنساخ المعلومات بصورة صحيحة. وثانياً، الجهوزية لإطاعة الأوامر التي تحتويها المعلومات التي جرى استنساخها.

وقد تفوّق كل من الكومبيوتر والآلية الخلوية الحيّة لاستنساخ الـ(PDNA) في تلبية هذين الشرطين النوعيين. الكومبيوتر في قبوله للفايروسات الغازية، والخلية الحيّة في قبولها توفير محيط ودّي للمورثات الفايروسية. لكن ماذا عن الدماغ البشري؟

الدماغ البشري لو استعمل كناسخ للمعلومات، فهو بالتأكيد أقل دقّة وكفاءة وأمانة في عملية الاستنساخ من الكومبيوتر، وأقل كفاءة كذلك من الخليّة الحيّة التي تستنسخ المورثات. لكن، مع هذا، فهو ما زال كفوءاً إلى حد كبير. ربما تكون أمانته في الاستنساخ تفوق أمانة ودقّة فايروسات الـ(RNA) (الحمض النووي الرايبوسومي). إن الأدلة على كفاءة الدماغ البشري في الاستنساخ (أتحدّث هنا عن أدمغة الأطفال) متوافرة، ونراها في طريقة تقليدهم وتكرارهم للغة ومفرداتها. نراهم يخطئون في اللفظ (وهذا ربما ما نحبّه في الأطفال) لأن القدرة على الاستنساخ في أدمغتهم هي ليست بكفاءة الـ(DNA)، فهي تخضع لاشتراطات ما يسمى بالتدرّج النصّي (Textual degradation) وهو أمر يحتاج إلى تكرار طويل للتثبيت على مستوى معيّن من الجودة. كانت أحاديث البروفيسور هِغنز، وهو بطل مسرحية جورج برنارد شو (سيدتي الجميلة)، تبيّن قدرته على معرفة انتماءات الأطفال في الشارع اللندني من خلال كلماتهم، طبعاً السرد القصصي لا يثبت أي شيء على صعيد العِلم، لكننا نعرف أن الأدب دائماً يشير بمبالغة إلى شيء نعرفه نوعاً ما. ما معنى هذا؟ هذا يعني أن الدماغ البشري بإمكانه الاستنساخ بكفاءة وإلّا ستغدو لهجة نيوكاسل في انكلترا على سبيل المثال ليست بالثبات المطلوب كي تبقى وتستمر.

لكن هذا الاستنساخ ستصاحبه بعض الأخطاء. ولو افترضنا أنه بلا هذه الأخطاء، كانت لهجة أي بلد ستغدو متطابقة تماماً لجميع أبناء ذلك البلد. وسيتحدث الجميع بذات اللهجة التي أورثها لهم أسلافهم.

نعود إلى المُحدد الثاني الذي يخضع له الفايروس المُصيب للمورثة

(PDNA)، وهو مدى جهوزية الوسط الصديق، ومدى الاستعداد ضمن آلياته لطاعة وتنفيذ الأوامر التي جرى استنساخها. هذا المُحدد أيضاً يمكن تطبيقه على الدماغ البشري، وهنا أيضاً سيكون الفرق كمّياً بالنسبة للدماغ. نعم، فالدماغ البشري أقل استعداداً للطاعة والتنفيذ من الكومبيوتر الإلكتروني، وهو كذلك أقل استعداداً للطاعة ولتنفيذ مجموعة الأوامر التي جرى استنساخها عبر الفايروس المُصيب للمورثة (PDNA).

وبالتأكيد لا يمكن لنا أن نتصور أن كل الأطفال في العالم سيتبنّون بالضبط ديانات آبائهم، وسيطيعون كل الأوامر التي يتلقونها منهم فيما يخص الدين مثلاً، وأنهم كلّهم سيسجدون تجاه مكّة مثلما يفعل المُسلمون، أو أنهم سيهزّون رؤوسهم تجاه الحائط مثلما يفعل اليهود. طبعاً هذا الأمر غير متحقق فعلياً، والسبب أن الدماغ البشري لا ينفذ الأوامر بكفاءة عالية حين يتلقاها، ويتفوّق عليه في الطاعة في هذا كلٌّ من الكومبيوتر والفايروس الذي أصاب المُورثة. وهنا ستكون قائمة الأفعال العشوائية والتي لا تعني شيئاً والتي يأمر بها الدين قائمة طويلة معقّدة، فقط تصوروا لو أن الجميع ينفذونها!

وبصورة أقل خطورة، لو عُدنا إلى أمثلة الأطفال، يمكننا أن نلاحظ بسهولة انتشار لعبة الهيلاهوب، أو (اليويو) عبر المدارس بشكل تقليعة. وهو نموذج يمكن تسميته بـ(الافتتان). وقبل عشر سنوات، كان متاحاً لأحدكم السفر لمئات الأميال عبر الولايات المتحدة لكنّه نادراً ما سيرى شباباً يرتدون قبعة البيسبول بالمقلوب، الآن يمكن أن يكون ارتداؤها بالمقلوب هو القاعدة الشائعة. أنا لا أتوافر على

إحصائيات عن الانتشار الجغرافي لارتداء القبّعة بالمقلوب، لكن بالتأكيد إن علم الأوبئة هو العِلم المختص بتفسير طريقة انتشار ذلك السلوك. ومن دون الخوض في تفاصيل دراسية، يمكن القول بشكل مباشر بأن سلوك الأطفال في ارتداء قبّعات البيسبول متأثر إحصائياً بسلوك رفاقهم وأقرانهم في هذا المجال.

إن التجوال في عالم الأطفال سيزوّدنا بأمثلة أكثر وضوحاً تثبت بأنّ العقل البشري (وبصورة خاصة في مرحلة المراهقة)، يمتلك التأهيل، والمُحددات النوعية التي شخّصناها بأنها ضرورية لانتقال طفيليات المعلومات. وعلى أقل تقدير، فإن العقل البشري مهيأ للإصابة بما يشبه إصابة الكومبيوتر بفايروس معلوماتي. أو أنه (مرشّح) للإصابة.

هذه الاحتمالية موجودة حتى مع عدم توفر البيئة الصديقة التي يشترطها فايروس الكومبيوتر أو الفايروس الطفيلي المُصيب للمورثة في الخليّة الحيّة. لكن من المُثير للاهتمام أن نفهم عملية إصابة دماغ أحدهم بفايروس عقلي، فإنّه على الأغلب سيكون فايروساً مُصمماً لأداء غرض معيّن، بالضبط كما يحدث مع الفايروسات التي تصيب الكومبيوترات. أو أن يكون فايروساً طفيلياً قد تحوّر وتطوّر دون عمد. ولو كان قد انحدر إلينا من أسلافنا، فقد نتعامل معه على أنه شيء جيد، ونقبل بهذا الفايروس العقلي «النموذجي»، ونُسعد بإتاحة الفرصة له أن يستنسخ نفسه.

إن التطوّر الحثيث لأنواع أعلى تأثيراً من طفيليات العقل، سيتضمن شقّين اثنين؛ الأول، إنه سينتهي إلى خلق مسوخ (إما عشوائياً أو مصممة عن طريق البشر) يمكن لها أن تكون أكثر كفاءة في الانتشار. والشق الثاني،

هو تحشيد مجموعة أفكار، تؤسس الواحدة منها للأخرى، بالضبط مثلما تفعل الجينات الدخيلة حيث تهيئ وتعضد ظهور بعضها البعض. وربما هذا ما ستفعله فايروسات الكومبيوتر المختلفة في المستقبل.

إن الفايروسات العقلية الطفيلية لها القدرة على التواصل والتعاضد، بين دماغ بشري وآخر، ولها القدرة على تشكيل ما يشبه العصابة فيما بينها. وحينها ستكون مستقرة بما يكفي أن نطلق عليها اسماً مثل: «الكاثوليكية الرومانية»، أو «الفودو»[1]

ولا يهم المدى الذي نذهب إليه في مُقايسة الناتج الكلّي النهائي (وهو حزمة الفايروسات مجتمعة) بخواص الفايروس الواحد. ما يهمّنا هنا هو أن الأدمغة المختلفة قد شكّلت بيئة مُرحّبة بتلك الفايروسات الطفيلية، وستجري عملية استنساخ ذاتية للمعلومات والأفكار، حينها ستكون تلك العقول قد أصيبت بالعدوى بشكل نمطي ومُشخّص بصورة واضحة.

ومثل فايروسات الكومبيوتر، ستكون فايروسات الأدمغة قد نجحت في تضليل بيئتها في الدماغ، وجعلت كشفها أمراً عسيراً للغاية. وستتضاءل فرصة كشفها، بل قد يلجأ الدماغ البشري إلى إنكار وجودها بالأصل.

لو افترضنا أن إصابة الدماغ البشري بفايروس عقلي[2] هو أمر يخضع معه الإنسان إلى تشخيص سريري، فسيكون التقرير الأكلينيكي كالتالي:

---

(1) الفودو (Voodoo): نوع من أنواع الطواطم المستخدمة في السحر والشعوذة.

(2) يقصد ريتشارد دوكنز هنا بالفايروس العقلي اقتناع الدماغ ببعض المعلومات الدخيلة التي تسرّبت له عن طريق غير شرعي ظنّاً بأنها معلومات مفيدة وشرعية. وهذا هو سبب المقارنة مع الإصابة.

1. إن المريض يجد نفسه وقد اقتنع بعمق وبصورة نمطية بأن بعض الأشياء هي صحيحة، وصائبة وصادقة، عبر آليّة اقتناع تبدو وكأنها لا تستند إلى أي دليل مادي أو منطقي. وبالرغم من هذا، فهو يشعر بأنه مقتنع للغاية. نحن الأطباء نسمّي تبني هذه القناعات بـ «الإيمان».
2. يُبدي المريض علائم تمسّك وقناعة بتلك المتبنّيات، وتبدو قناعته بأنها لا تهتز بالرغم من كونها غير مبنيّة على دلائل. بل إنه يبدي ميلاً إلى زيادة قوّة القناعة كلّما شحّت الأدلة وتلاشت. (إن هذه الفكرة المتناقضة، كون النقص في الأدلّة يعدّه المؤمن فضيلة من فضائل الدين، وهو يشبه سلوك برامج الحاسبات الإلكترونية، ذاتية الاستدامة، طالما كانت هي برامج ذاتية المرجعية، أي ترجع إلى ذاتها حين تواجه مسألة رياضية. وما إن يتم قبول الافتراض (X) في ذلك البرنامج، ستجد أن البرامجيات تدمر ذاتياً أي رفض للافتراض (X́)، ومن المفارقة أن هذه الأحجية المنطقية هي الأساس الذي يستخدمه قراصنة الحسابات والانترنيت، في قرصنة أي شيء والولوج إلى أي معلومة أو نظام).
3. ومن الأعراض ذات الصلة، أن يقتنع المريض أن الغموض في الدلائل المتوفرة على صحة ما يؤمن به، هو شيء جيد بحد ذاته. وهو يؤمن بأن حل اللغز ليس فضيلة، وأن من الأفضل الإبقاء على اللغز والتمتع بغموضه بدلاً من إضاعة الوقت في حلّه.

إن أي محاولة لحل الألغاز التي تصدّقها العقول المصابة بالفايروس،

قد تكون محاولة جادة للقضاء على الفايروس نفسه. ولذلك لن نتفاجأ لو وجدنا شيوع فكرة «أن الألغاز من الأفضل ألّا تخضع للحلول»، قد انتشرت بين أصحاب فكرة الإيمان ومعتنقيه. لو أخذنا مثلاً اللغز في عقيدة «الاستحالة» (Transubstantiation)، وفيها يؤمن الكاثوليك الرومان بأن الخمر والخبز إنما يتحوّلان إلى دم ولحم من جسد المسيح، حين يقدّمان على المذبح في الكنيسة. ليس من العسير فهم الرمزية المقصودة للعملية، وإنه ما من لغز في الأصل في هذه التقدمة. ومع هذا، فإن المسيحية الكاثوليكية تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول لأتباعها إن كل النبيذ الذي يقدمه المؤمنون سيتحوّل (حرفياً) إلى دم للمسيح، وما يبقى منه فإنه يبقى بطريقة عرضية.

إن سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تفرض هيمنتها لإقناع الأتباع بأن الخمر أو النبيذ المقّدم سيتحّول بالفعل إلى نبيذ. وبمجرّد الإيمان باللغز أو المعجزة سيكون كل شيء على ما يرام. أو هذا ما يجري عملياً وواقعياً للأدمغة التي سبق أن أصيبت بفايروس عقلي، وهي نفس الأحجية الملغّزة المستخدمة في إقناع المؤمنين بقصّة الثالوث.

إن الألغاز لم تصنع لتحل، إنما وضعت كي تثير العجب والدهشة. فامتلاك اللغز هو بحد ذاته فضيلة للكاثوليكية. وكما وصفها هوفستادر (Hofstader)[1] بقوله: «إن الغموض والألغاز تدفع المؤمنين أنفسهم إلى تخليد عقائدهم بالغموض والألغاز نفسها».

إن هذا الأمر مكافئ أيضاً لما قاله تارتوليان، الداعية المسيحي من

---

(1) دوغلاس هوفستادر (Douglas Richard Hofstadter)؛ بروفيسور أميركي وباحث بارز في الفلسفة وشؤون علوم المعرفة، حازت أعماله على جائزة بولتزر.

القرن الثاني الميلادي، حيث قال عن الثالوث: «إنه أكيد لأنه مُعجز ومستحيل». بهذه الطريقة تكذب الحماقة. وفي قول آخر له: «ليس هناك ما يكفي من المُستحيلات في الدين التي تكفي لقهر الإيمان الحقيقي».

في الحقيقة لديّ شعور بأن هناك شيئاً ما يجري في هذه العقلية، ما هو أكثر من مجرد جنون، أو هراء سيريالي. شيء قريب من شعورنا بالاندهاش والإعجاب حين نشاهد كرة مشعوذ تطير في الهواء، أو وهو يسير على حبل مشدود. إنه يشبه إثارة الإعجاب والتباهي بأن هذه العقائد يمكن أن تجذب المؤمنين إليها، حتى باستخدام قضايا من المُستحيل أن يؤمن بها العاقل بواسطة العقل والعِلم. فهل إن هؤلاء الناس يمرّنون عضلاتهم لجعل المؤمنين يؤمنون بأشياء غير ممكن الإيمان بها وفقاً لآليات التصديق العقلانية والعلمية والمنطقية؟

إن معظم المحددات في الطعام بالنسبة للأديان، المحددات التي تجعل الطعام حلالاً أو حراماً على الأتباع تتخذ من هذه الجدلية وسيلة للوجود والديمومة. فلو كان الانتماء إلى رهطٍ من المؤمنين يستلزم ألا يرتكب الإنسان جريمة قتل، فإن الأمر سهل. الغالبية العظمى من الناس لا ترتكب جرائم قتل خلال الحياة، أمّا إذا كان الانتماء يستلزم الامتناع عن السرقة مثلاً، فالأمر سيكون أصعب قليلاً، لكنه ممكن. فقليلاً ما تسنح الفرصة للإنسان أن يسرق خلال حياته. لكن إذا كان الانتماء واختبار الولاء للجماعة الإيمانية يتطلب منّي أن أمتنع عن شرب القهوة مع الحليب، أو أن أمتنع عن خلط اللحوم مع البزاليا، أو أن أمتنع عن شرب الماء ليوم كامل، فهذا اختبار صعب حقاً، لسبب واحد وهو

أنه منع بلا هدف، وبلا مبرر عقلاني أو علمي، بينما تؤسَس الحضارة الإنسانية على العقلانية والعلم في كل مفصل.

إن معقد (المؤمن/ المريض) يعاني من مغالطة مهمة أخرى، وهي أنه يمتنع عن سؤال نفسه: لماذا أتمسّك بمجموعة العقائد والإيمانات هذه؟ هل السبب هو اطّلاعي المُسبق على كل العقائد المتوفرة على وجه الأرض ثم بعد ذلك اخترت هذه؟ بالتأكيد هو لا يدرك أنه لا توجد عملية اختيار ابتدائية، إنما هو تلقين وتعوّد وتدريب.

(5)

في شاعرية العِلم

«يجب أن نسمح للأطفال بأن يكسروا من حاجات البيت أكثر مما يكسرون عن طريق المصادفة، لأن الاستكشاف هو ما تفعله حين لا تعرف بنفسك ما أنت بصدد فعله بالضبط».

نيل دي غراس تايسون

* * *

حوار بين د. ريتشارد دوكنز ونيل دي غراس تايسون. ـ أكتوبر 2012.

نيل دي غراس تايسون Neil deGrasse Tyson: عالم أميركي متخصص في علوم الفضاء، وباحث في الفيزياء والرياضيات. ولد في نيويورك عام 1958. نال الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام 1991. ونال عدّة جوائز بحثية وخدمية نظير أدائه في تعريف الرأي العام بالعلوم الفلكية. وله عدّة مؤلفات، أهمّها: (أهلاً بالكون الفسيح 2016)، (مواجهة مع حدود الكون النهائية 2012)، (ملفات بلوتو؛ صعود وتهافت الكوكب المفضّل لدى الأميركيين 2009).

* * *

د. ريتشارد دوكنز: حسناً يا نيل، مرحباً بك. اليوم سنتحدث عن شاعرية العلم، أنا أتصور أن العلم هو الفضاء الشِعري للواقعية. وواحد من الأشياء التي تجعلني أشعر بالتواضع والتضاؤل أن عِلم الأحياء (وهو ما أنا مختص فيه) هو علم محدود لو تمّت مقارنته بالفيزياء. أفترض أننا يمكن أن نتعلّم من بعضنا البعض، لكنّي سأتعلم أكثر. لا أتذكر هنا من صاغ تعبير «الحسد الفيزيائي». إن ما نحن بصدد شرحه هنا هو محاولة للتقريب وتوضيح الترابط بين علم الأحياء ومفاهيمه العامة التي يعرفها الناس، وبين الفيزياء بسعتها الكونية. سأبدأ مما هو متاح لحواسّنا أن تراه فيزيائياً، وهو يبدو لنا على شكل حزمة ضيّقة من الطيف الكهرومغناطيسي (قوس قزح وألوانه المرئية مثلاً)، لكن الفرق هو أن قوس قزح يعدّ ضيّقاً جداً لو جرت مقارنة أمواجه مع أمواج المجال الكهرومغناطيسي. أرى أن ذلك يمكن أن يُتخذ كرمز لمحدودية فهمنا عن الكون. والسبب هنا هو أننا كائنات تطوّرت لتمتلك قابلية فهم محدودة أو متوسطة، عن العلاقات والتفاعلات التي ترتبط بحركة الأشياء من الحجم المقبول أو حتى متوسطة الضخامة. لهذا أجد نفسي مرتبكاً جداً كبيولوجي حين أنظر إلى علم الفيزياء والفلك لأرى الأحجام والأرقام التي يتعامل معها، والتي هي خارج المعتاد مما توصّلت إليه البشرية من علوم في هذا المجال. ولأضرب لكم مثالاً واحداً هنا، ففي الكون المتمدد، يقول لنا الفيزيائيون (وعلينا أن نؤمن بهذا): «إن أيّ مكان في الكون هو في الوقت ذاته أيّ مكان آخر. فليس هناك من حافّة للكون كي نقيس البعد والقرب عنها للأماكن التي قد نحددها»، وهنا سأسأل نيل دي غراس، كيف يمكن هذا؟

د.نيل دي غراس تايسون: حسناً، لقد قلت إنك قد «قيل» لك هذا، وإن عليك أن تصدّق به. في الحقيقة أنا لا أدعوك إلى أن تصدّق بأي شيء. الأمر يتعلّق فقط بما تعنيه الأدلّة بالنسبة لك. لكن، هل بالإمكان عكس ما بدأت به للتو؟ أنت بدأت من محدودية الحواس المتاحة للإنسان وانتهيت إلى سعة الكون، هل بالإمكان أن أبدأ بصورة معكوسة؟

إن الدفع باتجاه الاعتماد على حواسّنا، وأن نعدّها حواساً قويّة، وأن نحاول إدراك الحقائق بواسطتها، هو أمرٌ ممتاز. أولاً لأن هذه الحواس هي كل ما لدينا، وليس متاحاً لنا غيرها. ثانياً إننا يجب أن نشعر بالرضى والقبول بما هو متاح لنا، بدلاً من التعايش معه وفقاً لأفكار بائسة وتعيسة. لهذا، ممكن أن نحتفي بقوّة البصر، أو قوّة حاسة التذوق، أو الشم. في الحقيقة لو أردنا أن نتأكد من رائحة معيّنة ربما يتوجب علينا أن نجلب كلباً كي يتأكّد منها بأفضل مما نفعل نحن. لا أعني أن الكلب أفضل من الإنسان، لكنّ الهدف ليس أن نتمتع بأقوى الحواس، بل بأفضلها في الترابط مع ما يمكن أن نفهمه، وأحسنها في الأداء مع قدراتنا العقلية. وهذا أمر طبيعي أن نتجه إلى مملكة الحيوان كي نحصل على أداء أفضل لما نريده، لأننا سنجد فيها بالتأكيد نماذج لقوّة البصر أفضل مما هو متاح للإنسان، وسرعة العدو مثلاً، قوّة حاسّة الشم مثلاً.

لكن، لغاية قرن ونصف القرن قبل يومنا هذا، لم يكن هناك على الأرض الكثير من الناس يؤمنون بأن (سعة الإدراك) الإنسانية هي الأخرى محدودة، وأعني القدرة على التصوّر. وهي التي أشار إليها د.دوكنز في مثاله عن قوس قزح. ولم يكن ممكناً أن يفهم الناس (على سبيل المثال) أن هناك قبل اللون الأحمر ألوان أخرى تسمى (تحت الحمراء)، أو أن

هناك بعد اللون البنفسجي ألوان أخرى تسمّى (فوق البنفسجية). وتحت الأشعة (تحت الحمراء) هناك (المايكروويف Microwaves)، وتحت أشعة المايكروويف هناك (موجات الراديو). وفي الاتجاه الثاني، بعد الأشعة (فوق البنفسجية)، هناك أشعة (أكس X ـ Ray)، وبعدها أشعة غاما (Gamma)، وإن الطاقة ترتفع حين تصل إلى أشعة غاما. وهي أشعة ذات مخاطر جمّة لو تعرّض لها الإنسان. نقطة الموضوع هنا أن الأشعة المنظورة من قبل الإنسان هي حزمة رقيقة من طيفٍ واسع من الأشعة الموجودة فعلاً. فمن المفيد أن نعلم أن الكون لا يتواصل معنا فقط عبر هذه الحزمة الضيّقة التي نراها. لكن معظم تاريخ البصريات في خط الوجود الإنساني اقتصر تعامله على هذه الحزمة الضيّقة فقط. ثم ظهر التلسكوب، الذي هو بذاته توسعة لمدارك العين البشرية المجرّدة، لكنه لم يوسع في مدى هذه الرؤية؛ لقد زاد التلسكوب من قوّة أعيننا، وليس من سعة ما يمكن أن ندرك من أشعّة. كان هذا الحال لغاية القرن التاسع عشر، وحين حلّ القرن العشرون، بدأ ظهور أنواع من التسلكوبات لكل نوع من الأشعّة، المرئي منها أو غير المرئي بالعين المجرّدة. وعند ذلك فقط علمنا بوجود الثقوب السوداء، أو تلك القوى العنيفة التي تحكم مراكز المجرّات، وهي التي جرى اكتشافها بواسطة التلسكوبات الراديوية (أي التي ترصد الأشعّة الراديوية). لذا فإننا قبل معرفة تلك الأشعّة كنّا عملياً مصابين بالعمى الكوني. وربما تجدون في هذا القول تصغيراً لشأن الإنسان، لكن هذا هو محور كل العلوم والطرائق الرياضية وما تهدف إليه. هدفها لا يقتصر على توسعة حواسك ومداركك في الإطار الذي تعمل فيه، وإنما أن تأخذها إلى مديات أبعد مما كانت قد وصلت إليه من قبل. وفي مقدمة هذه المديات أن يقدّم العِلم أدوات وطرائق يفهم من

خلالها الإنسان ما لم تكن حواسه لتناله أو تعلم بوجوده بالأصل. فأنت الآن د. ريتشارد دوكنز لا تمتلك على سبيل المثال أي توصيف للمجال المغناطيسي المحيط الآن بجسمك. ولا فكرة لديك إن كنت غارقاً الآن في سحابة آيونية أم لا. وهناك الكثير من الأمثلة التي لا نستطيع أن ندركها بحواسنا؛ استقطاب الضوء من حولنا مثلاً. لذلك حين أفكر بالاختراعات وبالأدوات المتاحة للفلكيين وعلماء الفضاء، فكلّها تتمحور حول ما يمكن أن تجلبه من مقدّرات إضافية لحواسنا كي نسبر بها أغوار الكون.

وواحدة من الأشياء التي جلبتها لنا هذه الاختراعات العلمية على طاولة المعرفة، هي أننا ننظر إلى الكون ونتصور في أنفسنا بأننا نقبع في محوره. هذا المفهوم هو مفهوم فنتازي بالدرجة الأساس، يمكن لنا أن نجلس ونفكّر في حقيقة هذا الافتراض ونعتد بأنفسنا، أو أن نكرّس جهدنا للدراسة والاستكشاف العلمي لنكتشف أن الكون المتوسع (المستمر حقيقة بالتوسع) من حولنا، حيث تكون سرعة الضوء محدودة ولها سقف أعلى (186000 ميل في الثانية)، هنا نجد أن مفهوم المكان هو مفهوم متناظر في معظم الحالات. دعوني أضرب مثالاً لكم؛ فلو أبحرت ورأيت الأفق حولك في جميع الاتجاهات متشابهاً لا اختلاف فيه، هنا سيكون (الأفق) في كل الاتجاهات يبعد عنك مسافة متساوية. لكن الأمر يعتمد على الارتفاع الذي ترى منه من على سطح السفينة. لهذا، فكلّما حققت ارتفاعاً أكبر على صاري السفينة مثلاً، ستتمكن من الرؤية لمدى أبعد في الأفق. في هذه الحالة سيكون الأفق من حولك عبارة عن دائرة مكتملة وأنت في مركزها.

يمكنك أن تستنتج لحظتها أن هذا الأفق هو كامل الأرض التي

تحملك، أو أن تتصور بقعة أخرى مثلاً، كنت فيها للتو. يعني أنك واصلت الرؤية والاعتقاد بأن المكان الذي أنت فيه هو المركز، لكنك لو أبحرت لساعة أخرى مثلاً، ورأيت كذلك أن كل ما يحيط بك هو الأفق نفسه، واستنتجت أيضاً أنك في مركز هذه الدائرة التي تشكل كامل الأرض التي تحملك، فمعنى هذا أن مكانك قبل ساعة هو مكانك ذاته الآن، حتى لو كنت متأكداً من أن السفينة تبحر حقيقة وتغيّر مكانها فعلياً. والأمر نفسه بالنسبة للكون، فلدينا (أفق) لهذا الكون، فالموجود في مجرّتنا سيرى من حوله أفقاً لا حدود له، وكذلك الموجود في اللحظة نفسها وسط مجرّة (المرأة المتسلسلة Andromeda Galaxy)، كذلك سيرى من حوله أفقاً بلا حدود. والشيء ذاته بالنسبة للمجرّات التي تحمل أسماء تشبه أرقام الهاتف. وهنا نحن نتحدث عن رؤية في ثلاثة أبعاد، لا حدود للكون في الأبعاد الثلاثة وفي المجرّات كلّها؛ فهم يرون أن الأبعاد تمتد في كل الاتجاهات مثلما نراها نحن بالضبط، وإنْ كنّا في مجرّة أخرى.

د. ريتشارد دوكنز: ما فهمته هو أن الأفق هو حدود ما يمكن لنا رؤيته، وإن لأي مكان من الكون أفقاً هو النقطة التي تختفي عندها بالنسبة للمشاهد آفاق الكون المتسعة والتي تواصل الاتساع، أي إنها تتحول إلى شيء غير مرئي بعدها.

د.نيل دي غراس تايسون: نعم بالضبط.

د. ريتشارد دوكنز: لكن هذا يعني أنه ما زال هناك شيء خلف الأفق، حتى لو لم نكن نمتلك القدرة على رؤيته أو تحسسه بأي واسطة علمية، هل هذا صحيح؟

د.نيل دي غراس تايسون: نعم هذا صحيح، حتى بالنسبة للبحر الواسع الذي ضربته مثالاً، فعدم رؤيتك للحدود التي ينتهي عندها الأفق لا يعني أن لا شيء يقبع خلف ذاك الأفق. دعني أشرح ذلك بأكثر مما قلنا؛ إن قطر الأفق الكوني حولنا يقدر بحدود 14 مليار سنة ضوئية[1]. لو جلسنا هنا في مكاننا هذا لمدّة مليار سنة اعتباراً من اليوم، فإن ذلك الأفق سيكون (بعد مليار سنة) قد أصبح قطره بحدود 15 مليار سنة ضوئية. إن هذا الأفق الذي نتحدث عنه في الحقيقة هو أفق يواصل الاتساع، لماذا؟ لأن الضوء في هذه الحالة سيحتاج إلى 15 مليار سنة ضوئية ليصل إلينا، ولندرك معنى اتساعه. أمّا الآن، فهو يواصل مسيرته.

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة لا أحمل مشكلة مع هذا التصوّر، لكن ماذا يقع ما بعد الـ14 مليار سنة ضوئية؟

د.نيل دي غراس تايسون: حتى نعرف ماذا يقع خلف الـ14 مليار سنة ضوئية، هنا ستواجهنا مشكلة وهي أن الكون لم يكن موجوداً بالأصل. لهذا لا يمكن رؤية الكون قبل أن يكون قد وُلد بالفعل. لهذا، فهو يستغرق الوقت اللازم ليقطع بسرعة الضوء ويصل إلينا، والكون لم يكن موجوداً منذ الأزل. وإذا زاوجت بين هاتين الحقيقتين، ستعرف هوية حدود الكون. والكون موجود هنا منذ 14 مليار سنة. وأبعد الأشياء التي

---

(1) لا يوجد أي احتمال بأن الأرض تقبع في مركز الانفجار العظيم الذي حدث قبل 13.8 مليار سنة. ولهذا، فالضوء القادم إلينا من أبعد نجم سماوي سيكون قد قطع مثل هذه الفترة كي يصل إلينا. لأن المنطلق الابتدائي قد جرى ضمن أجزاء متناهية في الصغر من الثانية. وكان يحمل المادة الكونية المسماة حساء الكوارك (Quark Soup)، وحين انخفضت درجة حرارة الكون إلى 2 كلفن، بدأ الضوء ينطلق في كل اتجاه، ومنه الضوء الذي يجري رصده على سطح الأرض: Davies, Paul. Multiverse Cosmological Models and the Anthropic Principle.

يمكن أن ترسل إلينا المعلومات عن هذا الوجود تبعد عنّا الآن مسافة تقرب من 14 مليار سنة ضوئية.

د. ريتشارد دوكنز: هذه فهمتها، لكن ماذا عن شخص يقف الآن عند أقصى حدود ما يمكن لنا رؤيته أو استشعاره؟ كيف يمكن له أن يرى عبر الجانب الآخر؟

د.نيل دي غراس تايسون: هنا مسألة مهمة، فهو لا يعرف إن كان هذا الكون محدوداً أم لا، يعني أن الكون يمكن أن يكون ضعف ما نراه من أفق تصل إليه مدركاتنا أو أن يكون ذا بعد لا ينتهي، المثال نفسه الذي ضربته عن البحر، فليس لك أن تعرف وأنت في وسط المحيط بأكثر مما يسمح به لك الأفق الذي تدركه.

د. ريتشارد دوكنز: فقط هنا أريد أن أبدي ملاحظة، لقد ضربت مثلاً في حاسة الشم للكلب بالمقارنة مع الحاسّة نفسها عند الإنسان، إنها حقيقة رائعة بأن الكلب لديه حاسة أقوى، لكن في الحقيقة إننا نحمل الجين الذي مكّن أسلافنا في يوم ما من امتلاك حاسّة شم تناظر حاسّة شم الكلاب. لكن هذا الجين قد جرى تحييده في معظم قدراته. نحن الآن لدينا بقايا هذا الجين، لدينا البقايا التاريخية لهذا الجين. الأمر يشبه ملفات الكومبيوتر التي تحذفها وتبقى نسخ من أيقوناتها هنا وهناك لكنها في الحقيقة معطلة أو ضائعة.

د.نيل دي غراس تايسون: هل هذه تشبه شخصية (أكس ـ مان)، شيء هو بالأصل بشري لكنه مختلف جينياً؟ حيث الجينات تعمل مرّة، ومرّة لا تعمل مما يمنحه قدرات مختلفة. فهل تقترح أن هذا اليوم قد يكون قريباً حين نتمكن من الدخول إلى النظام الجيني، وعندها سنطفئ بعض الجينات ونشغّل البعض الآخر حسب الحاجة؟

د. ريتشارد دوكنز: أولاً لنفهم أنا لسنا مضطرين أن نستعير هذه الجينات من الكلاب لتكون لنا القدرة على الشم بالمستوى الذي تمارسه الكلاب. بالرغم من أن التكنولوجيا في طريقها لتجعل ذلك الأمر ممكناً.

د.نيل دي غراس تايسون: في الحقيقة ما زلت أفضّل أن تستكشف الكلاب بأنوفها القنابل أفضل مما أن أفعل ذلك بنفسي.

د. ريتشارد دوكنز: ربما ستتوفر روبوتات ستؤدي المهمة بأفضل من الإنسان والكلاب في الوقت نفسه. لكن يبقى الأمر المذهل هو كيف تطوّر العقل البشري ليستغني عن حاسة الشم القوية، وأن يتفادى أن تأكله الأسود مثلاً عبر أدوات أخرى غير حاسّة الشم. وهذا حدث في العصور الحجرية المتأخرة في أفريقيا، وبالمناسبة كلّنا تحدّرنا من أفريقيا. وهناك تم تطوير وتشكيل أدمغتنا عبر الانتخاب الطبيعي. حيث اكتسب الإنسان القدرة على فعل الأفعال التي تتطلب دقّة عالية. وهنا أقول إنه لشيء عظيم أن تكون لأدمغتنا القدرة على فهم قضايا بأبعاد غير ملموسة ولا محسوسة لو جرت مقارنتها مع حجم الأشياء التي يتعامل معها الإنسان يومياً.

د.نيل دي غراس تايسون: نعم، هذا الأمر لم يحدث فقط عبر استخدام الأدوات العلمية والطرائق المتعلقة بالعلم، ولكن أيضاً عبر لغة الكون التي اصطلحنا على تسميتها بالرياضيات. وهنا أجد من المفيد الإشارة إلى تعبير يوجين ويغنر (Eugene Wigner)[1] الذي أقتبس منه قوله: «إن

---

(1) يوجين ويغنر (1902 - 1995) Eugene Wigner؛ مهندس وفيزيائي وعالم رياضيات أميركي من أصل هنغاري. حاز على جائزة نوبل للفيزياء عام 1963. كان أول من وضع معادلات نظرية المجال الكمّي والتي عُرفت باسم معادلة (بيرغمان ـ ويغنر). أما نوبل فقد مُنحت له عن أعماله وأبحاثه في مجال الجسيمات الأوليّة النواة الذرية.

للرياضيات إمكانيات ومنافع لا يمكن تفسيرها أو تعليلها بالمنطق، وقد ظهرت هذه الإمكانيات لحظة اختراع الإنسان لها ووضعها خارج دماغه».

وقد أعانتنا الرياضيات على التوصيف الصحيح والمنطقي للكون بدلاً من اللغة الإنسانية المحدودة في ممكناتها. وأهم ما أنتجته الرياضيات هي أنها علّمتنا أن نغادر حواسّنا. لماذا؟، لأن الرياضيات تخبرنا ببساطة كيف أن حواسّنا يمكن أن تخدعنا بسهولة. ويمكن لهذه الحواس أن تخبرنا بأن شيئاً ما هو حقيقي، لكنه في الواقع ليس كذلك. ومن هنا، فإننا نستخدم الأدوات بدلاً من الحواس لقياس الأشياء ونشير بثقة ونقول: هذه هي الواقعية والحقيقة. وعبر الربط المنطقي باستخدام الرياضيات يمكن أن ننجح في إنجاز استكشافات جديدة مذهلة، فقط باستخدام الرياضيات ومغادرة ساحة تأثير الحواس. ولا ينفع أن نقول: إن هذه الفكرة العلمية مثلاً لا تبدو حقيقية لأنها تبدو «غير منطقية!»، خاصة إذا ربطنا المنطق فقط بما تتمكن حواسنا من لمسه أو التعرف عليه. لأنه لا أحد سيأبه لما تحسّه وتلمسه حواسك.

التيليسكوب (المسبار) سيأخذنا إلى عالم أكبر من حواسنا، بينما سيأخذنا المايكروسكوب (المجهر) إلى عالم أصغر منها، والقوانين الأخرى ستأخذك إلى استكشاف أنظمة حياتية لم تعهدها حواسك من قبل. إنها الرياضيات؛ هي فقط من تأخذك إلى عالم حثيث يتجاوز قدرة حواسّك، وربما إلى ما هو أكبر من القدرة العقلية نفسها. صحيح أن العقل هو من يتخذ الخطوات، لكن العقل لا يخترعها، إنه يرتّبها ويمنهجها لتظهر له الحقائق، تلك الحقائق لم تكن متاحة بالأصل، مثلما إنها لم تكن متوقعة أصلاً.

د. ريتشارد دوكنز: وبطريقة ما، عندما يعتاد العالِم على استخدام الرياضيات، فإنها تخدمه بطريقة حدسية تشابه ما قاله لي بعض الطيّارين من أنهم يحسّون بأن الطائرة وأجنحتها تصبح جزءاً من أجسادهم وهم يقودونها. وبعبارة أخرى، فإن الأدوات الرياضية والعلمية تصبح هي «الأيدي» التي نعالج بها ونتعامل بواسطتها مع المحيط الفيزيائي الذي يحيط بنا. بالضبط مثلما وصفتَ أن التيليسكوب هو توسعة لمداركنا الحسّية البصرية. أتصور أن الوقت ليس ببعيد حتى يحوز الجراحون شكلاً من أشكال النظّارات الواقعية (الواقع الافتراضي) التي يرتدونها ويتحركون لتتحرك بالموازاة آلات جراحية دقيقة تؤدي العمل الجراحي عبر محاكاة حركاتهم. الآن هم يستخدمون أدوات جراحية مايكروسكوبية تتحرك فيها أيديهم بمقدار بوصة مثلاً، ليتحرك المبضع الدقيق الميكانيكي في المقابل بمقدار جزء من مائة جزء من البوصة، وهي حركة غير ممكنة على مستوى عضلات الإنسان، لا يمكن لإنسان أن يضبطها بهذه الدقّة. وقتها، سيشعر الجرّاح وكأنه بالفعل داخل جسم الإنسان.

د.نيل دي غراس تايسون: هذه فكرة رائعة، لكن عندها توجّب علينا أن نعشتق قوانين الفيزياء لتناسب ذلك العالم الدقيق ـ جسم الإنسان، لأننا لو كنّا سنتحرّك في نطاق مايكروسكوبي، عندها ستتغير الخواص الفيزيائية، مثلاً الخاصية الشعرية، أو خاصية الشدّ السطحي وما إلى ذلك. وستصبح هي الواقعية الجديدة، بمعنى آخر، ستصبح هي معايير الحواس الجديدة، بدلاً من الحواس التي نمتلكها بالفعل وتمتلك حدوداً معروفة بالنسبة لنا.

د. ريتشارد دوكنز: هذا صحيح، في العالم المايكروسكوبي عليك أن

تتوخى الحذر حين تتعامل مع الخواص الفيزيائية فهي ستختلف جذرياً. أظن أن دارسي ثومسن (D'Arcy Thomson)[1] أسهب في هذا التفصيل. حيث قال إن عالم البعوض لا يعاني من مشكلة الجاذبية فهي تقريباً مهملة بالنسبة لحجم البعوضة.

فالمهم للبعوض هو الشدّ السطحي، لهذا فإنني أتخيل أن الجراحين في المستقبل سيكونون مزوّدين بمباضع تناظرية افتراضية تشبه المناشير التي تقطع بها الأشجار، لكن الذي يتحرّك في المقابل بالفعل هو أجهزة دقيقة تستجيب لحركتهم.

د.نيل دي غراس تايسون: هنا لدي سؤال لك كعالِم في مجال الأحياء، تعرف أن هناك نوعاً من الغطرسة تصاحب كل اكتشاف علمي جديد، وكلما ظهرت حقيقة جديدة أعيدت الأسئلة القديمة ذاتها. الآن نعرف أننا مجرّد كوكب يقبع في زاوية لا تكاد تذكر في مجرّة أكبر من كوكبنا بشكل لا مقارنة فيه، وأن هذه المجرّة هي واحدة من مئات المليارات من المجرات التي يتشكل منها الكون. كيف تجد الحديث عن حياة نظيرة للحياة على سطح الأرض؟ أعني هل يمكن أن نتوقع حياة ذكية في مكان ما، والأهم من هذا، لماذا نفترض أن الحياة على سطح الأرض هي نمط «ذكي»من الحياة؟ أعني لو نظرنا إلى الشامبانزي، سنجدها تتناظر في المورثات مع الإنسان بشكل كبير، لكن الشامبانزي لا تكتب، ولا تصنع الصواريخ ولا تؤلف الموسيقى. إذن، إن كل الاختلاف بين البشر والشامبانزي يقع في هذه المساحة الجينية التي لا تتجاوز واحد في المائة من حجم المورثات.

---

(1) دارسي ثومسون (1860 - 1948) D›Arcy Thomso؛ عالم أحياء اسكوتلندي وباحث في الرياضيات. درس التشكّل والنمو في عالم الحيوان والنبات.

د. ريتشارد دوكنز: نعم، لكن هناك حقيقة وهي أن أدمغتنا أكبر تشريحياً بكثير من أدمغة الشامبانزي. وهذا ينطبق أيضاً على ترتيب المورثات (DNA)، أعني أن المورثات وجب أن تتناسق في أنساق محددة كي تنجز قابلية الذكاء، وليس فقط الكم أو العدد الذي تتواجد به. إن الأمر مشابه لما يحدث في الكومبيوتر، ففي ذاكرة الحاسوب لا تكفي حقيقة وجود مساحة لخزن المعلومات، وإنما نحتاج إلى وجود مصفوفات تنجز العمليات الحسابية؛ كل مصفوفة ستختص بإنجاز عملية مُحددة. ولو تصوّرنا أن هناك مصفوفة أعلى شأناً في قدراتها وهي التي تحدد أي مصفوفة يجب استخدامها من أجل حلّ عملية رياضية محددة، ففي هذه الحالة سيكون الكومبيوتر أرقى بكثير من نظيره الذي يحتوي على المصفوفات الأساسية فقط، دون أن يكون له القدرة على التمييز؛ أنظر كيف أن مصفوفة واحدة من بين مئات المصفوفات هي التي حددت ارتقاء قدرات الذكاء في الحاسوب.

الأمر لا ينطبق على البشر والشامبانزي فقط، وإنما جميع الثدييات، ستجد أن القدرة على التعامل مع المعلومات في الدماغ لدى الإنسان هي أعلى بكثير من باقي الحيوانات، بالرغم من أن التماثل الجيني والكروموسومي قريب للغاية. فالفرق بين الإنسان والجرذ على سبيل المثال، يشبه الفرق بينه وبين الشامبانزي. وهو فرق متعلّق بترتيب الجينات وفقاً لما يسمّى (مراحل التشكّل الجنيني)، والتي تتسبب في النهاية بالاختلاف التشريحي للكائن النهائي، كما تتسبب في الفرق الكبير في حجم الدماغ. لكن العقدة الأخرى حول وجود حياة ذكيّة في الكون (غير ما هو موجود على الأرض)، بصرف النظر عن تعريفنا

لمعنى (حياة ذكيّة)، فإننا نتوقع أن يكونوا أكثر ذكاء منّا وهنا يتوجب عليهم أن يأتوا إلينا، وهو أمر صعب جداً. أو أن يرسلوا إشارات رادوية، وهو الأمر الأكثر سهولة. لكن، هنا ما زال يتعيّن علينا أن نعرّف مستوى التأهيل المطلوب كي ينجح أحد ما في إرسال إشارات عبر الكون. الأمر يعتمد على مفهوم الذكاء الذي نعمل على تحرّيه.

د.نيل دي غراس تايسون: لو حدث أنك كنت تمشي وصادفتك دودة بين الحشائش وكنت على وشك أن تدهسها، ربما ستسأل، هل إن هذه الدودة تشاطرني الفهم بأنني أكثر ذكاء منها؟ وهل لديها إدراك لمعنى الدهس الذي قد تتعرّض له؟ من جهة أخرى لو وضعنا التفكير من منطق الدودة نفسها، ربما، فهل يمكن للدودة أن تفهم لماذا تعتبر نفسك أذكى منها؟ هذا يدفعنا إلى تحفظات ستيفن هوكنغ عن وجود حضارات أكثر تطوراً منّا لو أتيح لها القدرة والفرصة أن تزور الأرض، وهو يتساءل عن تبعات التواصل معها. وهو يأخذ نموذجه من التاريخ البشري، فحين تسمح الظروف أن تلتقي حضارتان، فالأمور عادة ما تكون أسوأ بالنسبة للحضارة الأقل تقدماً. وربما تكون قارة أميركا الجنوبية مثالاً واضحاً ونعود عبر التاريخ لما حدث حين أصبحت في حالة تماس مع الإسبان.

د. ريتشارد دوكنز: ماذا تظن عن احتمالية وجود حياة في مكان ما من هذا الكون الفسيح؟

د.نيل دي غراس تايسون: في الحقيقة يجب أن تكون هذه الاحتمالية عالية. وسأقول لك لماذا. عادة ما يسأل الناس، هل عثرتم على شكل من أشكال الحياة خارج الأرض؟ الجواب بالطبع سيكون لا، لكن الأمر يشبه حين تغرف كأساً من مياه المحيط وتحدّق به وترى أنه لا توجد

حيتان في هذا الكأس، ثم تستنتج أن المحيط خال من الحيتان، هذه لن تكون «قاعدة بيانات!» للاستنتاج. بالتأكيد أنت بحاجة إلى نماذج أكبر بكثير من أجل أن تحكم وتقرر نسبة وجود الحيتان في المحيط. إذا نظرت على سبيل المثال إلى ما نسميه بـ «فقاعات موجات الراديو»، وهي الكرة التي تحيط بالأرض، ومركزها الأرض، وحدودها هي أبعد نقطة وصلت إليها إشارات موجاتنا الراديوية في المجرّة. وقطرها بحدود 70 سنة ضوئية، لأننا نبث مثل هذه الإشارات منذ ما يقرب من 70 سنة، وهي تسافر في الفضاء بسرعة تقارب سرعة الضوء. لكن إذا علمنا أن قطر المجرّة يتجاوز 100 ألف سنة ضوئية، فهذا يعني أن حجم فقاعة موجة الراديو التي أرسلناها يشبه حجم كرة المضرب بالمقارنة مع حجم ملعبين لكرة القدم إلى جانب بعضهما البعض. لهذا، لا يمكن لنا أن نقول إن الكون خال من حياة لمجرّد أن رسالة ما لم يرد أحد عليها، أو إنها لم تصل إلى مكان معيّن. لكن هناك حقائق يمكن أن أختصرها بدقيقة أو ما يقرب. لو نظرت إلى الأحفوريات التي عُثر عليها على سطح الأرض، وإلى العلامات الأولى التي تنبئنا عن طريقة تشكّل الأرض، ولو استثنينا بضعة الملايين الأولية من السنين حين تشكّلت جيولوجيا الأرض، بعد ذلك التاريخ علينا أن نبدأ العد، أو لنفترض أن لدينا ساعة توقيت تم تشغيلها في تلك اللحظة ثم علينا أن ننتظر لتصلنا أول إشارة بوجود حياة أخرى في المجرّة. على الأكثر سيتوجب علينا الانتظار لـ 400 مليون سنة، على أكثر تقدير. لكن الأرض موجودة منذ ما يقرب من 4.5 مليار سنة والى حدّ اللحظة. فالأرض، من دون أي مساعدة أو تدخل من قبلنا، تدبّرت أمر خلق الحياة خلال هذه الفترة. لقد توافرت العناصر الكيميائية من الهيدروجين والأوكسجين، والنيتروجين وباقي

العناصر لتأتلف وتشكّل الحياة على سطح هذا الكوكب (واحد من تسعة كواكب تشكّل المجموعة الشمسية)، وهذه المجموعة هي واحدة من مئات الآلاف من المجموعات التي تتكون منها المجرّة. إن الحياة هي في حقيقتها توصيف لتعقيد الكيمياء، هذا ما يقوله علم الأحياء. ويتوفر في الكون كم من الكربون والنيتروجين وباقي العناصر أكثر مما نتصور، لهذا فإن القول بأن الحياة على ظهر كوكب الأرض هي حياة متفرّدة ولا تتكرر سيكون قولاً مليئاً بالأنانية بصورة مفرطة وغير مقبولة.

د. ريتشارد دوكنز: أوافقك القول، وربما أزيد عليه لأقول: إذا حدث وقابلتَ شخصاً يدعي بأن الحياة على سطح الأرض هي شيء متفرد وفريد، فهذا سيدفنا إلى الاستنتاج بأن الحياة على سطح الكوكب هي أمر لا يتكرر وغير مبرر، وهي حدث لا أساس له في العلوم. ولو حاولتُ الكيمياء أن تجد مبرراً للحياة على سطح الكوكب (مبرراً فريداً لا علاقة له بتشكّل الكون) فعندها سنصل إلى نظرية لتفسير انبثاق الحياة تقول بإمكانية وجودها في أي مكان آخر وبلا مسببات، وبلا استناد للعلم. هنا علينا أن نراقب أسباب الحياة وهي تقفز فوق العلم بسهولة. أنا أخمّن أن هناك حياة في أماكن أخرى، لكن بسبب من أن الكون متسع جداً، فإن الجزر التي تنشأ فيها الحياة منتشرة بعيدة عنّا، من غير المحتمل لها أن تتلاقى، وهو أمر محزن بالتأكيد.

د.نيل دي غراس تايسون: لقد ظهر لدينا لفترة من الزمن أن المريخ يحتوي على المياه حتى قبل أن تظهر المياه على سطح الأرض، وهو قد يكون شهد في فترة ما بيئة مناسبة لظهور البكتيريا (قبل ظهورها على الأرض)، لكن الاصطدام الكوني جعل من المريخ كوكباً أكثر

ارتجاجاً من الأرض. وهنا أقول، ربما تكون بضعة مئات من الأطنان من صخور المريخ قد سقطت على الأرض (أو إنها انتشرت في كل الاتجاهات)، وقد تكون هذه الصخور هي التي حفّزت الحياة على البدء فوق سطح الأرض.

د. ريتشارد دوكنز: إن ما نحتاج إليه هو مثال آخر للحياة، لأن لدينا نموذجاً واحداً حالياً. لكنني هنا أريد أن أبدي ملاحظة عن حساباتك بأن 400 مليون سنة ستكون كافية لظهور الحياة الأولى. لكن الأمر قد يستغرق أكثر من 4 مليارات سنة لنشوء حياة قادرة على بعث إشارات راديوية تنتظر الرّد. وهي تقترب من نصف المدة التي استغرقها النظام الشمسي ليستقر على ما هو عليه الآن. لكن، علينا أن نتنبأ فيما إذا كانت تلك الحياة مبنية على أزواج المورثات الأربعة المكونة للـ(DNA)، كما في الحالة الحياتية على سطح الأرض. إنه من المثير فعلاً التأمّل في مملكة الحيوان ومحاولة إحصاء أشكال الحياة التي تطوّرت بالفعل من أسلاف مشتركة. مثلاً، العين تطوّرت لأشكال وأغراض متعددة. الأذن على سبيل المثال فقد تطوّرت بأشكال وأغراض متعددة جداً، بينما المتحسسات السونارية (مثل ما يمتلك الوطواط، أو الحوت) قد تطوّرت إلى أربعة أشكال رئيسية فقط. والذكاء واللغة تطوّرت لنجدها فقط عند الإنسان. هذا التطوّر سيخبرك بما يمكن أن تجده في مخلوقات أخرى حول الكون فيما لو حدث وأن تواصلنا معها، إلّا أن ذلك غير محتمل كما أسلفنا بسبب ترامي أطراف هذا الكون الشاسع.

(6)

دوكنز على قناة الجزيرة

هل يمثل الدين قوة للخير أم إنه أصل الشرور؟

أجرى المقابلة الإعلامي مهدي حسن، مقدم البرامج في قناة الجزيرة باللغة الإنكليزية. وبثّه في تموز 2013.

* * *

مهدي حسن: قبل أن أخوض في أي شيء، أريد ان أتأكد من صفة ما، هل تسمّي نفسك ملحداً (لادينياً)؟

د. ريتشارد دوكنز: لأسباب عملية، أجيبك بـنعم، أنا ملحد. لا أحد في الواقع يستطيع أن يؤكد ويقول بأنه متأكد تماماً من أن شيئاً غير موجود. لكني ملحد بنفس الطريقة التي أؤمن بها بأنه لا وجود للكائنات الفضائية، أو الشخصيات الخيالية، التي تقصها علينا الخرافات الدينية.

مهدي حسن: إذن أنت لست متأكداً بنسبة 100% من عدم وجود إله، لكنك عملياً متأكد بما يكفي لاطمئنانك.

د. ريتشارد دوكنز: أنا متأكد بالنسبة نفسها التي أنت متأكد بها من عدم وجود العفاريت والجن.

مهدي حسن: وهل ترى ربطاً متساوياً بين فكرة عدم وجود الله، وفكرة عدم وجود العفاريت والكائنات الخرافية؟

د. ريتشارد دوكنز: إن الأدلة على عدم وجودهما ضعيفة بالنسبة نفسها.

مهدي حسن: أنت تقول في كتابك (وهم الإله)، وهذا مقطعي المفضل منه: «إن الإله المذكور في العهد القديم، هو إله متنمّر، مثير للشفقة، غير عادل بشكل استثنائي، غير متسامح ومحبّ للسلطة. غير متسامح مع المثليين، وهو عنصري وائد للبنات، مصاب بجنون العظمة، فيه ما يكفي من الصفات المازوخية، وهو مزاجي متقلّب، يرتكب القتل الجماعي ببساطة». هذا الوصف كقطعة بلاغية يبدو رائعاً، لكن هل أنت بالفعل تؤمن بذلك؟

د. ريتشارد دوكنز: طبعاً أهنئك على لفظ كلمة (مصاب بجنون العظمة Megalomaniacal) بشكل صحيح، فمعظم الناس يلفظونها بشكل متلعثم. نعم ففي الواقع لو كنتَ قد قرأت العهد القديم كنت ستوافقني على هذا التوصيف. إنه أمر مخز، ببساطة فإن الإله الموصوف في العهد القديم ليس سوى وحش.

مهدي حسن: وماذا عن إله العهد الجديد وإله الهندوس والقرآن؟

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة لا أعرف الكثير عن الإله المذكور في القرآن، لكن الإله المذكور في العهد الجديد يسّوق له على أنه أكثر لطفاً بقليل. ومع هذا، فهناك بعض الأشياء التي أجدها في العهد الجديد أشد بغضاً وأكثر مدعاة للاعتراض والإستفهام مما جرى وصفه في

العهد القديم. لكن التوصيف المشترك للرعب في تصوير الشخصية الإلهية الخيالية، أستطيع أن أقول إنه من أكثر التوصيفات الشخصانية غير المقبولة في تاريخ السرد. بالتأكيد لأني أعتبرها توصيفات خيالية، وسرداً خيالياً وخرافياً بالطبع. نعم هو كذلك، مثلما ذكرت، فهو غيور، عديم الإحساس، وقاس بشكل غير مسبوق.

مهدي حسن: ومع كل ما تقول، فهو إله يقدّسه ويعبده الملايين حول العالم.

د. ريتشارد دوكنز: أتمنى ألا يكون هذا أمراً مفروغاً منه، وأتمنى أن يخضع للتساؤل، وأتمنى أن يكون الإله المعبود واعياً، وأن يعتبر الناس أن هذه القصص لا تمتّ له بصلة، وهي غير صحيحة بحرفيتها. بل إني أشك في أن جميع الناس المؤمنين بما جاء في العهد القديم قد قرؤوه بالفعل، واقتنعوا بما جاء به حرفياً. في الحقيقة على المستوى الشخصي، أولئك ليسوا من الناس الذين أرغب بمعرفتهم، فليس لك أن تتمنى القبول بعبادة إله كالموصوف في العهد القديم. قد نتفهم عبادة إله مبدع خالق للكون، أما الوحش الانتقامي الموصوف في العهد القديم، فلا يستحق العبادة.

مهدي حسن: طيب لماذا تسبغ ذلك الرأي على كلّ الدين، وليس على إله العهد القديم تحديداً؟ أعني أنك تصم الدين كلّه بأنه شر، وليس إلهاً محدداً.

د. ريتشارد دوكنز: لا، لكن...

مهدي حسن: أنت قلت سابقاً لمرّات عدّة إن الدين هو أصل الشرور.

وقلت إن الإيمان هو أحد أعظم شرور العالم، وإنه مثل فايروس يصعب استئصاله.

د. ريتشارد دوكنز: نعم بالفعل هذا ما أعتقده، لأن الإيمان كمفهوم مجرّد يعني ببساطة أن تتقبل شيئاً لا يدعمه الدليل. وحين أقول (دليل) فأنا أعني ما نستخدمه في حياتنا اليومية من منطق. وعملياً، حين تؤمن بشيء لا دليل عليه، فإنك قد تبرر أي شيء، وقد تأتي بأي فعل. وعندها لن تكون مرتاحاً ومرحباً بأي شخص يقول لك: «مرحباً دعني أناقش القضية معك». إن كنت ستؤمن بلا أدلّة، عندها لن تتجادل أو تتناقش في أي قضية تتعلق بإيمانك، وستدعو الآخرين إلى قبولها كما هي، وإنك لن تتراجع عنها، ولن تعيد النظر فيها، برأيي فإن هذا هو الشر بعينه.

مهدي حسن: لكنك حاورت عدداً كبيراً من المؤمنين، ومن الواضح أنهم كانوا مهتمين بالنقاش وليسوا مجرّد مؤمنين بشكل أعمى كما تصف.

د. ريتشارد دوكنز: أكيد أن معظم المؤمنين هم أناس لطفاء مثلك، ويسهل الحوار معهم، أنا لم أقل إن المؤمنين كلّهم من الأشرار، بالتأكيد لا، لكن المشكلة أن الإيمان بعمومه يتسبب بتتابع منطقي في الأداء، يتجه من بداية التصديق واعتناق الإيمان، ثم التصديق بأن الله يأمرك بأن تفعل شيئاً ما، ثم تنتهي إلى فعل أفعال شنيعة. مثل التفجيرات الانتحارية، أو ضرب عمارات شاهقة بها آلاف الناس بواسطة طائرات مليئة بالبشر. وبالتأكيد فإن الأغلبية الساحقة من المؤمنين لا يأتون مثل هذه الأفعال الفظيعة. لكن هناك بالفعل مؤمنون يأتون هذه الأفعال وهم معتقدون بأنهم محقون فيما يفعلون، وأن الله هو من أمرهم

بذلك. في الحقيقة فإنهم يرون أنفسهم بأنهم إرادة الخير، وإنهم إنما يأتون الأعمال الصالحة، ولهذا فإني أقول إن الدين هو الشر، لأنه يجعلك تأتي أفعال الشر وأنت تظنّ في نفسك أنك قد قمت بما هو صواب وما هو إرادة من الله.

مهدي حسن: هل حقيقة تعتقد بأن الانتحاريين إنما يفعلون ذلك انطلاقاً من إيمانهم، وأن الدين هو الملام؟ وأنهم لا ينطلقون من اعتبارات سياسية وحياة شخصية قادتهم إلى مثل ذلك التفكير؟ هل الدين فعل كل ذلك بهذه البساطة؟

د. ريتشارد دوكنز: الدوافع لا تكون متماثلة في الحالات كلها؛ عندنا مثلاً حالات نمور التاميل في سيريلانكا. لكن في معظم الحالات يكون الدين هو الدافع. أما في حالة الانتحاريين الإسلاميين، حين جرى الحديث مع أصحاب المحاولات الفاشلة منهم فإنهم يحملون تصوّرات عن الجنّة التي تنتظرهم في أذهانهم. وهم مُحبطون في هذه الحياة، ويبحثون عن خلاص عبر السعي إلى دخول الجنّة بهذه الطريقة.

مهدي حسن: البروفيسور روبرت بيب (Robert.A.Pape) من جامعة شيكاغو أجرى بحثاً[1] شاملاً ودقيقاً في 315 حالة تفجير انتحارية إرهابية، وتوصّل إلى نتيجة علمية مفادها: «إن هناك ربطاً بسيطاً بين التفجيرات الانتحارية الإرهابية وبين الإسلام المتشدد أو أي دين من الأديان. وإن الدافع الأكبر للعمليات الإرهابية هو المشاعر الوطنية، أي إنّه فعلٌ مرتبط بالوطن والسلطة والسياسة وليس من أجل

(1) Robert. A. Pape, «Daying to win... The Strategic Logic of Suicide Terrorism» Random House _ New york 2005.

الإيمان، فالإيمان هنا هو مجرّد غطاء»، ما الذي تعرفه أنت ولم يتوصّل إليه بحث البروفيسور بيب؟

د. ريتشارد دوكنز: لقد شاهدت أدلّة على أن أناساً آخرين قالوا أشياء مختلفة، وسمعت شهادات من انتحاريين فشلت عملياتهم الانتحارية قالوا إنهم يأتون أفعالهم الانتحارية خصيصاً لأجل أن يدخلوا إلى الجنّة.

مهدي حسن: هل تتضمن تلك الشهادات ما يتعلّق بتفجيرات 7 يوليو/ تموز في لندن؟

د. ريتشارد دوكنز: نعم أظن ذلك.

مهدي حسن: هل رأيت المقابلات مع المتهمين؟

د. ريتشارد دوكنز: لست متأكداً أنني رأيت ما يكفي منها.

مهدي حسن: لقد تكلموا عن أفغانستان، والعراق، والحرب الصليبية، والحرب بين الغرب والإسلام، وتكلموا عن جيوش غازية. كان هناك الكثير من هذه الأمور في كلامهم، أنا لا أقول إن الإيمان ليس مطروحاً كسبب عندهم، لكني مهتم فقط بما تقوله من أن الإيمان هو القضية بالنسبة لهم. أنت قلت في مقالة شهيرة لك بعد أحداث 11 أيلول، قلت إن كل ما حصل إنما بسبب الدين.

د. ريتشارد دوكنز: هناك أسباب ضخمة ومتعددة قد تدفع السلوك البشري إلى ارتكاب مثل هذه الأفعال، ورأينا ذلك في آيرلندا الشمالية، وأفغانستان. كما رأيناه في سيريلانكا في حالة نمور التاميل. نعم هناك أسباب سياسية، لكن لا يمكن أن تنكر أن الوعد بالجنّة للشهداء هو جزء من تعاليم الإسلام. الشهداء يذهبون من فورهم إلى الجنّة. الأساس في اندفاعهم إلى الانتحار الجهادي هو أن هناك من لقّنهم بأن الجنّة تنتظرهم.

مهدي حسن: نعم لكن ليس الإرهابيين والقتلة والمجرمين.

د. ريتشارد دوكنز: نعم لكنهم يظنّون بأنفسهم أنهم «شهداء»، لأنه قد قيل لهم ذلك عن طريق أئمتهم الذين غسلوا أدمغتهم بوضوح.

مهدي حسن: ماذا عن غالبية الأئمة وعلماء المسلمين الذين أدانوا اعتداءات 11 أيلول؟

د. ريتشارد دوكنز: أنا مسرور بأنهم أدانوا هذه الجريمة، لكنهم لم يعطوها ما يكفي من الأهمية، وهناك صمت كبير تجاهها.

مهدي حسن: ماذا عن المجادلة بأن البشر بطبيعتهم يميلون إلى العنف، وأن القتل جزء من الطبيعة البشرية. وهنا يمكنك أن تلوم الدين، أو السياسة، أو الإقتصاد، كلّها كمسببات، فلماذا التركيز على الدين؟ لماذا لا تناقش الأسباب الأخرى من باب العدالة والموضوعية؟

د. ريتشارد دوكنز: ومن أنكر وجود عوامل أخرى؟ لو نظرت إلى تاريخ الحروب ستجد أن البعض منها، لا يرتبط بالأصل بقضيّة الدين، أنا لم أقل ذلك، ولم أقل بأنه المسبب الوحيد.

مهدي حسن: لكنك وافقت أناساً يعدّون من اللادينيين الجدد من أمثال سام هاريس (Sam Haris)، وكريستوفر هيتشينز (Christopher Hitchens)[1]، اللذين وضعا اللائمة على الله والدين في التسبب بالحروب، وقد وضعتَ أفكاراً مشابهة لما وضعوه في كتابك «وهم الإله».

د. ريتشارد دوكنز: نعم يمكن لوم الدين على عدد كبير من الحروب

(1) Christopher Hitchens; The author of «God is Not Greatest»

الفظيعة، لكن أخطر حربين في التاريخ الحديث للبشرية لم يكن للدين من سبب في إشعالهما.

مهدي حسن: إذن، حينما تكون أكبر الحروب لا علاقة لها بالدين، وهي تقع على أسباب أخرى غير الدين، فكيف يمكن أن تساوي بين هذه الأسباب وبين الدين كي تلقي عليها باللائمة؟ أعظم الحروب لم يشعلها المؤمنون.

د. ريتشارد دوكنز: الإيمان العقائدي (الدوغماتي) في فكرة ما، مثل الماركسية، أو الإسلام، أو النازية، أو حتى الوطنية العميقة التي هناك من يتعصّب لها. هذه كلّها عقائد مضرّة قد تدفع الناس إلى ارتكاب جرائم فظيعة وهم يظنّون أنهم يأتون الصواب، ويفعلون الفعل الأصلح لصالح جماعتهم. وكلّنا نتذكر كيف أن النازية الهتلرية كانت تغذّي الصراع بنوع من العنصرية، أو عبر شكل من أشكال الوثنية الوطنية التي تمكّن سفاحٌ مثل هتلر من إحيائها. ومثل ذلك، كانت وحشية ستالين تتغذى من إيمان عقائدي بالماركسية لا يرى في الجريمة إلّا أنها هي الأصلح للجماعة.

مهدي حسن: وماذا عن كونه ملحداً؟ ألا يصح القول بأن إلحاده كان يغذّي هذه النزعة أيضاً؟

د. ريتشارد دوكنز: لقد صادف أن ستالين كان مُلحداً، لكن وحشيته لم تنشأ من إلحاده، بل من إيمانه العميق بتبرير الجريمة التي تمليها الدوغمائية الماركسية بأبشع تفسيراتها.

مهدي حسن: هل تقول بأن الاتحاد السوفياتي لم يُبنى على العقلية العلمية المادية، والقضاء على مكانة الدين والإله في جوهر المجتمع؟

د. ريتشارد دوكنز: ستالين اضطهد الكنيسة وكل شيء آخر تقريباً، بل تحوّل بنفسه إلى إله الأمر الواقع.

مهدي حسن: هل تقول بأن قادة الاتحاد السوفياتي لم يكونوا مدفوعين ومنطلقين من حقدهم على الدين؟

د. ريتشارد دوكنز: العلم والمادية، والتقدم البشري هي مصطلحات أتت من الفكر الماركسي ووردت في أدبياته، لكن من الواضح أنها عانت من استخدام سيء.

مهدي حسن: حينما احتل ماو تسي تونغ التيبت، قال للدلاي لاما «إن الدين هو السمّ». وهي الإشارة نفسها التي استخدمها الكاتب اللاديني كريستوفر هيتشينز حينما قال إن الدين يسمم كل شيء، هل يمكنك أن توجه اللائمة إلى المؤمنين حينما يقولون لك إننا سمعنا مثل هذه الأطروحات سابقاً وإنها تقود إلى اتجاه واحد لا غير؟

د. ريتشارد دوكنز: دعني أقل لك، إن المصادفة وحدها هي التي جعلت ماو تسي تونغ وستالين من الملحدين. لا أعلم ما علاقة الإلحاد بذلك. ليس لنا أن نساند بروبوغاندا إلحادية ذات دوافع تسلطية وتهدف إلى الهيمنة واستعباد الناس، إنني أساند العلم والحقيقة المتأتية من العلم والبحث العلمي، الحقيقة التي يمكن برهنتها.

مهدي حسن: لكنّك تساهم في نشر الإلحاد.

د. ريتشارد دوكنز: لا، أنا أساهم في نشر العقلانية المعتمدة على العلم، وإذا صادف أن ذلك سيتسبب في الإلحاد في النهاية فلا مانع عندي بل إنني أدعمه. ليس في نيّتي أن أجبر الناس على أن يكونوا

ملحدين (ربما هذا ما فعلته الشيوعية الدكتاتورية)، ولا علاقة لي بما فعلته الدكتاتوريات من هذا النوع، أنا أدعو فقط إلى تفكير عقلاني واقعي يستند إلى العلم، بالضبط مثلما نستند إلى كل شيء آخر في حياتنا.

مهدي حسن: لكنك ترغب في إقناع الناس أن يكونوا ملحدين.

د. ريتشارد دوكنز: أنا أرغب في نشر الوعي والإدراك وفقاً لخطوات الحضارة الإنسانية التي تتقدم، ووفقاً للجدل المنطقي المدعوم بالأدلة العقلية، التي يقبلها العقل ولا تسخر من قدراته.

مهدي حسن: في كتاباتك نجد أنك سعيت وراء عدد كبير من الأدلّة التي تسيء للدين، فهل يمكن لك أن تكون عادلاً وتأتي على ذكر بعض الأشياء المحمودة التي أنتجها الدين أيضاً؟

د. ريتشارد دوكنز: انظر، أنا أميل إلى الحقائق المبنية على الكشف والبحث العلميين، ولا أكترث كثيراً لما هو سيء أو جيد، أبحث عن الحقيقة فقط. وأنت من خلال إيمانك بأنك مسلم، هل تؤمن حقّاً بأن النبي محمد قد شقّ القمر إلى نصفين؟ هل تؤمن بالفعل بأن محمد طار إلى الفضاء على ظهر حصان مجنّح؟ أنا قد أجاملك وأفترض بأنّك لا تصدّق كل هذا.

مهدي حسن: لكنّي بالفعل أؤمن بهذا.

د. ريتشارد دوكنز: هل فعلاً تؤمن بهذه الأشياء؟

مهدي حسن: دعنا نقلها بهذا الشكل، أنا أؤمن بالله، وأؤمن بالمعجزات، لكن نقطة الحوار هنا، فلنفترض بأنني مخطئ.

د. ريتشارد دوكنز: نعم، ساعدني بهذا الافتراض!

مهدي حسن: حسناً، لنفترض، وأنا سعيد بهذا الافتراض، ولنفترض

عدم وجود الله ولنفترض بأننا كلّنا مجانين. لكن القضية هي أننا موجودون بالفعل، وأظن أن كريستوفر هيتشينز هو الذي قال بأننا لن نختفي، وسؤالي هنا؛ لماذا لا نقبل بأن الدين قد صنع أشياء جيدة؟ بصرف النظر عن الإيمان بالمعجزات.

د. ريتشارد دوكنز: أنا أقبل الفكرة التي تقول بأن أشخاصاً متدينين معينين كانوا من فعلة الخير، مارتن لوثر كنغ على سبيل المثال، فمن الواضح للجميع بأنه كان رجل دين. وكان يحمل إعجاباً خاصاً بفلسفة غاندي، وكان من دعاة السلم المجتمعي والمساواة، بالتأكيد كان رجلاً عظيماً.

مهدي حسن: هل أنت تفصل هنا بين عظمة ما أنجزه غاندي أو مارتن لوثر كينغ، وبين كونهم رجالاً متدينين؟ هم أنفسهم لم يفصلوا بين الحالتين.

د. ريتشارد دوكنز: إن لم يكن الله موجوداً، فيغدو عمل الفعل الصالح باسمه شيئاً حسناً، لكنه أمر لا يغير من الحقيقة بعدم وجوده، حاول أن تفصل بين المفهومين أو الحدثين. ليس هناك دليل واحد على أن إيمانك بالله سيجعل منك فاعلاً للأعمال الصالحة بالضرورة. أنا أهتم بما هو حقيقي، وعليك أن تعي بأنني مشتغل في حقل العلم، وأريد من الناس أن يفهموا بصورة علمية سببية معالم الكون الذي يعيشون فيه، ونمط نشوء الحياة فيه، هذا حقيقة ما أنا مهتم به. أما الدين فهو عامل إلهاء وتعطيل لهذا المنهج، وفي أحيان كثيرة يتحول إلى عامل ضار تماماً ومضاد تماماً للحقيقة المستقاة عبر السببية العلمية. هذه الحقيقة أنا أحبها وأقدّرها كما تقدّر أنت إلهك.

مهدي حسن: ألا يمكننا حيازة الاثنين، أعني المنصّة العلمية والبقاء على عبادة الإله؟

د. ريتشارد دوكنز: طالما لا يتعارضان فهذا ممكن، لكن إذا كنت بالفعل مؤمناً بأن محمد قد طار إلى السماء عبر امتطاء حصان بجناحين، فهذا إيمان مضاد للعلم. وهنا توجب عليك أن تحوز على منهجين من الإدراك الإنساني، الأول يؤمن بالسببية العلمية لتفهم بواسطته كيف يسير العالم من حولك، ولتفهم الطريقة التي تعمل بها الاختراعات الحديثة وكل شيء من حولك. والثاني، منهج خرافي يؤمن بالخرافة ويكسر قواعد وقوانين الطبيعة، وهو الذي سيفسّر لك الحصان ذا الجناحين.

مهدي حسن: ويمكن أن يكون هذا الحصان غير موجود، فكيف لك أن تبرهن على نفيه؟

د. ريتشارد دوكنز: يا عزيزي أن تعيش في القرن الواحد والعشرين، أرجو منك أن تتبصر في معلوماتك. دعني أسأل؛ لماذا طار إلى الأعلى؟ كيف افترضت الأسطورة بأنه طار إلى الأعلى؟ وإن لم يكن إلى الأعلى فلماذا احتاج إلى حصان له جناحان؟ فلا تستكثر عليّ اندهاشي حين أرى صحفياً من الصف الأول ولامعاً مثلك يؤمن بإمكانية حدوث هذا.

مهدي حسن: طيب، هل تعتبر أن كل الناس المؤمنين بالآلهة أو بالمعجزات أو بالماورائيات هم أدنى منك فكرياً؟

د. ريتشارد دوكنز: أعتقد بأن معتقداتهم هي ليست أكثر من هراء فكري، وهم كأشخاص ليسوا أدنى منّي. لأن العديد منهم ليسوا كذلك. لو عدتَ قليلاً إلى التاريخ لوجدتَ أنه ليس من المستغرب أن يكون

الناس مؤمنين بشيء قبل عصر داروين على سبيل المثال ولم يعودوا يؤمنون به الآن. هناك العديد من العلماء اليوم الذين يقولون عن أنفسهم بأنهم متدينون، ولو سألتهم عن تفصيل هذا الإيمان ستجد أنهم يؤمنون بنوع ما من الربوبية، أو لنسمّه الروح المصممة الكلّية الشمولية، أو الذكاء الخلّاق الذي هو مسؤول عن تصميم الكون وفقاً لقوانين الفيزياء والرياضيات الدقيقة. أو أي شيء من هذا القبيل.

مهدي حسن: في كتابك كتبت شيئاً عن التحرّش الجنسي بالأطفال، وقلت إن أساس التربية الكاثوليكية وإقناع الطفل بأنه كاثوليكي هو أمر أسوأ من التحرّش الجنسي الذي ضربت له مثالاً من أحد القساوسة وحادثته المعروفة. هل حقاً ترى بأن التربية الكاثوليكية هي الأسوأ؟

د. ريتشارد دوكنز: إن الأمر يبدو لي على هذا النحو؛ إن إخبار الأطفال بأن الناس الآخرين من البروتستانت سيخلّدون في الجحيم بعد موتهم لأنهم (بروتستانتيو المذهب!) يعد أكثر ضرراً من تحرّش جنسي يتعرّض له الطفل في طفولته. إن تبنّي موقف عن الأغيار يعادل تسميم الحياة بأكملها، بينما يمكن لحادثة التحرّش أن تمضي وفق علاج عقلاني وسريري نفسي. إخبار الأطفال عن الأغيار من مخالفي المذهب أو الدين، وتحميلهم مثل هذه القناعات إنما يبدو لي تماماً كشيء أسوأ من التحرّش، إنها فكرة ستلازمهم طوال حياتهم وسيكونون متبنين وناشرين لها. دعني هنا أوضح لك، ليس من واجب العلم أن يحدد للناس ما هو الصواب وما هو الخطأ، العلم والبحث العلمي يبحثان عن الحقيقة، أصل نشوء الأشياء وطريقة عمل القوانين، هذه هي الحقيقة. لكن، إن واجهتنا أسئلة لا يستطيع العلم أن يجيب عليها أو إنه لم يجب عنها لحد

الآن، فيتوجب علينا أن نتابع البحث في الطرق العلمية التي يمكن ربطها بالسببية العقلية. وبالتأكيد لن يتمكن الدين من الإجابة عن كل شيء، أعني في الحقيقة إن الأديان حاولت أن تقدم إجابات، لكنها في النهاية وصلت إلى طريق مسدود يتضارب مع أبسط القواعد العقلانية التي يؤسس لها العلم، والتي ندير بها حياتنا اليومية فعلياً.

مهدي حسن: وما الخطأ في أن يطرح الدين وجهة نظر في قضايا تقول عنها إن العلم لا يبتّ فيها؟ وطالما أن العلم لا يجيب عن أسئلة ذات طابع أخلاقي أو روحاني؟

د. ريتشارد دوكنز: العلم لا يمكن له أن يطرح قضايا أخلاقية ويقطع في الإجابة عنها، لكني متأكد بأن الدين أيضاً ليست له القدرة على وضع مثل هكذا إجابات تحت تصرفنا، ولو حدث وأن قدم لنا الدين إجابات من هذا النوع فسيكون الأمر بلا إثبات، أي إنه سيجيب بطريقة لا يمكن إثباتها وبالتالي من الصعب منطقياً أن نقبل بما يطرحه الدين ونقيّمه على إنه «إجابة».

مهدي حسن: أنت لا ترى بأن القيم الأخلاقية التي يعلي الإنسان من شأنها اليوم إنما تنبع من تعاليم دينية مسيحية أو إسلامية أو هندوسية بالأصل؟

د. ريتشارد دوكنز: لا، لا أظن ذلك. فهناك قواعد أخلاقية ذهبية؛ مثل الدعوة إلى معاملة الآخرين كما تحب أنت أن تلقى من معاملة، هذه قيم قديمة وقد تم تبنيها من قبل عدّة أديان، حتى الأديان الوثنية التي لا يرى المسلمون أو المسيحيون أو اليهود أنها على صلة بإلههم، فقد كانت وما زالت لديها قيم أخلاقية تشبه إلى حد كبير القيم التي تبنتها الديانات

التي تحدثت عنها. وعلى فكرة، فهذه القيم الأخلاقية، يمكن أن تجد لها تبريراً في فلسفة الأخلاق، ويمكن أن تجد لها أصلاً في منظومات التطوّر الجيني الأحيائي وهذا الأمر من صلب اختصاصي العلمي، وفي الحقيقة أتمنى ألّا تأخذ قيمك من نصوص الكتب المقدّسة لأنك إن فعلت فستجد نفسك مضطراً أن تتبنى قيماً فظيعة في الوقت نفسه؛ قيماً لا يمكن تفسيرها بالمصلحة أو بالمنفعة العلمية. إلّا إذا عمدت إلى تنفيذ نوع من التصفية والغربلة لهذه القيم، وأن تقتطع جزءاً منها قد يبدو مفيداً وفقاً للمبادئ الأخلاقية العامة المتبناة من الإنسانية. ومعظم هذه الأجزاء من النصوص الدينية ستبدو متعارضة تماماً مع القيم العصرية والحداثوية التي تعلي من شأنها الحضارة.

مهدي حسن: وماذا عن الأشياء الفظيعة التي قدّمها العلم، الأسلحة النووية مثلاً، أو استخدام الغازات في القتل؟

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة هذه هي التكنولوجيا التي أنتجها العِلم، وهي تطرح لنا مفهوماً واضحاً عن دور العِلم، فأفضل طريقة لأداء المطلوب تنفيذه هو العِلم واتباع طرق التكنولوجيا، حتى في القتل، وحتى في الأفعال السيئة التي تعارض المنظومة الأخلاقية الإنسانية، فإن أفضل الطرق لإنجاز أي شيء هي الطرق العِلمية وليس غيرها. أعني أنك لا تمتك دليلاً على أن أي شيء غير الطرق العِلمية يمكن أن ينجز الأشياء بأفضل من التكنولوجيا.

مهدي حسن: هل يصح هذا حتى عندما نجد أن بعضاً من أهم العلماء إنما هم مؤمنون ربوبيون في حقيقتهم وفي حياتهم الخاصة؟

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة هذا أمر محيّر، فهم عملياً يتركون

معتقداتهم الدينية خارج مختبراتهم ويدخلون إلى المختبرات من أجل العمل وفقاً لمعطيات علمية فقط. الدين هنا قد يقدم شيئاً، فمثلاً لو كنت تحتضر فقد يقدم لك الإيمان والمعتقدات راحة نفسية وإعفاءً عقلياً عبر مساعدتك في تعليق الأمور على قوّة مجهولة أكبر وأقوى منك، لكنك ستواصل مع ذلك طلب العلاج (المعدّ بالطرق العلمية التي لم تدخل الروحانيات فيها). ولو فقدت عزيزاً فستتمنى يوماً أن تراه في الجنّة، الدين يزودك بهذا الخيال، لكنه لا يجعل منه حقيقة على الإطلاق.

مهدي حسن: أود أن أعرف ما قولك هنا؛ هناك من يعتقد بأنك تعلن العِلم كدين جديد، وأنت ومعك آخرون تدعون له وتروجون للتثقيف بقوّته.

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة لا أسمّيه ديناً جديداً، إن العلم يقوم بالفعل بمحاولة للإجابة عمّا سبق للدين أن حاول الإجابة عنه. مثال ذلك محاولة الإجابة عن الأسئلة العميقة عن الوجود، وهو يحقق تقدماً في هذا، على العكس من الدين الذي كشفت الحقائق العِلمية أن ما طرحه على مدى آلاف السنين ليس له أساس منطقي واحد، وليس له شاهد مادي واحد على وجه الأرض. لا يمكن تسمية هذا الاعتناق بـ(دين) لأنه لا يعتمد على مقدّس، ولا يركن إلى نصوص مقدسة غير قابلة للإثبات. كما لا يعتمد على التقاليد أو الإيمان، وهذا فرق كبير بالتأكيد.

مهدي حسن: وماذا لو ظهر لك دليل مرئي على صحة طرح الربوبيين بوجود إله؟

د. ريتشارد دوكنز: بما أنني مشتغل في حقل العلم، فلا يتوجب عليّ أن أومن بما أراه قبل أن أجد تفسيراً علمياً له، ولو افترضنا أن الربوبيين صحّت فرضيتهم عن الإله، فهنا وجب عليّ أن أتقصى دليلاً علمياً وأن

أشتغل في هذا السبيل، بالتأكيد سأكون مضطراً لتغيير وجهة نظري في حال ظهور دليل. ومن الأسئلة المهمة التي ناقشتها مع زملائي: كيف سيكون شكل هذا الدليل برأيكم؟ لكن هل سبق لك أن شاهدت خدعة بصرية وقلت لنفسك: «إن هذا شيء معجز!»، ولكنك تعلم أنها ليست خدعة بالمرّة، انظر إلى سَحرة السيرك أو البرامج التلفزيونية وهم يقطعون فتاة إلى نصفين ويثيرون عجب المشاهدين، ويدفعون المشاهدين إلى التصفيق والصفير والصياح، لكنك بالنهاية تعلم إنها ليست سوى خدعة بصرية أو إيحائية، وبالتالي حتى «تؤمن» بأن الفتاة الجميلة قد شقّها الساحر إلى نصفين توجّب عليك أن تبحث عن دليل عِلمي، عِلم يفسر كيف أن الإنسان يمكن أن يفقد نصف جسمه وهو يلوّح للجمهور. هذه لا تسمّى أدلّة إنّها الإيهام بعينه.

مهدي حسن: مثالك عن اللاهوتيين أو الربوبيين يحيلهم إلى شكل من أشكال الجمود الفكري، لكنّهم في الواقع مولعون بالجدل والمناظرة ومحاولة إثبات وجهة نظرهم، وربما لديهم أدلّتهم الاعتبارية التي لا تقيم أنت لها وزناً.

د. ريتشارد دوكنز: بالتأكيد سأكون بعيداً عن الحقيقة لو قلت بأن اللاهوتيين أو المؤمنين بدين ما لا يجادلون، لقد جادلوا ودافعوا عن إيمانهم بالجدل بشكل مفرط، بل إنهم خاضوا حروباً من الجدل. وحين تقول بأنهم خاضوا جدالات مثيرة فإني أفهم من هذا أنك تقف إلى جانب أحدهم في هذه الجدالات. في موضوع التحول، هل فعلاً أن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد شخص يهودي من القرن الأول، أم إن القصة مجازية التعابير ورمزية في محتوياتها؟ لكن، ما هو شكل

الدليل الذي نريد أن نقدمه في جدال كهذا؟ في الحقيقة فإن ذلك لن يكون «جدالاً» حقيقياً أبداً. أقصد أنه لن يكون جدالاً تستخلص منها الحقائق بقدر الأدلة الدالة عليها.

عندما ضربت مثلاً عن حب الزوجة والشعور به على سبيل المثال، فإنك قد تشعر بهذا من خلال كلماتها أو تصرفاتها أو نظراتها إلى عينيك. وهناك من طرح أن المؤمنين إنما يشعرون بالطريقة نفسها بوجود الله. لكن المسألة تكمن في أنهم لا يحصلون على أي مؤشرات في مقابل شعورهم، لا توجد أي مؤشرات يمكن ربطها بالمباشر مع المشاعر التي يشعرون بها تجاه آلهتهم. ببساطة لأن ما يخاطبونه من إله إنما هو شيء في داخلهم قبل أن يلتمسوا إليه أي طريق حقيقي.

مهدي حسن: أنت قلت بأن الدين يدفع المؤمنين وبالأخص المسلمين إلى ارتداء أحزمة ناسفة وتفجير أنفسهم وسط المخالفين لهم، لكن هناك ما يزيد عن مليار مسلم في العالم لا يفعلون ذلك، بل ربما يؤمنون بأن من قتل نفساً كأنما قتل الناس جميعاً. فلماذا لم يجعل الإيمان هؤلاء كلهم يتحولون إلى انتحاريين كما تبرر أنت؟

د. ريتشارد دوكنز: المشكلة مع الكتب المقدسة هي ذاتها مع القرآن، وهو ليس استثناء. حيث تجد أن آية معيّنة تقول وتفرض شيئاً ما بينما تجد آية أخرى تنفيه. وعلى هذا الاساس يتحتم عليك القرار بين الاختيارين. ما أقوله هنا، هو أنك لا يجب أن تضع نفسك في موقع يحتم عليك الخيار بين اختيارين بينما لا تعقل أياً منها. أي ألّا تعتمد حياتك على كتاب مقدس يحتوي من التناقضات ما يحتوي، تختار آية تفيد في توجيهك باتجاه فكرة بينما تترك آية أخرى تفيد بأن تتفادى

الفكرة الأولى. أليس حدّ الردّة عن الدين أو الخروج عن الدين هو جريمة عقوبتها القتل؟

مهدي حسن: لا، والقرآن لا يقول ذلك. لكن بعض الفقهاء المسلمين يقولون به، وهو أمر قيد النقاش منذ قرون. لكن دعني أسألك، كيف تنظر إلى التدخل الديني من قبل المسلمين والمسيحيين في الحياة العامة السياسية واليومية لجميع البشر؟ (هذا سؤال من الجمهور).

د. ريتشارد دوكنز: أنا أرى بأن الناس يجب أن يكونوا أحراراً في التعبير عن آرائهم. وإذا كان أعضاء البرلمان مثلاً متأثرين بخلفيتهم الدينية حين يعرضون أفكارهم، فهذا أمر مقبول أخلاقياً، لأنها من ضمن حقهم في حرية التعبير. لكن ما أسجّل اعتراضي عليه، هو أن يكون للدين امتياز خاص في طرح الفكرة، فتصبح الأفكار المستندة إليه أفكاراً مقدّسة لا يجوز الرد عليها أو تفنيدها أو مناقشتها. فلو تلوت في البرلمان خطاباً عن الإجهاض مثلاً، وانطلقت فيه من منطلقات دينية في نقض إجراء وحق الإجهاض، فهذا أمر لا يجب أن نتسامح به. لأنه ببساطة ينقض حق الآخرين في إبداء الرأي والذهاب إلى التصويت.

* * *

في النهاية أريد أن أقول إن رؤية نوعاً أنانياً من الجينات وهو يتحكّم بحياتنا، أنا أعتبره أمراً غير مقبول. وهو سيدفعنا إلى نظرة بغيضة جداً للحياة، وهذا ما سبق أن كتبت عنه. وإذا اتبعنا عقيدة «الجين الأناني» وطبقناها في أمور معيشتنا، فسيكون العالم على أساسها مكاناً سيئاً للغاية. سيكون عالماً «ثاتشرياً» بامتياز! في الحقيقة فأنا أقف بالضد من الداروينية بقوّة حينما يتعلّق الأمر بترتيب حياتنا. نعم سيكون العالم مكاناً

أفضل لو أزحنا الأديان عن طريق اختياراتنا للحياة التي نريدها. لنتذكر أنه لم يكن الدين هو من خلصنا من الجينات الأنانية، إنها الحضارة والقبول بفكرة التعايش والاختلاط والاطلاع على التنوع. أعتقد بأننا نجونا عن طريق عملية معقّدة وبطيئة من الحضارة والتحضر، والإدراك بأن مستقبل البقاء يكمن في التحضر، لا في اتّباع الجينات الأنانية التي تم قمعها واصطفاء مضاداتها عبر هذه العملية البطيئة والطويلة من التحضر. لم يلعب الدين دون أدنى شك أي دور إيجابي في عملية الاصطفاء الطويلة هذه، بل إنه في أحيان كثيرة أثبت تلازمه الوجودي مع الجينات الأنانية المتحكمة بالغريزة المضادة في توجهها للعقل المتحضر.

هناك من يطرح الآن نظرية الأكوان المتعددة، وهي نظرية فيها شيء من الداروِنية نوعاً ما؛ أختصرها لكم بأنها افتراض بأن هناك مليارات الأكوان المختلفة في الكون نفسه، ولكل منها ترتيبه الفيزيائي الأزلي القائم على توازناته الخاصة به. ومن بين هذه الأكوان (التي لا يشترط فيها الوجود الفيزيائي كحالة مختصّة) تمكن كوننا من ترتيب نفسه لينشأ ما نسميه الآن بـ(الكون)، وهذا الأخير تطوّر من الانفجار العظيم الذي تزداد القناعة بحدوثه مع كل اكتشاف عِلمي جديد. ثم تطوّر الكون لننشأ نحن في لحظة توافقية خدمتها قدرات الفيزياء والكيمياء المتاحة. لا يمكن لنا أن نقارن بين نشوء الكون من العدم وبين انبثاقه بإرادة إلهية كما يريد المؤمنون أن يخبرونا وينهوا كل أصول الكشوفات الكونية والعلمية. لا يمكن ببساطة نقض الفيزياء بواسطة حدس يتحدث عن فرضية لا تستطيع تفسير ما نلمسه من حقائق فيزيائية وقاعدة بيانات تتراكم لدينا نتيجة الكشوفات العلمية (التي هي

أبعد ما تكون عن وصفها بالخرافة). إن القول بأننا عالقون مع عقيدة الدين وتفسيراته إلى الأبد ولا سبيل إلى الخلاص منها، إنما هو عقيدة اليأس بعينها. الأديان الرومانية واليونانية القديمة وأديان الفايكنغ كلها ماتت ولم يعد هناك أحد يعبد جوبيتير أو ثوور إله الرعد. وأنا لديّ أمل بأن إله إبراهيم لن يُعبد في وقت ما في هذا العالم. سمعت طروحات كثيرة من قبل حول حاجة الإنسان إلى طقوس دينية، وأن الناس تحتاج إلى مكان للتعبد الروحاني. يلتقون ويتبادلون الشراكة في الجانب الإيماني من حياتهم، هذه سمعتها سابقاً. في الحقيقة لا أرى حاجة أن نناقش هذا الاختيار إلّا إذا رأينا أن هناك فجوة نفسية في الأصل، وهذا أمر لا أرى دلائل عليه على الإطلاق.

(7)

حوار تشارلستون

هذا نص حوار أجراه د. ريتشارد دوكنز مع د. جون هادلستون (John Huddleston)، وهو أستاذ الدراسات العبرية وتاريخ الشرق الأدنى في كلية تشارلستون (College of Chrleston) في ولاية كارولاينا الجنوبية بالولايات المتحدة. نال الدكتوراه من جامعة أوهايو في الأدب المقارن والموسيقى التاريخية للشرق الأدنى. له كتاب «مصر القديمة وإسرائيل، الثقافة والنص التوراتي». وكتاب «ناخوم، في النص التوراتي... دراسة تاريخية في الميثولوجيا العبرية».

أجري الحوار في آذار 2013.

***

د. ريتشارد دوكنز: من دواعي سروري أن أتحدث اليوم للبروفيسور جون هادلستون، أستاذ الدراسات العِبرية والأديان في كلية تشارلستون. أريد منك في البداية أن تبيّن لي شيئاً في الكتاب المقدّس طالما فتنني وأغراني بالبحث في أصوله. كلّنا اطلعنا على (سفر التكوين) وقصّة الخلق الأول وفقاً للرواية اليهودية، ووفقاً للأسطورة العبرية، ونعرف

أن هذا السِفر ليس سِفراً تاريخياً، كما إنه ليس تدويناً على خط التاريخ، لكن ماذا عن باقي ما هو مذكور في السِفر؟ ماذا عن إبراهيم؟ هل كان هناك حقاً شخص على خط التاريخ بهذا الاسم ولعب هذا الدور كما هو مذكور في العهد القديم؟

د.جون هادلستون: من المُحتمل ألّا يكون موجوداً. لو أمعنت النظر في سِفر التكوين، والذي يشبه إلى حد ما تأريخاً عائلياً، ولو واصلت القراءة فيه حتى تصل إلى سِفر الخروج، فستجد أن الدلائل التاريخية أو الاستكشافية والتنقيبية التي تراكمت خلال القرون الأخيرة لا تدعم الأحداث التي يقصّها علينا هذان السفران.

د. ريتشارد دوكنز: يعني لم يكن هناك أَسْرٌ واستعباد لليهود في مصر مثلاً؟

د.جون هادلستون: ليس هناك من دلائل تاريخية آثارية وجدت في مصر تدلّ على أن ذلك الأسر أو الاستعباد قد حدث بالفعل. الدليل الوحيد، على الذكر الأول لكلمة (إسرائيل) خارج نص الكتاب المقدّس كان في نص مصري هيروغليفي يعود إلى عام 1200 قبل الميلاد. والنص يذكر أن المصريين انتصروا على أقوام شمالية، ومن بين هذه الأقوام ورد ذكر إسرائيل، ربما كان يشير إلى عشيرة بعينها. لكن هذا الذكر لا يخبرنا أي تفصيل عما يعنيه بكلمة (إسرائيل)، وهو قد يشير ببساطة إلى أناس بعينهم، أو إلى الأرض التي سكنوها. لكن عدا ذلك، ليس لدينا أي دليل مادي أو تاريخي خارج ما هو مذكور في الكتاب المقدّس عن تلك الحقبة.

د. ريتشارد دوكنز: لكن حتى مع هذه الاعتبارات، أجد أن 1200 سنة قبل الميلاد ليست بالفترة السحيقة في القِدم، أليس كذلك؟

د.جون هادلستون: بالتأكيد ليست مدّة سحيقة في القدم في معايير تاريخ الشرق الأدنى، وأمّا المدلولات لمسمّيات من مثل (إبراهيم) و(موسى)، فهي تظهر متأخرة جداً على خط الأحداث، أو على مسرح التدوين.

د. ريتشارد دوكنز: إذن كل ما تتحدث عنه الأساطير اليهودية عن الاستعباد لدى المصريين، وظهور إبراهيم ثم إسحاق ويعقوب ويوسف الذي أخذه المصريون، ثم مجيء موسى بشكل بطولي ليخرجهم من مصر، ونزول موسى من الجبل وهو يحمل الوصايا العشرة، كل هذا لا توجد أدلّة تاريخية تنقيبية تدعمه بالمرّة؟

د.جون هادلستون: لا توجد أدلّة تاريخية على هذا كله، لكنه نقل وتواتر، أما الباحثون عن أدلّة ظرفية فقد اقتصر ما وجدوه لحد الآن على الذكر الوحيد ضمن الحروب المصرية وفي نص مفرد. لهذا، فإن كل ما ذكر عن مصر يعود أيضاً إلى حقبة أقدم من الحقبة التي ظهر فيها الكتاب المقدّس. في ذلك النص نجد لدينا ذكراً لأقوام من الشمال تأتي بين حين وآخر إلى مصر لأسباب مختلفة. صحيح أن بعض الباحثين قد جادلوا بأنه من غير المُستبعد أن تكون هناك مجموعة بشرية صغيرة قد عانت مثلما هو مذكور في الكتاب المقدّس، وكانوا من بين النازحين الموسميين إلى مصر، ربما كان ذلك قبل الميلاد بـ1100 عام. وربما تكون هناك هجرة إلى الجزيرة العربية من قبل مجموعة بشرية محدودة. وهناك قد يكونون التقوا مع مجموعة بشرية أخرى، واشترك الجميع في عبادة هذا الإله (يهوه)، ثم نزحوا بعد ذلك رجوعاً إلى أرض فلسطين شمالاً. وهذه الحركة البشرية مع الوقت كوّنت ما يسمى (إسرائيل)، والمقصود هنا الشعب المتسمّي بهذه التسمية.

د. ريتشارد دوكنز: أريد أن أعود إلى هذه التفصيلة، بالتأكيد كانت اليهودية ديانة توحيدية، وبعدها جاءت كل من الديانتين المسيحية والإسلامية واقتبستا منها التوحيد والإله. لكن أتساءل هنا، كيف نشأ الأمر؟ هل كان ذلك إلهاً لقبيلة محددة ثم جرى توارث الأمر أم ماذا؟

د.جون هادلستون: علينا أن نفرّق في استخدامنا للتسميات والدلالات، فاليهودية (حين نتكلم عن اليهود)، هي أمر مختلف تماماً عن ديانة (بني إسرائيل) التي نتحدث عنها هنا تاريخياً. لكن للإجابة عن سؤالك بخصوص التوحيد، فهو أمر قد ظهر متأخراً على خط التاريخ. وعرفنا عنه فقط من خلال النصوص المقدسة. وهو يتزامن مع عصر السبي الأول، وربما يعود إلى الفترة المقاربة جداً للوقت الذي جرى فيه السبي إلى بابل. وهو أمر قد حدث في حدود القرن السادس قبل الميلاد. هذه هي الفترة التاريخية التي نجد فيها ذكراً لهذا الإله دوناً عن غيره. وتحديداً يعود الذكر الأول في النصوص لإله التوحيد إلى ما يقرب من عام 535 قبل الميلاد.

د. ريتشارد دوكنز: إذن، الديانة التوحيدية، ليست قديمة جداً في التاريخ اليهودي وحتى في التاريخ الإنساني.

د.جون هادلستون: نعم، لكن قبل ذلك كان لديهم إله واحد مميز يعبدونه، مع وجود ذكر صريح لبقية الآلهة. وحتى هذه المسألة، كانت محط تساؤل، حيث إن الأنبياء (الأنبياء الذين يذكرهم التاريخ اليهودي) كانوا يمارسون بالفعل العبادة لعدد من الآلهة. إننا نعرف هذا من خارج النص التوراتي، وقد كانت هناك آلهة تُعبد من قبل قبائل أخرى عاصرت أو زامنت الوجود اليهودي. ومن خلال الأدلة التنقيبية، كان واضحاً أن

هناك نوعاً من العبادة المشتركة لإله اليهود (يهوه)، وفي الوقت نفسه لم ينحسر التقديس لباقي الآلهة الأخرى ذوات الاختصاص. وقد عثر على نص مهم للغاية في جرّة كبيرة تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وهو يشير بوضوح إلى (يهوه) و(عشيره)[1]

وعشيره هي إلهة الكنعانيين، وكان ذلك النص يشير إلى عبادة يهوه باعتباره الإله الذكر السيّد، وعبادة عشيره على أنها زوجته الإلهة. وهناك الكثير من الأدلة التنقيبية التي نقلت لنا ماديّاً معلومات كثيرة عن هذه العبادة. طبعاً لن تر هذا أبداً في نص الكتاب المقدس، فالعهدان القديم والجديد، يقدمان ما يشبه (التاريخ الرسمي)، بالطريقة التي (ينبغي) أن يكون عليها التاريخ، لا بالطريقة التي حدث فيها فعلاً. سنجد في الآثار المكتوبة قصصاً وتفاصيل عن العبادة على مستوى العائلة، وعلى مستوى الأفراد، وعلى مستوى المجتمعات بطريقة لا تمت بصلة إلى ما هو مذكور في الكتاب المقدس.

د. ريتشارد دوكنز: وماذا عن الملك داوود، هل هو شخصية تاريخية سبق أن وُجدت بالفعل؟

د. جون هادلستون: ليس لدينا أي أدلّة تشير إلى ظهور داوود في

---

(1) عشيره (Asherah)، وبالعبرية: أستير، في الأساطير السامية هي الآلهة الأم و«ملكة السماء» إيلات، وهي ذاتها إلهة مدينة أوغاريت ورأس الثالوث الإلهي الأنثوي فيها، الذي يتكون من عشيره وعناة وعشتار. وفي التاريخ السومري هي زوجة الإله آنو، ربة خصب الطبيعة والإنسان لأول مرة مع ظهور الأموريين الساميين في بلاد الشام في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك بصيغة «أشراتو» التي كانت زوجة للإله آمورو. ويبدو أن مخيلة الإنسان (ما قبل الديانة التوحيدية) لم تكن تستسيغ وجود إله قادر قوي جبار، دون أن تكون له زوجة تمتاز ببعض صفاته.

القرن العاشر قبل الميلاد، كما أنه لم تتوفر أي أدلّة على حكم داوود وابنه سليمان في أورشليم؛ التي من المفترض أنها كانت عاصمة لامبراطوريتهم. لكننا لا يمكن ببساطة أن نقول إن داوود وابنه سليمان لم يكونا موجودين على ظهر التاريخ، فمن الممكن أن يكون هناك شخصان بالفعل قد ظهرا بهذه الصفة في تاريخ اليهودية. ربما يكونان أصحاب ملكية صغيرة على ما أسميه (دويلة) صغيرة في ذلك الوقت. أما الدليل الوحيد على وجود هذين الشخصين (خارج) ما قصه النص في الكتاب المقدّس، فهو ذكر ورد في نص تاريخي آثاري يذكرهم بصيغة (بيت داوود)، وهو يعني بذلك سلالة داوود. عهد هذا النص يعود إلى مائتي عام قبل الميلاد، أما باقي الأدلة المادية والأحفورية فهي لا تحتوي ببساطة على أي تفاصيل من قصّة داوود التي يرويها الكتاب المقدّس. أما ما يثير الدهشة فهي تلك الصّلات الدولية كلها مع باقي الممالك الأخرى، والتي يرويها الكتاب المقدّس، والزواج من بنات الملوك والتصاهر معهم، ومع ذلك فهي أخبار لم تظهر في القراءات التاريخية للآثار. وإننا فعلاً نعلم أن ممالك لاحقة أخرى جاءت بعدهم، ومنها مملكة الشمال[1]، فقد ضمّت سلالات قوية بالفعل، منها سلاسة عِمري، وكان منها من تزوّج من بنات الملوك الآخرين، وكان لهم بالفعل صلات دولية في المنطقة.

د. ريتشارد دوكنز: الآن نعرف بأنه كان هناك مملكة شمالية (مملكة

---

(1) المقصود بمملكة الشمال؛ هي مملكة أفرايم والسامرة. وهي تجمعٌ لعدّة أسباط من بني إسرائيل شمال فلسطين اليوم. ولا يوجد تأكيد تاريخي على أنّها كانت مملكة سوى ذكر لـ«عمري ملك يسرال» في إحدى مسلّات ميشع التي اكتشفت في الأردن. ويعتقد أن قرية (سبسطية) قد تكون هي عاصمة تلك المملكة.

أفرايم)، وأخرى جنوبية، وهي مملكة (يهوذا). فهل أن باقي الممالك التي ذكرها الكتاب المقدّس لها جذور أو أصل على أرض الواقع؟ هل كانت ممالك حقيقية أم ماذا؟

د.جون هادلستون: بالفعل لدينا أدلّة من خارج الكتاب المقدّس تذكر تلك الممالك، على سبيل المثال؛ النصوص الآثارية العديدة التي عثر عليها في التنقيبات الآثارية في سوريا. لكن المثير للدهشة هو أن النصوص الآثارية تلك ذكرت أسماء ملوك، يبدو أن كتبة الكتاب المقدّس لم يكونوا يكنون لهم الود. فلو أخذنا على سبيل المثال أخهاب الملك، الذي يذكره العهد القديم كشخصية ضعيفة وشريرة؛ لكن لو نظرنا إلى النصوص خارج العهد القديم، سنجد أن أخهاب[1] الملك كان ملكاً قوياً ومؤثراً بوضوح. لهذا، سنجد لدينا انفصالاً بين الأوصاف التي يغذيها النص المقدّس في العهد القديم، وبين الوقائع التي تذكرها اللقى الآثارية والنصوص التي عُثر عليها في مواقع مختلفة من الشرق الأوسط أثناء التنقيبات الآثارية.

هذا الاختلاف سببه أن كتبة العهد القديم، كان لديهم منطلقاتهم الثيولوجية، أو الأيدولوجية. أي إنهم كتبوا العهد القديم بإملاءٍ من توجهاتهم الشخصية تجاه ما وصلهم من معلومات تاريخية.

د. ريتشارد دوكنز: أشرت عدّة مرات خلال حديثك إلى ما أسميته بـ(النص من خارج الكتاب المقدّس)، وكأنك تشير إلى أن نصوص الكتاب المقدّس لا يجب أن تؤخذ على محمل الدلالة القاطعة إلّا إذا ساندها نص آثاري يدعمها، ويحقق الحدث الذي يحتويه نص الكتاب المقدّس؟

---

(1) آخهاب بن عمري، وهو ملك من ملوك مملكة إسرائيل الموحدة (قبل الانفصال إلى مملكتين شمالية وجنوبية)، ويرد ذكره في سفر الملوك الأول من العهد القديم.

د.جون هادلستون: في الحقيقة يجدر بي أن أقول إن أياً من هذه النصوص التاريخية، المصرية أو البابلية، أو التي عثر عليها في سوريا والأردن، والنصوص التاريخية كلّها، لا يجب أن نأخذها على محمل القطعية التاريخية ما لم نحصل على تأكيدات متنوعة ومن مصادر أخرى. ليس علينا أن نصدّق كل ما جاء في هذه النصوص ما لم يثبت أيضاً من مصادر متواترة أخرى. وفي حالة الكتاب المقدّس، لدينا بالفعل مصادر من خارجه تؤيد ما جاء في السرد القصصي الخاص به، قد تلتقي معه في بعض النصوص. لكن في أحايين أخرى، نجد أن الأدلة من خارج النص المقدس تشير إلى شيء مغاير تماماً وفي اتجاه مختلف بالأصل. قد نجد أن بعض الناس يطرحون الأمر بالشكل التالي: إمّا أن يكون الكتاب المقدّس بأكمله نصّاً كاذباً، أو أن يكون كتاباً حقيقياً في كل ما جاء به، ولا يحتوي على أي خبر غير أكيد، أي إنه كله (كتاب للحق). لو أخذنا الأمر على هذين الاحتمالين فقط، سنكون قد وقعنا في خطأ تاريخي فظيع. علينا أن ندقق في كل مثال على انفراد، وفي كل قصّة حسب معطياتها.

د. ريتشارد دوكنز: وماذا عن نزول الأشوريين من الجبال في جماعات، وغزوهم. هذا كان حدثاً تاريخياً يذكره الكتاب المقدّس؛ الآشوريون قدموا من الجبال وهم يرتدون ملابس لامعة بالذهب، وبثيابهم القرمزية المميزة. كان هذا ما جاء في قصيدة شهيرة مبنية على ما ورد في العهد القديم؟

د.جون هادلستون: في الحقيقة كان ذلك في قصّة دمار نينوى (612 ق.م) والتي يبدو أن كتبة العهد القديم ابتهجوا لذكرها، وتحدّثوا عن مقتل الناس والأطفال وسيل دمائهم على الصخور. كان ذلك نصاً متميزاً

بالفعل. أما السبي البابلي، فبالفعل كان هناك نوع من السبي الذي حدث. لكن ليس بالحجم الذي يصوره لنا النص في الكتاب المقدس. لم تكن عملية (إزاحة) كاملة للسكان تركت الأرض فارغة بعدهم؛ صحيح أنهم أخذوا الناس الموهوبين، وأي شخص قد يبدو أنه مفيد لهم، لكن هناك العديد من الناس تمسّكوا بالبقاء بالفعل في أراضيهم. وبالرغم من كل شيء فقد تحوّلت بابل إلى علامة بارزة في التعاليم اليهودية، وصار هناك ما يسمى بـ(التلمود) البابلي. حيث إن عدداً كبيراً من فصول الكتاب المقدّس كتبت في بابل لاحقاً. وحين عاد عيزرا[1] إلى أرض كنعان، تقول النصوص إنه جلب معه بعضاً من تعاليم موسى المكتوبة.

لا نعلم بالضبط ماذا كانت تحتوي تلك النصوص في وقتها، لكنها تشكّل ما نشير إليه اليوم بأنه (التوراة)، وهي الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب اليهودي المقدّس (التناخ). لكن هناك علاقة معروفة بين العائدين إلى أرض كنعان وملك فارس آنذاك؛ الملك الفارسي أراد أن يعود اليهود إلى مساكنهم القديمة، وأن يؤسسوا لهيمنة تتبع له في الأقاليم البعيدة منه. المدهش أن كل تلك النصوص كتبت تحت إشراف السلطة الفارسية، وليس بعيداً عن عيونها وهيمنتها، حتى إنهم قدموا أضحيات باسم الملك الفارسي.

د. ريتشارد دوكنز: وماذا عن النبي إيزايا (اشعياء)، أو النبي جريمايا (إرميا)، متى ظهروا، إن كان وجودهم فعلياً وحقيقياً؟

د.جون هادلستون: نعم، قد تجد جدلاً في هذا الشأن بين الباحثين

---

(1) عيزرا سوفير، أو عيزرا الكاتب، وهو ذاته المشار إليه في النص القرآني باسم (العزير)، ويفترض اليهود الشرقيون بأن قبره ما زال على الطريق إلى شوشة، في بلدة تسمّت باسمه في محافظة ميسان، جنوب العراق.

والمحققين؟ إن التعاليم الوحيوية المتعلقة بهؤلاء الأنبياء ربما كتبت قديماً جداً، نحن نتحدث هنا عن فترة من ثلاثمائة أو أربعمائة سنة قبل الميلاد. لكن، هنا يظهر لنا سؤال مهم، وهو إلى أي مدى يمكن لنا أن نعود بالتاريخ كي نعثر على دليل يدل على (اشعياء) المقصود تاريخياً؟ لكن هناك إشارات إلى أن اشعياء كان له أتباع، وهؤلاء الأتباع كانوا يدوّنون بعض ما يقول، وهناك دراسات تتناول بالكم والتحليل حجم ما تسرّب من تعاليم اشعياء إلى النص التلمودي. نتوقع أيضاً أن نبوءات اشعياء قد تعرّضت إلى الإضافة مع الزمن، فلو قال اشعياء بأن أورشليم ستدمّر في وقت ما، ولم يحدث أن تدمّرت، فسيأتي جيل آخر من الكتبة والناسخين ليذكّر بنبوءة الدمار فيما لو حصلت، ويضيفها إلى النص.

د. ريتشارد دوكنز: هذا يشبه ذكر المسيح في العهد القديم، حيث اعتبر البعض بأن الإشارة إلى شخص اسمه (ايمانويل) ستلده أم عذراء، إنما هي إشارة إلى المسيح باعتبار هذا الاسم أحد أسمائه، لكن لا يوجد دليل على أن المسيح بالفعل تسمّى بهذا الاسم.

د.جون هادلستون: في الحقيقة، لقد وضعت بحثاً عن هذا الموضوع، لأن النص العِبري في الأصل لم يكن يحتوي على كلمة (عذراء)، كان هناك ذكر لـ(فتاة شابة). وورد اسم (ألما)، في الإشارة إليها. ويقول النص العِبري القديم بأن اشعياء تلا تلك النبوءة بطريقة مختلفة تماماً، حيث كان في حضرة ملك، وكانت إلى جانبه فتاة شابة تحمل طفلها وقال إن هذه المرأة ستلد طفلاً اسمه ايمانويل. والنص يشير إلى موعد حدده اشعياء، وهو قبل أن يكبر ابن هذه المرأة التي لم يولد لها بعد، وأعني ايمانويل المزعوم هنا. ربما كان نوعاً من التوقيت أراد أن يعرضه أمام الملك.

النبوءة كانت تتحدث عن أن هذا الملك سينزل عن عرشه قبل أن يشتد عود ابن المرأة التي كانت تقف بجانب اشعياء، هذه هي الخلاصة. لكن هناك من استعمل القصّة نفسها لاحقاً ليشير إلى المسيح وولادته، وأضاف لفظ (عذراء) إلى القصّة؛ أي إنه كان يتحدث عن مستقبل قريب جداً. ولدينا دلائل تتبعية واضحة أن كلمة (عذراء) قد أضيفت فيما بعد نتيجة النقل عن الإغريقية. واليوم نعرف أن الإنجيل قد كتبه أشخاص مجهولون، تمت إضافة أسمائهم فيما بعد إلى النسخ اللاحقة المترجمة. ففي واقع الأمر، لا نعرف بالضبط من هم الأشخاص الذين تشير لهم الأسماء (متّى، يوحنا، لوقا، مرقس)، وهي أسماء الأناجيل في الكتاب المقدّس. ولمعرفة أصل القسم الأكبر من العهد الجديد توجب علينا العودة تحديداً إلى القرن الرابع الميلادي. ثبتت لدينا في الدراسات التاريخية عن الكتاب المقدس، ومن خارجه أيضاً. أنه قد توافرت في ذلك القرن نصوص متفرقة تعود إلى ناسخين متفرقين، تتضمن الشيء الكثير من نص العهد الجديد الحالي. وفي تلك العهود، كانت تقاليد كتابة اسم الكاتب تختلف عما هي عليه الآن، ففي بعض الأحيان تجد أن اسمه يكتب في داخل النص نفسه.

د. ريتشارد دوكنز: من إذن سيقرر فيما إذا كان هذا هو إنجيل لوقا، أو إنجيل يوحنا؟ يعني كيف تُنْسَبُ الأناجيل إلى كاتب بعينه.

د.جون هادلستون: في الحقيقة لا أعرف، ما زالت آليّة هذا الانتساب غامضة بالنسبة لنا ولا شيء قطعياً فيها.

د. ريتشارد دوكنز: ماذا عن باقي الأناجيل؟ أعني أن هناك من الأناجيل ما له قصّة خاصة، منها إنجيل توما على سبيل المثال.

د.جون هادلستون: صحيح، وربما يكون الأشهر من بينها هو إنجيل

توما؛ لأنه يحتوي على نصوص قريبة التطابق جداً مع نصوص أناجيل العهد الجديد الأربعة. وما زال الدارسون يبحثون في نسبة إنجيل ثوماس إلى باقي الأناجيل، أو أن يكون ثوماس قد استقى نصّه نقلاً عن مصدر خاص نقل له ما قاله المسيح.

د. ريتشارد دوكنز: كم هو حجم المُصطنع من شخصية المسيح بواسطة بولس الرسول[1] في توقعك؟ أعني كم أضاف بولس إلى الشخصية التي أرادها أن تكون لدى الكتبة عن المسيح؟

د.جون هادلستون: أظنّ أن بولس الرسول كان يعرف الشيء القليل فقط عن المسيح. وبمعايير الحقائق الواقعية عن حياة المسيح، لم ينقل لنا بولس الرسول إلّا الشيء القليل عن شخصية يسوع، وهو على أي حال ليس بالكمّ المهم. مثلاً، كان يعلم أن للمسيح إخواناً، وكان يعلم عن تفاصيل العشاء الأخير، وهو بالمناسبة لم يرد له أيّ ذكر في إنجيل يوحنا. وأتصور أن بولس الرسول ما كان ليخبرنا المزيد عن حياة يسوع حتى لو كان يعرف بها، لأنه جمع تركيزه في الرواية على قضيّة صلب المسيح والقيامة. كانت لديه رؤيته الخاصة لتفسير الأحداث، وهذه الرؤية انعكست بوضوح على طريقته في روايتها. لقد حاول التوفيق بين ما وضعه من تصور كلّي عن قضية المسيح، وبين ما ورثه من تقاليد

(1) ثاني أهم شخصية في التاريخ المسيحي، وتفترض القصّة الإنجيلية بأنه كان فرّيسياً يهودياً معادياً للمسيحيين، ثم تبدّى له المسيح في رؤياه وتبدّل موقفه وأصبح داعية شديد الإيمان بيسوع الناصري وأنه هو المسيح الموعود، ثم اقتفى أثر تلاميذ يسوع. ورافق بطرس لفترة، ثم التقى بيعقوب البار (الأخ غير الشقيق ليسوع). وتفترض الرواية المسيحية بأنه أعدم بقطع الرأس في حدود 61 للميلاد. وتنسب إليه عدّة رسائل من العهد الجديد، نقلاً عنه أو بإملائه.

يهودية[1] تملي عليه إيماناً محدداً فيما يتعلّق بالحياة والموت والحتميات المرافقة لهما.

بل إنه حافظ على هذا التوازن في إملائه للنص، أعني لم يحدث وأن رفض اليهودية وتعاليمها بصراحة وعلانية. هذا الموضوع انتهى إلى أن يتكوّن لدينا جناح في الكنيسة يتسم بالمحافظة المتشددة على نسخة من التعاليم اليهودية فيما يخص الطعام ومحرّماته، وفيما يخص الزواج وباقي نواحي الحياة الأخرى. بالتأكيد كانت مسيرة بولس الرسول غريبة ومتناقضة، أعني أنه كان يهدف إلى مخاطبة الناس وحثّهم على رفض القانون الذي لا يحكم بالعدل بينهم، وجزء من هذا القانون هو تطبيق فعّال للتعاليم اليهودية. إذن نحن إزاء دعوة للتغيير والثورة، لكنها تحافظ على التقاليد في نهاية الأمر وتجامل حاخامات اليهود.

د. ريتشارد دوكنز: طيب، الآن ماذا بحوزتنا من المعرفة عن التفاصيل التاريخية للمسيح؟

د.جون هادلستون: في الحقيقة هناك طرائق ومحددات مختلفة حين ندرس وجود يسوع المسيح وحياته تاريخياً. لقد عكف الباحثون خلال الأعوام المائتين الأخيرة على وضع معيارية بحثية وعلمية للوصول والتعرّف على الحقائق التاريخية فيما يتعلّق بالدراسات عن المسيح. أستطيع أن أقول إن القرن الأول الميلادي لم يقدم لنا أي دليل روماني على وجود المسيح. وليس لدينا أي وثيقة رومانية تشير إلى ذكره أو

(1) تتفق معظم المصادر التاريخية في التاريخ المسيحي اللاهوتي أن بولس قد درس على يد جمالائيل، المعلّم اليهودي البارز والتابع لجماعة الفريسيين؛ حيث درس بولس تعاليم العهد القديم على يديه.

إلى أي شيء متعلّق به. وأقدَمُ الإشارات الرومانية تعود بتاريخ نشوئها إلى القرن الثاني الميلادي. وهي تشير إلى شخص اسمه تاسيتوس (أحد القضاة الرومان المشهورين)، وأنه (أي يسوع) قد أعدم خلال عهد تايبيريوس، ثم بعد ذلك حضر أحد المؤرخين اليهود واسمه (جوزيفيوس) نهاية القرن الثاني الميلادي. وهذا تحدث بالشيء القليل عن المسيح، وعن سيرة أخيه جيمس[1].

لكن، ما حدث هو أن السيرة التاريخية التوصيفية للمسيح قد أعيد بناؤها مرّات عدّة. وفي كثير من الأحيان يعتمد الأمر على ما يؤمن به المصوّرون والرواة لتاريخ المسيح، أو بالطريقة التي يريدونه أن يكون عليها. وأبسط الأمثلة هنا هو الخلاف التاريخي المتشعب عن عائلة المسيح ويوسف وإن كان له أبناء من مريم. معظم هذه المواضيع هي إشكالية بامتياز، ولا يوجد إجماع بشأنها. ومع كونه قد ورد ذكره بأسماء عدّة وفقاً للتدوين الروماني أو اليهودي بعد ذلك، لكنه عُرف في الخط العام بأنه يسوع الناصري، وكان أبوه يوسف وهو معلم وواعظ معروف من تلك الفترة، لكن هذه المعرفة تأكدت فقط في القرن الرابع الميلادي. والرأي العام للباحثين يكاد يتفق أنه لم يولد في بيت لحم وإنما قد ولد في الناصرة. أما ولادته في بيت لحم فهي نمط آخر من أنماط تلبية متطلبات النبوءة القديمة الخاصة باشعياء، وهي من الأمور التي تم تعديلها لاحقاً.

د. ريتشارد دوكنز: إذن، مرّة أخرى نجد أن كتبة إنجيل متّى ولوقا،

(1) يُعرَف تاريخياً باسم (يعقوب البار)؛ وكان أحد الحواريين الاثني عشر، وهو ابن يوسف من مريم. ووجوده يعد مخالفاً للرؤية التاريخية الكاثوليكية التي ترى أن يوسف ومريم والمسيح هم عائلة بحد ذاتها، بينما كان المسيح هو ابن الرّب.

ذكروا أنه قد ولد في بيت لحم، فقط لأنهم استندوا في معارفهم وتصوّراتهم عن المسيح إلى عدم مخالفة نبوءة اشعياء فيما لو ظهر، ولهذا ذكروا أنه ولد في بيت لحم. ويبدو لنا واضحاً أن بولس الرسول لم يكن مدركاً تماماً لقصّة ولادة العذراء. في الحقيقة لقد أشار إنجيل يوحنا إلى أنه قدم من الناصرة. بل إنهم أظهروا تعجّبهم حين عرفوا أن المسيح جاء من الناصرة، لأن السرد اليهودي سبق أن حمل نبوءات اشعياء إلى تفكيرهم دائماً ببيت لحم كمسقط رأس له. لكن ما يدهشني أنني سبق أن تحاورت مع رجال دين يحملون رُقياً فكرياً، ومنهم أسقف كانتربري، وسألته عن مدى إيمانه بقصّة ولادة العذراء، فقال نعم أنا أومن بأنها من الممكن أن تحدث.

د.جون هادلستون: لو أخذنا الجانب الكاثوليكي، فإننا نجده قد شهد تغيراً جذرياً في نوعية الدراسات التي تتناول هذا الجانب. ربما ابتداء من ستينيات القرن الماضي. ولو أخذنا نموذجاً من هذه الدراسات للباحث رايموند براون (Raymond Brown)[1]، وهو واحد من أشهر الباحثين الكاثوليك الذين وضعوا كتباً عن ميلاد المسيح، وقد كان قسّاً أيضاً. لقد أثار جدلاً في هذا الشأن، وطرح ابتداء أن ليس هناك ولادة للعذراء. وكان بحثه في هذا الشأن قد نال تقديراً مهماً في الأوساط المسيحية الكاثوليكية وتحديداً في الفاتيكان حيث حصل على أنصار له.

د. ريتشارد دوكنز: لكن، ما إن علم الناس بأن هناك إساءة في النقل

---

(1) كتابه الشهير والمثير للجدل: «ولادة المسيح، ملاحظات حول تدوينات طفولة المسيح في إنجيلي لوقا ومتّى». The Birth of the Messiah: A Commentary on the Infancy Narratives in the Gospels of Matthew and Luke (The Anchor Yale Bible Reference Library), 1999.

والترجمة، لماذا لم تتعرض الفكرة بأكملها للتشكيك طالما أن هناك بالفعل دلائل على فوضى النقل واختلاط السرد بين النصوص الرومانية والعِبرية وغيرها؟

د.جون هادلستون: بالنسبة لفكرة ولادة مريم للمسيح والحمل بلا معاشرة زوجية، هي غير فكرة أن يكون للمسيح أب وهو الإله، وأن تكون والدته من البشر. هذه الفكرة بحد ذاتها كانت شائعة جداً في عهد الرومان والإغريق، فكل شخصية مهمة كان من المعتاد أن تجري نسبتها في الولادة إلى أب أو أم من الآلهة. الأمر ليس عجيباً أن يذكر في ذلك الزمان، ولم يكن الناس يترددون من التصريح بأن فلان العظيم والمُهم إنما هو من نسل الإله كذا. لكن المدهش في الأمر أن كتبة الأناجيل اختاروا ألّا يدوّنوا هذه الفرضية. والأمر نفسه ينطبق على القيامة من الموت. لكنني لا أعرف إن كانت تجربة القيامة من الموت قد مرّت في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية، لكنها بالتأكيد كانت موجودة ومتعارف عليها فيما يخص ملوك مصر القديمة مثلاً.

د. ريتشارد دوكنز: ماذا عن فكرة الفداء؟ أعني الموت من أجل الخلاص من الخطيئة، هل كانت معروفة في الأديان القديمة للشرق؟ بما أنها موجودة الآن في عمق المسيحية.

د.جون هادلستون: هناك في اليهودية شيء من هذا، أعني قصّة يوم كيبور، والتضحية بالعنزة التي ستأخذ الشرور مع موتها. لكنه يبقى أمراً إشكالياً لو قيس بباقي التقاليد اليهودية اللاحقة. وهناك قصّة اسحاق، لكنهم يقرأونها بأنها لم تكن تضحية حقيقية بقدر ما كانت خضوعاً لمشيئة السكين. لكن الأبحاث الحديثة أثبتت أن نقل هذه القصص

كان متواتراً من الأسلاف بطريقة تشبه نقل القصص الخيالية والأساطير بين الشعوب. في الحقيقة، إن تدريس هذه الأمور عن الكتاب المقدّس قد يستثير البعض ويدفعه إلى رفض هذه الحقائق العلمية التي درسها العديدون. أنا أرى أنّ تقبّل الطلّاب لمثل هذه التشكيكات والمناقشات العلمية يعتمد أولاً على المنطلقات الفكرية التي يحملونها. وكثيراً ما أكتشف أن شغف الطلّاب لمعرفة الحقيقة قد بدأ يتنامى بسرعة استثنائية.

(8)

العِرق والخلق

مقالة نشرها د. ريتشارد دوكنز في مجلة «بروسبيكت»، في أكتوبر من عام 2004.

***

إن كلمة (عِرق) لم تنل حظها جيداً من التعريف والدلالة. بينما يتوفر لكلمة (نوع) تعريف دقيق وواضح. وهناك فهم متفق عليه في دلالته لو أشرنا إلى حيوانين بأنهما ينتميان إلى (النوع) ذاته؛ فبإمكانهما أن يشتركا معاً في عملية تهجين مثلاً، وستكون نتائج هذا التهجين هي المُحدد الذي يُعتمد في تصنيف ذلك النوع، ووفقاً لمخرجات هذا التهجين سيتم منح الكائن الجديد مكانته في التسلسل الهرمي للأنواع الحيّة.

وما فوق (النوع) في التصنيف، يوجد لدينا الجنس، وهو يمثل حزمة من الأنواع التي يجري تصنيفها في مستوى واحد. وفي العادة تكون هناك مشتركات وتشابهات كثيرة بين الأنواع داخل الجنس الواحد. وليس هناك من مُحدد موضوعي لقياس مدى التشابه بين الأنواع

المختلفة للجنس الواحد من الكائنات الحيّة. والشيء ذاته ينطبق على التصنيفات التي تسبق هذا المستوى، ومن مثالها؛ العائلة، الرتبة، الصنف، الشعبة.

وفي التصنيفات ما دون (النوع)، هناك (التفرّع النوعي)، وما دونه سيكون (العِرق)؛ ومرّة ثانية، لا توجد قواعد تمييزية تقيس مدى التفرّع في العِرق عن النوع الأصل، فلا يمكن أن نقول هذا أشد تفرّعاً وذاك أقل تفرّعاً. أي، إننا غير قادرين علمياً على قياس مدى انحراف إنسان ما عن أصله العِرقي، وغير قادرين على قياس مدى تطابقه مع عِرق محدد. وليست هناك وسيلة قادرة على قياس فيما إذا كان هناك شخصان ينتميان إلى العِرق ذاته أو يفترقان عنه، وكم يبلغ مقدار هذا الافتراق لكل منهما.

لأنه لا يتوفر أبداً (عِرق قياسي) لتجري المقارنة به.

وليس لدينا أيضاً وسيلة علمية موضوعية تخبرنا عن عدد الأعراق المتوافرة بين نوع بني البشر. وبالتأكيد لدينا مشكلة إضافية وهي غياب الكائنات التي تصنف بأعلى من العرق البشري (أي في مرتبة أنواع الجنس البشري وما هو أعلى منها)، وبالتالي ليس لدينا إمكانية لنقرر كم هو عدد الأجناس الأصلية التي أنتجت أنواعاً مختلفة من البشر، أو بصورة أدق (أعراقاً مختلفة من البشر).

وفي الحقيقة فإن التهجين فعل فعله بين أنواع البشر وأعراقهم، وأنتج لدينا مميزات غير قابلة للحكم في مقاربتها بين أبناء الجنس البشري. كما قدّم لنا عدداً متنوعاً من الأعراق المفترضة. ولغاية الآن، فكل الأعراق البشرية قابلة للتهجين فيما بينها دون أي عارض. وكلنا أبناء النوع ذاته، وليس هناك من عالم بيولوجي يُعتد برأيه يمكن أن يقول خلاف هذا.

بعبارة أخرى، ليس لدينا أي عقبة بيولوجية تمنع تزاوج أي ذكر أو أنثى من الأعراق البشرية كافة.

لكن دعوني أجلب انتباهكم إلى تفصيل مزعج بعض الشيء؛ فبينما نحن منشغلون في تهجين الأعراق البشرية وظهور أعراق فرعية مختلطة، فقد تمسّكنا بلغتنا التي تعزز الانقسام العِرقي بين البشر. فالميل إلى تصنيف البشر بدقّة إلى طبقات ما زال موجوداً بصورة ملموسة في اللغة، ويطل علينا برأسه أينما تمكّن من ذلك. وهذا الأمر قد يوقع البعض في تناقض تمييزي.

هناك بعض البشر من الذين يصطلح الأميركيون على تسميتهم بـ«السود»، أو ذوي البشرة السوداء، يمتلكون بشرة تكون في بعض الأحيان أشد بياضاً من آخرين يُصطلح عليهم في أماكن أخرى من العالم أنهم من «البيض»، أو أصحاب البشرة البيضاء.

الجميع سيشير إلى وزير الخارجية الأميركي الأسبق كولن باول على أنه «أسود»، حتى في تلك الصورة الجماعية التي يظهر فيها كولن باول ببشرة أكثر بياضاً من دونالد رامسفيلد، وجورج بوش الجالسين بالقرب منه.

والآن، لو تصوّرنا أن كولن باول يقف إلى جانب رجل أفريقي أسود أصيل، نفترض أنه الرئيس الكيني السابق دانيال أراب موي مثلاً. فماذا نتوقع أن يكون التعليق إلى الأسفل من تلك الصورة؟

الصورة نشرتها بالفعل مجلة على شبكة الانترنيت وعلّقت إلى الأسفل منها التعليق التالي: «كولن باول يحظى بترحاب وفق التقاليد المسيحية في كينيا، لأنه أسود».

هنا نسأل؛ لماذا يكون الناس على استعداد تام لابتلاع الطُعم حينما يتعلّق الأمر بالأعراق؟ وهناك أمثلة كثيرة تبدأ من عبارة «إنه أسود» رغم التناقض الواضح الذي تظهره الصورة التي أرفقَ بها التعليق، وهي تظهر بشرة كولن باول بوضوح بأنها ليست بشرة سوداء، فما الذي حدث هنا؟

في الحقيقة حدثت عدّة أشياء؛ إننا نظهر ميلاً إلى تقييم العِرق، والتمسّك به كوسيلة لتصنيف الناس، حتى مع كونهم يتحدّرون من أعراق مختلطة يصعب التمييز بموضوعية بينها.

وأيضاً، هناك الميل نحو اعتماد العِرق كوسيلة تمييز، حتى لو كان الموقف لا علاقة له أبداً بالأعراق. ثانياً، هناك ميل آخر إلى عدم اعتماد العِرق المختلط، والابتعاد عن الاعتراف به. وبدلاً من ذلك نميل إلى إرجاعه ونسبته إلى عِرق واضح المعالم بالنسبة لنا.

إن بعض الأميركيين يحملون عرقاً أبيض (نقيّاً)، بينما يحمل آخرون عرقاً أسود (نقيّاً) أيضاً. هذا لو صرفنا النظر عن أننا جميعاً قد انحدرنا من تطوّر الأنواع التي أدت في النهاية إلى ظهور الإنسان الحالي، وإن هذا الأصل يُعيدنا جميعاً إلى أفريقيا.

في الحقيقة، لا أعترض أبداً على إطلاق صفة (أبيض) أو (أسود)، على أي شخص ينتمي لعِرق يصطلح إطلاق هذه التسميات عليه. لكن علينا أن نعلم أننا جميعاً بشكل ما نحمل انحدارات عن أسلافنا فيها المختلط بين الأبيض والأسود، بل إن النسبة الأعلى هي النسبة المختلطة العروق. لكن المجتمع يُصرّ (بالرغم من حقيقة اختلاط أعراقنا) على نسبتنا إلى عِرق مُميز معروف ورئيس. وهذا ما أسميته في أحد كتبي بـ(استبداد الذهنية غير المستمرة).

ودائماً ما يُطلب من الأميركيين أن يؤشروا في حقل العِرق على أحد المربعات التالية:

- القوقازي (بالتأكيد لا يعنون أن هذا الشخص قد انحدر من القوقاز).
- الأفريقي الأميركي.
- الهيسبانك (مهما حملت تلك الكلمة من معان متضاربة، وهي بالتأكيد لا تعني إسباني الأصل).
- الأميركي الأصلي أو المحلّي.

وليس هناك من مربّع تحت مسمى (نصف كذا، ونصف كذا)[1].

لكن الفكرة التي تقف خلف وضع الخيارات وصياغتها بهذا التصنيف، هي فكرة مغلوطة ومجانبة للحقيقة تماماً. والحقيقة الوحيدة هنا هي: إن معظم الناس ينطبق عليهم وصف (المُختلط) أكثر من أي واحد من هذه الخيارات المحددة.

أما رغبتي الشخصية فهي تنحصر في رفض التأشير على أي من مربّعات التمييز العِرقي، أو أن يُضاف مربع آخر للاختيار تحت مسمى (كائن بشري).

وفي ما يخص وصف (الأفريقي الأميركي) فهناك إشارة ثقافية موازية لنوع من الهيمنة الجينية تبدو في استعمالنا اللغوي للكلمة. ولو عدنا إلى تجربة ماندل (Mendel) في الوراثة وتهجين النباتات، فقد هجّن البزاليا ذات الأوراق المسطّحة مع البزاليا ذات الأوراق المشعثة، وظهر لديه

(1) هناك اختيار آخر شائع لتمييز العرق وهو (الشرق أوسطي والشمال أفريقي)، وبالعادة يرمز له بـ(MENA Region).

أن الجيل الأول بأكمله كان من نوع البزاليا ذات الأوراق المسطّحة. ولهذا اصطلح على الصفة الوراثية الظاهرة في التسطّح بالأوراق بأنها صفة (سائدة Dominant)، بينما اصطُلح على الصفة الوراثية المُسببة للتشعّث في الأوراق بأنها صفة (متنحّية Recessiv). كان الجيل الأول من البزاليا قد ظهر كلّه حاملاً الصفة السائدة، ونبتة واحدة فقط ظهرت عليها الصفة المتنحّية. ومع هذا، فإن حبات البزاليا نفسها لم تكن قابلة للتمييز بين الصفة السائدة (تسطح الأوراق)، وبين الصفة المتنحّية (تشعّث الأوراق).

وحين يتزوج رجل أسود بامرأة بيضاء، سيكون الجيل الثاني منهم كلّه مُختلط في جميع الصفات، فالأمر لا يشبه البزاليا. لكننا كلّنا نعلم أن المجتمع سيتعامل مع الجيل الناتج من هذا الزواج على أنه (أسود)!

يحدث هذا على الرغم من أن (سواد البشرة) ليس صفة سائدة حقيقية كما في تسطّح أوراق البزاليا. لكن التصوّرات المُجتمعية عن صفة (السواد)، ستتعامل معها على أنها صفة سائدة. ويرجع هذا إلى مؤثر مُسبب أطلق عليه الباحث الأنثروبولوجي ليونيل تايغر تسمية: «تلوّث المجاز اللغوي بالعنصرية» ضمن الثقافة العاملة داخل المجتمع الأبيض.

ولا شك، فإن هذا (التلوث)، تقابله رغبة مفهومة في أن تطبّق المعايير التميزية على المتحدّرين من أصول سلالات العبيد بين الأميركيين الأفارقة.[1]

(1) مع انتخاب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة عام 2008، شهدت صفحات الجرائد الأميركية جدالاً حول أصل أول رئيس أسود للبلاد. وكان هناك طرح وجد مناصرة في الرأي بين الأميركيين مفاده بأن أوباما لا يعد أسود أو زنجيّا=

وبسبب من هذا، نجد أن هناك حساسية عالية، وميلاً واضحاً إلى التشخيص العرقي الحاد ضمن التصنيفات المجتمعية للأعراق. ولهذا، فإن شخصاً مثل كولن باول، ينحدر من عِرقٍ مختلط بلا ريب، وبمواصفات جسدية وسيطة وغير مميزة الانتماء، ومع هذا فإنه لا يوصف كـ(أبيض) من قبل العديد من الناظرين، أو قد يختلف بشأنه البعض. قلّة قليلة يمكن أن تصِف كولن باول بأنه ينحدر من عِرق مُختلط، وستكتفي الأغلبية بأن تنسبه ببساطة إلى عِرق أسود (أميركي من أصل أفريقي) هكذا. حتى لو كانت مميزاته الجسدية قد انحدرت في معظمها من أصول أوروبية، فلن نجد من يصف كولن باول بأنه أبيض العِرق.

ولأجل تشخيص عِرق ما وتمييز انتمائه، لدينا في الطرائق العلمية وسيلة تسمى: (المحددات المتفق عليها بين الراصدين)[1]. وهي أشبه بالعُرف في التمييز، حتى لو لم تكن هناك قدرة على تحديد هذه المُحددات بعينها، وتمييزها وتشخيصها على انفراد. إن الأساس المنطقي في مثل هذه الحالة، هو أن عيّنة عشوائية من شخصين بإمكانهما الاتفاق بصورة عامة على أن هذا الشخص هو (أسود) العِرق، أو أن ذلك الشخص هو (أبيض) العِرق مثلاً.

= بمعنى الكلمة، فهو لا يتحدّر من سلالات العبيد الذين جرى استعبادهم من أفريقيا، بل هو قد وُلد لأب كيني غير أميركي أساساً، وتجنّس فيها بعد بالجنسية الأميركية ـ المترجم.

(1) هذا المصطلح، قد تنفع ترجمته عن طريق المثال. إنه يضاهي «العُرف» الذي يميز على طريقة أصحاب المهنة الواحدة أدواتهم وأشياءهم. أو إنه يقابل المعيار العام حين يوصف شخصٍ ما بأنه: يبدو وكأنه يشبه المصريين مثلاً، أو أن هذا الشخص يشبه العراقيين مثلاً، مع أنه ليس هناك معيار شكلي عام يجمع (كل) عراقي، أو (كل) مصري ـ المترجم.

إن حقيقة اتفاق أشخاص يتم اختيارهم عشوائياً على تمييز الأصل العِرقي لإنسان ما، إنما هو أمر يقبع عميقاً في السيكولوجيا الإنسانية. وفي مثال على ذلك، فإن ظاهرة قوس قزح، قد جرى تفسيرها فيزيائياً بكل تأكيد. وقد أخبرتنا الفيزياء بأن الألوان التي نراها فيه إنما هي أطوال موجية مختلفة لانكسارات ضوء الشمس على القطرات المائية العالقة في الهواء.

لكن السيكولوجيا وعلم الأحياء، هما من فسّر لنا لماذا تطلق على الألوان الرئيسية في قوس قزح تسميات مفردة في كل الثقافات (فنقول: الأزرق، البنفسجي، الأصفر، الأحمر)، بينما تكون الألوان (خارج) طيف قوس قزح، هي ألوان يجري اشتقاق أسمائها في اللغة. أي أن لدى كل واحدة من اللغات المتنوّعة اسماً أصيلاً يُطلق على اللون الأخضر مثلاً، أو الأحمر، أو الأزرق، لكنها لا تتوافر على كلمة مفردة تصف الأخضر المزرق! وأظن أن الأنثروبولوجيين قد أسسوا لتوافق أو تواضع عُرفي مشابه فيما يتعلّق بطريقة تمييز الأعراق البشرية المختلفة، دون أن تكون هناك ملامح مدوّنة محددة ومُعرّفة بوضوح تقيسها عين المشاهد.

ومهما بدا لعين المشاهد أو الفاحص أن الفوارق الظاهرية العيانية كبيرة، وظاهرة، لكن الأمر بمقياس علماء الأحياء ـ وبالخصوص المشتغلين منهم بهندسة الجينات ـ يبدو مُوحّداً، ومتماثلاً بين الأعراق الإنسانية المختلفة من الناحية الجينية.

وفي الحقيقة، يمكن اليوم قياس مدى افتراق المجموعات البشرية التي تسكن في مناطق جغرافية مختلفة (أي، الكتل السكانية الإقليمية). يمكن قياس حجم هذا الافتراق من الناحية الكمّية الجينية المتعلّقة بكل

عِرق. ومما يثير الدهشة أن هذا الفرق ظهر بأنه لا يشكل سوى نسبة ضئيلة جداً من الفوارق الجينية، ربما تتراوح بين (6 ـ 15) % من حجم التطابق في الموروث الجيني الكلّي. ومع هذا، فإن القياس العلمي لهذه النسبة يعتمد بالدرجة الأساس على الطريقة التي تم اعتمادها لتنفيذ القياس نفسه.

هذه النسبة الفارقة بين (الأعراق) الإنسانية المختلفة، كانت بالمصادفة أقل بكثير من الفوارق المناظرة في أنواع أحيائية أخرى. ولهذا، استنتج الباحثون في الجينات، بأن (العِرق) ليس بالأمر المؤثر في التكوين الجيني الكلّي، ولا بالأمر الحاسم في تقييم الفوارق بين الناس.

إننا نتحدث هنا عن فوارق جينية ضمن (النوع) الإنساني الواحد. وهي فوارق تكون أكبر بكثير في باقي الأنواع الأحيائية من غير الإنسان. هذا لا يعني، مثلاً أن أصحاب البشرة البيضاء يختلفون جينياً عن أصحاب البشرة السوداء بنسبة (6 ـ 15) %، إنما يعني أن الجينات التي يمكن تمييزها بأنها مسؤولة عن مظهر (أو اختصاص وراثي) معيّن يجمع أفراد المجموعة السكانية الإقليمية، لا تتجاوز هذه النسبة في حدّها الأعلى. ولنتذكر أن الفوارق الجينية القابلة للتمييز هي بالأصل لا تشكل سوى نسبة ضئيلة من مليارات الموروثات المنقولة من جيل بشري إلى آخر.

بالتأكيد فإن هذه المعلومات الحديثة، كانت ستشكّل مفاجأة لعلماء الأحياء في العصر الفيكتوري في القرن التاسع عشر. أولئك العلماء (باستثناءات قليلة بينهم) كانوا ينظرون إلى الإنسانية عبر زجاج ملطّخ بالمواقف المسبقة من الأعِراق، واستمر البعض منهم في تبنّي وجهة النظر المتأثرة بالجانب العِرقي إلى وقت متأخر في بدايات القرن

العشرين حتى ظهرت دراسات مورثات (DNA) التي قطعت الشك باليقين حول حجم الافتراق الجيني للأعراق التي يُنظر إليها على أنها أعراق في مرتبة أدنى.

كان هتلر استثناءً حين حاز على سلطة تمكنه من تنفيذ التطهير العرقي، والاصطفاء بين الناس وفقاً للعِرق. صحيح أن آخرين أيضاً دعوا في السابق إلى ما نفّذه هتلر، لكنهم لم يحوزوا على القوّة والسلطة التي حازها، وبالتالي لم يرتكبوا ما ارتكبه هتلر بحق التنوع العرقي الإنساني.

وربما لو عدنا إلى كتابات إتش. جي. ويلز، فسنجدها مفيدة كي تطلعنا على ما يمكن لمثقف إنكليزي بارز أن يفكر به تجاه قضية التمييز العِرقي، ولا ننسى هنا أن ويلز كان يُعد في عصره كاتباً تقدمياً من الطراز الأول، ومع ذلك نجده يكتب في كتابه «توقعات»[1] 1901 النص التالي: «... وكيف ستعامل الجمهورية الجديدة الأفراد من الأعراق الواطئة؟ كيف ستتعامل مع السود؟ أو المنتمين للجنس الأصفر؟ أو اليهود؟ كيف ستتعامل مع هذه الخلطة من السود وأصحاب البشرة البرونزية؟ أو القذرين من أصحاب البشرة البيضاء، وجميع من لا قيمة لهم، ولا كفاءة لهم كي يقدموها ويشاركوا بها؟ حسناً؛ العالم هو العالم، وهو ليس مضافة خيرية. وأنا أقولها؛ إن على هؤلاء أن يرحلوا. وسيتشكل النظام الأخلاقي للعالم الجديد بطريقة تتقبل فقط الأكفاء، وفقط أصحاب الجمال البشري، وفقط أصحاب جمال في البنية المرفقة بالقوة

---

(1) هيربيرت جورج ويلز (1866 ـ 1946). النص من كتابه الموسوم: «توقعات لردود الأفعال التي سيتركها التقدم الميكانيكي والعلمي على حياة الإنسان وأفكاره». كتبه ويلز وهو في عمر 34 عاماً. وعادة ما يختصر العنوان إلى: «تجربة في التنبؤ».

الجسمانية. ولن تتبنى الجمهورية سوى ما تبنته الطبيعة إلى يومنا هذا من إبعاد للضعيف، ومنعه من التكاثر. سيكون للإنسان المثالي في هذه الجمهورية امتياز القتل الذي يستحق بالفعل ارتكابه».

ربما علينا أن نطمئن الآن ألا أحد يتبنى ما سبق لهتلر أن تبناه ودعا له، على الأقل في العلن. لكنّي أتساءل إن كانت الأجيال التي ستأتي بعدنا ستقتبس من هذه الأفكار؟ أم إنها ستمارس شيئاً مماثلاً تجاه الأنواع الأخرى من الكائنات الحيّة؟

لكن لندع كل هذا جانباً، فالبحث في الجينات هو بحث عالي الدقة، وربما سيكون الحديث في (الفوارق) الجينية، ضرباً غير مسبوق أن يُكتب عنه بشكل شائع. لكننا لو أخذنا عيّنات من الدم من أشخاص أفارقة، أو خُزعات نسيجية، أو خلاصات من الخلايا الجذعية وجرت مقارنتها مع مثيلاتها المأخوذة من أشخاص من ذوي بشرة بيضاء، فسنشاهد اختلافات قليلة جداً بطريقة لا تكاد تذكر. بل إن الفوارق المماثلة بين أي حيوانين من فصيلة الشمبانزي الأفريقية ستكون أكثر اختلافاً.

وتعليل هذا التماثل، هو أن آبائنا وأسلافنا هم الذين تمكنوا عبر آلاف السنين من تجاوز ما يمكن تسميته بـ (عنق زجاجة جيني)، بينما لم يتمكن أسلاف الشمبانزي من ذلك. وربما يكون ذلك قد حدث خلال الـ 100 ألف عام الأخيرة من وجود الإنسان. لقد مرّ الوجود الإنساني بحالة من تراجع العدد، وهو ما أدّى بالبشر إلى التجمّع والتماسك من أجل البقاء. بالضبط مثلما حدث مع أطفال نوح في الأسطورة المعروفة، فكلّنا ننحدر من تلك المجموعة الصغيرة من البشر التي بقيت، ولهذا فإننا نبدو متماثلين جداً من الناحية الجينية.

لكن بعض الناس لا يرتضون القبول بما أنتجته الأبحاث في الكيمياء الحياتية، فالنتائج لا تلبّي ولا تشابه حياتهم اليومية. هناك من يقول: إننا لا نشبه بعضنا البعض. ولو نظرنا إلى شعوب النرويج، واليابان، وقبائل الزولو؛ بالفعل فإننا سنجد اختلافات كبيرة بين البشر أفراد تلك الشعوب.

وحتى لو توافرت الإرادات العادلة، والنوايا الطيبة فسيكون من العسير التصديق بأنّ أفراد هذه الشعوب المذكورة هم في الحقيقة متماثلون بدرجة أكبر مما تتماثل به ثلاثة من قردة الشمبانزي الأفريقي؛ الشمبانزي بالتأكيد سيبدو لأعيننا أكثر تماثلاً. إن هذا الأمر قد يؤدي إلى حساسيّة سياسية مفرطة. وأذكر أنه استثار أحد العلماء في مؤتمر علمي حضرته. وكان ذلك المتحدّث هو الوحيد بيننا من ذوي البشرة السوداء. وحين طلب رئيس المؤتمر من كل الحضور التعريف بأنفسهم، قال الباحث ذو البشرة السوداء بالتأكيد ستتذكرونني فأنا هو الشخص الذي يرتدي ربطة عنق حمراء! في الحقيقة، لقد كان يسخر من ردّة فعل البعض بعدم الاكتراث (أو التظاهر بعدم الاكتراث) للفوارق العِرقية التي حاولوا أن يتجنبوها ربما بطريقة فجّة.

والحقيقة العلمية هي أننا لولا الاختلافات الظاهرية، لما أمكننا أن ندوّن الفوارق الجينية بين الأعراق المختلفة. والسؤال المطروح هنا؛ لماذا نشأ هذا التخالف بين الفوارق المظهرية للأعراق المختلفة، بينما تشابهت بشكل متقارب جداً من الناحية الجينية؟

لماذا نختلف في الشكل الخارجي كثيراً، ونتطابق في النظام الجيني جداً؟

صحيح أن الفوارق بين الأعراق هي فوارق بسيطة بالكاد تذكر، لكن ليس من الصحيح أن نستنبط منها أن الاختلافات العرقية (لا أهمية لها)! أو أنها مفهوم بلا معنى. هذا الأمر جرت دراسته في بحث متميز قدمه عالم كبير في الجينات من جامعة كامبريدج هو أي. دبليو. إف. إدوارد (A.W.F Edward)؛ البحث كان تحت عنوان «الفوارق الجينية البشرية؛ مغالطة ليونتن».

وآر. سي. ليونتن (R. C. Lewontin) هو باحث معروف تخصص في موضوع الجينات الكمّية، أو جينات الشعوب. لكنّه عُرف بجرّه لمجالات البحث مساحة من قناعاته السياسية. وقد حاول الربط بين هذه القناعات والحقائق العلمية في كل فرصة أتيحت له. لقد تحوّلت آراء ليونتن إلى ما يشبه الأرثوذوكسية العلمية في الدوائر البحثية والأكاديمية المشتغلة بشأن الجينات الكمّية. وكتب في بحث له يعود إلى عام 1972 يقول: «من الواضح أن تصوراتنا عن الفوارق الكبيرة بين الأعراق الإنسانية والمجموعات الفرعية الكبيرة الأخرى، والفوارق بين الكائنات المنتمية لتلك المجموعات، إنما هي تصورات أنتجتها اختيارات العينات العشوائية من الجينات التي جرت دراستها ومقارنتها. ومع هذا، فإن الفوارق بين الأعراق البشرية إنما هي أقلّ مما نراه بين أعضاء المجموعات النوعية الأخرى».

وهذا بالضبط ما أجادل لصالحه، وأعتمد عليه في تفسيري هنا للتماثل الجيني الإنساني، لكن لنعد إلى ليونتن ونتمم ما قاله: «لكن التصنيف العِرقي للبشر، لا يعود أمراً ذا قيمة. طالما أنه لا يحمل أي عدالة اجتماعية، وطالما لا يؤدي إلى ارتقاء نوعي في الحياة الإنسانية،

وبالتالي لا معنى لتقسيم البشر وفقاً لأصولهم العِرقية التي هي متماثلة جينياً، ولا يمكن التنبؤ باختلاطها وفقاً للفترات الزمنية السحيقة».

بالتأكيد هذا طرح ممتاز يمكننا جميعاً أن نوافق عليه. وهذا هو أحد الأسباب التي تدفعني إلى مُعارضة تأشير المربّعات العِرقية في الاستمارات وتقسيماتها التي هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. لكن هذا لا يعني أن دراسة الاختلافات العرقية هي أمر مرفوض، لأن هذه الاختلافات مهما كانت ضئيلة فإنها ما زالت غنيّة بالمعلومات، وتخبرنا (ويمكن أن تخبرنا) بالكثير. يمكن أن تدلّنا على مناطق بحثية وعلمية لم نكن نتصوّر وجودها.

وحينما نقول إنها (غنيّة بالمعلومات)، فهو معنى دقيق جداً. فالشيء الغني بالمعلومات هو ذلك الشيء الذي يخبرك بما لم تكن تعلم به من قبل. ومعيار الغنى المعلوماتي يقاس أيضاً بالمستوى الجديد من اليقينية الذي ستنقلك إليه هذه المعلومات بعد أن تحوزها.

لو قلت لك أن (أيفيلين)[1] هو ذكر، فستبدأ بترتيب مجموعة من التصوّرات في ذهنك على الفور عنه، هذه التصوّرات هي معلومات استدعتها إلى ذاكرتك كلمة (ذكر). وستتراجع عندك الصورة الضبابية حول تصنيفه التناسلي.

الآن أنت تعرف المزيد من الحقائق عن كروموسوماته، وهرموناته، وباقي التوصيفات المتعلّقة بالفعاليات الحياتية الكيميائية له. والآن أيضا

---

(1) هذا الاسم ـ المثال، يستعمله د. دوكنز باعتباره اسماً مناسباً في الاستخدام للذكر وللأنثى على حد سواء، وبالتالي لا يعطيك الاسم تصورات ابتدائية عن جنس الشخص المتحدث عنه.

صار لديك تصوّر عن طبقته الصوتية، وتوزيع الشعر على وجهه، وباقي ملامحه الجسدية. لكن كلمة (ذكر) تصبح غير مفيدة لتعطيك تصوّراً عن قدرات أيفيلين العقلية، أو براعته في تنفيذ الأفعال اليدوية؛ وهذا يخالف ما كان يظنّه علماء العصر الفيكتوري.

في الحقيقة، هناك عدد كبير من النساء يمكن أن يتفوقن على عدد كبير من الرجال، سواء في حدّة الذكاء، أو في عدد من المنافسات الرياضية، أو البراعة في تنفيذ الأشغال اليدوية، على الرغم من أن أفضل الرجال يمكن أن يتفوق طبيعياً على (أفضل) النساء. لم يغير قولنا إن أيفيلين هو (ذكر) من تعسّر تحديد قدراته الجسمانية أو العقلية.

وبالعودة إلى سؤال العِرق، لو قلنا بأن (سوزي)، هي أنثى صينية، فسيتبادر إلى ذهنك لأوّل وهلة أنثى بشعر أسود ناعم وسارح. كما أن عينيها بها طيّة من الناحية الأنسيّة الداخلية (كما في طيّة أعين الآسيويين في شرق القارة، هل جميعهم بالفعل لديهم هذه الطيّة؟)، وربما بعضاً من الصفات الظاهرية الأخرى.

لكن، بالعودة إلى مثال كولن باول، فلو أخبرتك ببساطة بأنه من عرق أسود، فهذا لا يعني أنه (أسود) بالفعل. لكن المعايير العامة التي يتعارف عليها الناس لتمييز الأعراق (والتي قلنا إنها غير مكتوبة ولا يمكن تحديدها بدقة)، ستصنّف كولن باول على أنه أسود. وهي بذلك ستكون مصدراً لمعلومة خاطئة ومضللة.

لقد خضنا في هذا النقاش من أجل أن نحكم، فيما لو كانت معاييرنا لتمييز العرق يمكن لها أن تخبرنا بمعلومات صحيحة أم لا، وهل يمكن أن تصبح مصدراً صحيحاً للمعلومات؟

لنفترض بأننا أخذنا صوراً لوجوه عشرين شخصاً تم اختيارهم بصورة عشوائية، من شعوب البلدان التالية؛ اليابان، مصر، غينيا الجديدة، أوغندا، سريلانكا، آيسلاندا. وفي الحصيلة ستكون لدينا 120 صورة، ثم عرضنا الصور كلها على أشخاص نطلب منهم أن ينسبوا الوجوه إلى البلدان الستة، كلاًّ حسب ما يظن بأنهم ينتمون لها. في تقديري الشخصي، فإن كل واحد من الأشخاص الذين سيخضعون للاختبار سينجز المطلوب بنسبة عالية جداً من الاختيار الصحيح. أنا أثق بأن هذا ما سيحدث. وأثق أيضاً بأنكم ستوافقوني على حدسي هذا.

إن عدم تنفيذي للتجربة (ومع ذلك تجدونني أؤكد نوعية مخرجاتها) يبدو أمراً فجّاً غير علمي من جانبي. بل إن تصريحي بتوقعي أنكم ستوافقوني هو تصريح عشوائي (غير علمي أيضاً). وهذه هي النقطة بالذات التي أريد أن ألفت انتباهكم لها. رغم أنه شيء غير علمي وغير مبني على إحصائيات، إلّا أنه يمكن أن يسمى كما أسلفنا بـ(محددات متفق عليها بين الراصدين).

أنا لا أظن بأن ليونتن، فيما لو أجرى التجربة التي وصفتها للتو، فإنه سيخرج بنتائج غير التي توقعتها هنا. وتوقعت بأنكم توافقوني حول نتائجها المتوقعة. ومع هذا، فإن ادعاء ليونتن بأن دراسة التصنيف الجيني للأعراق البشرية هي أمر «غير مجد، وسيكون غير ذي قيمة ظاهرية في المعلوماتية»، هو توقّع من جانبه لا يتطابق مع مفهوم المحددات المتفق عليها بين الراصدين الذي سبق أن شرحناه.

وباختصار، فإني أرى بأن إدوارد كان على حق في استنتاجاته، بينما كان ليونتن مخطئاً. ومع هذا، فأنا أساند تماماً ما ذهب إليه ليونتن من أن

التصنيف العرقي للناس يمكن أن يؤدي إلى نتائج تخريبية في المجتمع، خاصة لو تم استخدام العِرق كمعيار للتعامل التمييزي مع الناس، سواء كان تمييزاً إيجابياً أم سلبياً.

إن ربط شخص ما ـ عبر عملية تحديد هويّته ـ بالعِرق الذي يتحدّر منه، لن يكون أمراً كاشفاً للمزيد من المعلومات عنه. عِرق الإنسان قد يجعلنا نتنبأ ببعض الصفات الظاهرية المتعلقة بشكله فقط، لكنه لن يخبرنا بأي شيء يتعلّق بمهاراته، أو قدراته، أو درجة ذكائه، أو تأهيله لأداء مهمة ما.

واحدة من أفضل التجارب المقارنة هي تجربة القبول بالالتحاق بالأوركسترا الوطنية. حيث يُطلب من العازفين أن يؤدوا مقطوعاتهم خلف ستارة تحجبهم عن المُستمعين أو الفاحصين، وعليهم ألّا يتكلموا كي لا يكشفوا عن شخصياتهم. حتى إنهم قد توجب عليهم أن يخلعوا أحذيتهم كي لا يكشف وقع الكعب العالي للنساء عن جنس المشاركين بالعزف. لقد كانت كل تجارب التمييز العنصري بناء على العرق أو العنصر، تؤدي في النهاية إلى اختيارات خاطئة تماماً. واليوم، هناك إجماع على أن نظام الفصل العنصري الذي كان قائماً في جنوب أفريقيا إنما كان هو الشر بعينه.

وبذات الآليات، يمكن أن ننتقد ما قد يراه البعض بأنه «تمييز إيجابي»، ومثاله المخيّمات الطلابية التي تضم الطلّاب من الأقليات العرقية في الولايات المتحدة. إن انعقاد الجمعيات والتجمعات على أساس ضم الناس من عِرق محدد، يبدو وكأنه يخاطب التاريخ التمييزي الذي تعرّض له أسلاف هؤلاء، ويذكرهم به عبر مخاطبتهم كأفراد. إن

الأفراد هم أشخاص مستقلون ومفردون، ولا يمكن تحميل شخص ما تبعات ما اقترفه أسلافه، أو أن يجني الشخص نفسه اليوم تعويضاً عمّا تعرض له أسلافه.

لكن، لو كانت الصفات الخارجية والملامح العامة التي يمكن للملاحظ أن يتخذها مفتاحاً للتمييز بين الأعراق الإنسانية، لو كانت هذه الصفات غير فاعلة تماماً حينما يجري مقارنتها بالقدرات الفردية، فلماذا تمكنّا من رصدها؟ ولماذا تبدو باقي الكائنات متشابهة بالنسبة لنا، بينما هي مختلفة كثيراً في أساسها الجيني، وهذا الافتراق لا يشبه أبداً افتراق الأعراق الإنسانية عن بعضها البعض.

فهل هذا يعني أننا كنّا دائماً نحمل ميولاً نحو التمييز بين الناس على أساس العِرق؟ لقد جعلتنا هذه القدرة التمييزية نقبل بأن نُصنّف مجموعة من الكائنات (المختلفة في حقيقتها) ونتعامل معها على أنها جنس واحد (القردة مثلاً تحمل بينها اختلافات جينية أكبر مما يمكن أن نلاحظه عبر النظر الخارجي)، بينما دفعتنا هذه (القدرة التميزية) إلى أن نتعامل مع الناس من الأعراق المختلفة بدرجة جرى اعتبارهم فيها مخلوقات أخرى! وذلك في مراحل شديدة من التمييز العِرقي الذي مارسه الإنسان على مرّ التاريخ، فقط بالاعتماد على الشكل الخارجي.

إن التفسير الأكثر مقبولية لهذا السلوك، هو أن أعضاء النوع الواحد يطوّرون في العادة مَيلاً قوياً إلى التعامل بحساسية مُفرطة مع الأعضاء الآخرين من النوع ذاته، ويبدون تحسساً عالياً لأي اختلاف أو مغايرة تبدو على عضو ما. فالشمبانزي التي نراها نحن بأعيننا متطابقة الأشكال، إنما تنظر إلى نفسها باختلافات واضحة.

ربما يكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي عانى من اختلاف شديد في البيئة نتيجة هجرته خروجاً من أفريقيا إلى أصقاع أخرى من الأرض، وكان اختياره الخروج قد حدث بالتزامن مع التطوّر العقلي الذي اكتسبه. بل إن أصل الانتقال هو تفكير مركّب وإدراك للأبعاد الجغرافية لا تمتلكه باقي الكائنات إلّا بشكل غريزي كيميائي. كل هذا، حدث تحت تأثير من الضغط الشديد لماكينة الانتخاب الطبيعي. لقد تمايزت العلامات الخارجية للإنسان بدرجة أوضح بكثير من باقي الكائنات ضمن النوع الواحد بسبب أن المظهر الخارجي (الجلد، الشعر، الوجه، الطول... الخ) كان عليه أن يتحمّل الفوارق الشاسعة بين البيئات التي اختلفت بمرورها على أجيال الإنسانية.

فقد انتقل الإنسان من المناخات الرطبة إلى المناخات الجافة، ومن السهوب إلى أعالي الجبال، ومن المناطق القارّية إلى المناطق الساحلية، ومن ضفاف الأنهار إلى العيش في الصحاري، كلّاً حسب الظرف الذي مرّت به الجماعة البشرية المتنقلة. ولهذا، كان على المظهر الخارجي أن يتكيّف (عبر الانتخاب الطبيعي البطيء الحدوث) كي يتجاوب مع البيئات الجديدة. بل إن الأمر كان ليصبح مثيراً للدهشة لو أنّ المجموعات البشرية لم تختلف فيما بينها استجابة للبيئة.

لقد كان الأفراد من أعضاء مجتمعات الصيد في وسط أفريقيا، وجنوب آسيا، وأميركا الجنوبية في معظمهم انتهوا إلى أن يكونوا صغاراً في الحجم وقصاراً في القامة؛ لأن طول القامة وضخامة الجسم ستكون صفة معوّقة في الغابات الكثيفة. أمّا الناس الذين يعيشون بعيداً عن خط العرض، فإنهم بحاجة إلى كل ما أمكن أن تمتصّه بشرتهم من أشعّة

الشمس، من أجل إنتاج فيتامين (D)، ولهذا كانت بشرتهم أكثر رقّة، وأقل قتامة من الآخرين، وفي ذات الوقت أطول في قامتهم. إنه لأمر جدير بالتقييم العقلي الإيجابي أن نكتشف تأثير الاختلافات الجغرافية والمناخية في تغيير المظهر الخارجي للمجموعات البشرية، والتي منحته اختلافاً عِرقياً (من الخارج فقط). في الحقيقة فإن هذه المؤثرات المتباينة لم (تغيّر) من صفاتنا الخارجية، لكنها عوامل ساعدت على إنجاح عملية الانتخاب الطبيعي البطيء التي جرت عبر أجيال متعاقبة خلال فترة امتدت منذ مليون وثمانمائة ألف عام لغاية العصر الجليدي الرابع الذي حدث قبل ما يقارب من 110 ألف عام. ولقد تمكّن الإنسان من تجاوز هذه العصور، فقط بفضل التكيّف الذي وفره الانتخاب الجيني الملائم للبيئة الجغرافية، رغم قسوة تلك التنوّعات البيئية.

لكن هذا التغيير طرأ على المُحددات والصفات الخارجية المظهرية فقط، وترك باقي الصفات الداخلية متطابقة جينياً تقريباً، إذ كانت بالفعل قد وصلت إلى غاية من الرُّقي، وأصبحت بالفعل تناسب كل البيئات.

ربما يكفي هذا التفسير لفهم أسباب الافتراق المظهري بين الجماعات البشرية المختلفة، وبينما بقيت التفاصيل الجينية الباقية متطابقة. ومع هذا، فالأمر لا يبدو كافياً بالنسبة لي كتفسير. إن الجنس البشري (وبالأصح؛ النوع الإنساني)، هو نوع متطابق جينياً إلى حدّ كبير. ومع هذا، فهناك افتراق في الجينات المسؤولة عن المظهر الخارجي بين المجموعات البشرية المختلفة، لماذا؟

هنا، أفترض أن المسؤول عن هذا الافتراق هو عامل مُضاف لما تقدّم شرحه، وهو عامل يسمى بـ «الانتقائية الجنسية».

إن النوع البشري، هو كائن محكوم بمحددات ثقافية معقدة، ومن الصّعب عليه الإفلات منها. هذه المحددات، أصبحت عاملاً مضافاً يفعل فعله إلى جانب ما أشرت إليه من ضغط الانتخاب الطبيعي الناتج عن اختلاف البيئات الجغرافية.

الثقافة، وفي بعض الأحيان الدين أيضاً، يؤثران في طبيعة اختيار الفرد للشريك الجنسي. وهي في العادة، تتخذ موقفاً غير مرحّب بالدخلاء على الجماعة البشرية. هذا الموقف ينشأ من الخوف على المحتوى الثقافي، وهو ما ينعكس بالتالي على طبيعة انتقاء الشريك الجنسي. إن الانتقائية الجنسية هي التي أثّرت في تغيير المظهر الخارجي تفريقاً عن باقي الجماعات، وتقريباً له داخل الجماعة الواحدة. وأجد أن أفضل المفكرين الذين كتبوا في هذا الشأن هو جاريد دايموند (Jared Dimond)[1]، حيث صاغ نظرية متكاملة في هذا الشأن، واستكمل ما كان دارون قد تعلّق به من صفات الانتقائية الجنسية لتفسير الفوارق العِرقية.

لدينا هنا الآن نسختان من الأساس النظري لتفسير الفوارق العرقية؛ النسخة الأولى هي ذات أساس نظري متين، والنسخة الثانية من التفسير هي ذات أساس نظري ضعيف.

التفسير الأول يفترض أن الملامح الخارجية، قد تشكّلت وتمايزت بفعل الاختيار التمييزي الذي مارسه البشر عند انتقائهم لشركائهم الجنسيين.

---

(1) د. جاريد دايمون (Jared Dimond)؛ عالم أميركي في الفسلجة والأحياء، وعلوم البيئة. يعمل حالياً في جامعة كاليفورنيا/ لوس انجليس. عُرف بكتابه الشهير «الشمبانزي الثالث» (1991)، وفيه تتبع التطور البيولوجي للإنسان المتأخر، ودرس الانعكاسات الأنثروبولوجية على هذا التطوّر، عبر الدلائل الأحفورية.

والتفسير الثاني، يعتمد أسباباً مثل الواقع الجغرافي الذي فرّق الجماعات الإنسانية، والفوارق الثقافية، والدينية، التي أدت في البداية إلى تمييز بين الأعراق المختلفة. ثم بعد ذلك قادت إلى تشكيل قواعد جديدة لانتقاء الشريك الجنسي.

وما إن فَعل التمايز الثقافي فعله في التفريق بين الجماعات، حتى بدأ بعد ذلك التطوّر يأخذ مجراه داخل الجماعة الواحدة لينتج تميزاً وتفريقاً في الملامح الخارجية لأعضائها مما شكل خصوصية لهم، بينما بقيت الدواخل الجينية وباقي المميزات الجينية بلا تغير.

يعني أن اختيار الشريك الجنسي كان يتم وفقاً لمعيار (من بين معايير مختلفة ومتعددة أخرى)، يتضمّن اختيار الشريك الأكثر شبهاً، أو الأقرب إلى الصفات الظاهرية العامة للجماعة.

إن الجماعات الأولية من أسلافنا كانت قادرة على الافتراق والتمايز إلى عِرقين جماعيين مختلفين اثنين فقط، لو أن حدثاً كبيراً ساعد على التفريق، وهذا يفترض أن يكون حدثاً ذا وقع جغرافي واضح. من الممكن أن تشكل سلسلة جبال مثلاً عائقاً بين سكّان واديين تمنعهم من التلاقي واسع النطاق، عندها ستكون التغيرات الجينية (نتيجة الانتقاء الجنسي للشريك ضمن وادٍ محدد) ستحدث في الواديين بصورة مختلفة وبعزلة أحدهما عن الآخر. وبالتأكيد هنا فإن التطوّر الجيني (الذي انطلق على ضوء الفوارق الثقافية) سيحدث بصورة مغايرة بين وادٍ وآخر، لكن الحدث الجغرافي الأولي الذي أفترضه هنا، سيكون ضرورياً جداً للبدء بهذه التفاعلات المتراكبة.

هنا سنواجه نوعاً من التناقض وتعارض الاتجاهات الفكرية. فبعض

الدارسين والباحثين سيتصوّرون بأن المُسبب للفروقات إنما هو مسبب جغرافي، بينما سيتصوّر البعض الآخر (وبخاصة المختصّون في مجال علم الحشرات)، بأن المسبب هو ضربٌ مما يعرف بـ(نشوء الأنواع بالتوافق مع الاستيطان)، أو ما يسمى بـ(التنوّع الاستيطاني). وهو ما يعني بأن الحدث المُفرّق الأولي ـ أيّاً كان شكله ـ فهو لم يكن حدثاً جغرافياً بالمرّة.

كيف يكون شكل هذا الحدث إذاً؟ لنتأمل المثال التالي:

إن عدداً كبيراً من الحشرات التي تتغذى على نوع معيّن من النباتات، إنما تضع بيوضها على ذلك النبات. ثم تنمو اليرقات على تلك النباتات الحاضنة، وتتغذى على النبات نفسه. وحين تصبح اليرقة حشرة كاملة ستعيد الكرّة وتضع بيوضها هي الأخرى على النوع ذاته من النباتات. لكن لو حدث وأن «أخطأت» إحدى الحشرات ووضعت بيوضها على نبات مُقارب، أو مشابه، أو حتى نبتة من نوع آخر، فستنشأ اليرقات وهي تتغذى على ذلك النوع الجديد. وحين يدنو دورها لتصبح حشرة كاملة، فإنها على الأغلب ستختار النبات الجديد (النبات الذي اختارته أمّها بالخطأ) لتضع بيوضها عليه، ولن تعود إلى النبات الذي فضّله أسلافها.

في حالة هذه الحشرة (التي أخطأت)، فإننا نلاحظ حدوث تغير جيني خلال جيل واحد أو جيلين على أكثر تقدير. وهنا يمكن أن نفترض نظرياً أن جيلاً جديداً قد حاز على تغيير جيني دون أن يكون هناك تغيير أو حدث جغرافي قد تسبب بذلك. الأمر كان مجرّد (خطأ) في التقدير وقعت فيه حشرة واحدة من بين باقي الحشرات (اللواتي نفترض أنهن

لم يخطئ النبات المضيّف). والآن لدينا حرفياً نوعان من الأعراق، نتجا عن طريق خطأ وقعت فيه حشرة.

أو أن هذا الحدث يمكن صياغته بالشكل التالي: إن الفرق بين نوعين من النباتات المُستخدمة لتغذية نوع واحد من الحشرات قد فعل ما يمكن أن تفعله سلسلة جبلية تفرّق بين قطيعين من الحيوانات، لتجبر كل قطيع أن يتناسل بمعزل عن القطيع الآخر في وادٍ مختلف. وبالتأكيد سيكون أمام الحيوانات من الأعضاء في المجموعتين المختلفتين طرق تمييزية لكي تتعرف على أعضاء مجموعتها وتميّزها عن عضو آخر نشأ في وادٍ آخر.

في مثال الحشرة، نجد أن الخطأ في اختيار النبات الصحيح لوضع البيوض قد تسبب في تغيير رغبة اليرقات أن تتغذى على نبات ما، وتسبب أيضاً في خلق فرصة أخرى للقاء الذكور (وبالتالي انتقاء شريك جنسي من نوع مختلف) عند نبات لم يتعوّد أسلاف تلك الحشرة أن يلتقوا عنده لغرض التزاوج. مكان جديد للتزاوج، يعني فرصة للقاء شركاء جنسيين يختلفون قليلاً عن المعتاد.

وعلى أرض الواقع، فقد حقق الانتساب الجديد تغييراً أفقياً في (تقاليد) النوع الذي تنتمي له هذه الحشرة، وسينتقل هذا التغيير إلى الأجيال اللاحقة.

وليس علينا أن نفترض سريان الأمور في نوع الإنسان بطريقة مختلفة كثيراً. وبدلاً من تبدّل نوع النبات المغذّي، فهناك عامل اللغة، والدين، والتراث الموروث عن الوالدين. وفي كل هذه الأشياء يمكن أن تحدث «أخطاء نقلية» تكفي بالنهاية لتغيير التقاليد. وتسهم في تغيير

نوعية معايير الانتقاء للشريك الجنسي. ومثلما حدث أن تلتقي الحشرة بشريكها على أوراق نباتها المفضّل، فالناس يميلون إلى اللقاء مع من يماثلهم في اللغة، ومع من يعبد إلهاً مشتركاً معهم، لكن المشكلة أن الأخطاء تحدث دائماً. وهذه الأخطاء لا تمر أبداً دون أن يكون لها توابع ونتائج مهما كانت ضئيلة.

هذه الفوارق يمكن أن تعمل عمل السلاسل الجبلية التي حالت دون لقاء مجموعات معيّنة من أسلافنا مع مجموعات أخرى.

ومن هنا، وتأسيساً على الجزء الضعيف في هذه النظرية، يمكن أن نفترض تراكم الفوارق الجينية عند الأطراف المتناظرة من المجموعات البشرية، والتي تختلف في اللغة، أو الدين، أو التطوّر الثقافي، وبالتالي تنمو جيناتها بمعزل عن بعضها البعض.

أو أن نؤسس على الجزء القوي من النظرية، فنفترض بأن الفوارق الجينية التي بُنيت تشهد تعزيزاً لوجودها، كلّما أظهر الناس ميلاً إلى التمييز وفقاً للعرق.

يعني باختصار، أن الفوارق الجينية في المظهر الخارجي، قد أدّت بالفعل إلى تمييز ثقافي أقل ما يقال عنه بأنه عنصري بغيض. لكن مواصلة اعتماد المعايير العِرقية للحكم على الناس ستؤدي إلى تعزيز هذه الفوارق.

لهذا، فإن الفوارق التمييزية (على أساس العِرق) التي يجري تلقينها للأطفال ستتسبب فيما بعد بإحداث فوارق حقيقية، لهذا سيكون سؤالنا المستقبلي لمجموعتين عِرقيتين إنسانيتين هو: هل تورّط التمييز العنصري وفقاً للون البشرة، في تأسيس حقيقي خطير للفوارق الجينية؟

(9)

هل تتزعم الولايات المتحدة حركة الثيوقراطية في العالم؟

حوار لدوكنز مع كريستوفر هيتشينز (Christopher Hitchens)، في مسائل عن الله والولايات المتحدة.

* * *

كريستوفر هيتشينز (1949 ـ 2011)؛ كاتب وصحفي أميركي من أصل بريطاني. وناقد ثقافي واجتماعي معروف على نطاق واسع في الولايات المتحدة. درس العلوم السياسية والاقتصادية في جامعة أكسفورد البريطانية. كان عموده الصحفي هو الأكثر تأثيراً في الأوساط الشعبية الأميركية، خاصة الأوساط ذات التوجه اليساري. عرف بنقده للأديان الإبراهيمية، ووجّه انتقادات لاذعة للحركة الصهيونية، وكتب مراراً في تأثيراتها العنصرية حول العالم. صدر له ما يقرب من ثلاثين كتاباً، أصيلاً أو بالمشاركة مع مؤلفين آخرين. وفي مؤلفاته السياسية ناصب العداء لمستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق هنري كيسنجر، وعدّه ظاهرة عالمية سلبية، ومروّجاً للمفاهيم المغلوطة عن القوة والسلطة والهيمنة في الطبقة السياسية الأميركية.

كتب عن القضية القبرصية كتاباً مهماً عام 1984، وكتاباً آخر عن استحواذ القوى العظمى على الآثار العالمية عام 1987، وهو حصيلة بحث استقصائي تعلّق بقضية آثار يونانية تعرف باسم (منحوتات البارثيون). سبق لبريطانيا أن استولت عليها من اليونان، حيث باعها السفير البريطاني في أثينا إلى المتحف البريطاني في لندن عام 1817، وتحول والأمر إلى قضية قانونية بين البلدين قائمة لحد الآن.

وكتب كتاباً ينتقد فيه الأم تيريزا، باعتبارها داعية كاثوليكية تحرف الأنظار عن الأسباب الحقيقية للفقر. ونقدم منه هذا الاقتباس: «لم تكن الأم تيريزا صديقة للفقراء، بل كانت صديقة للفقر. كانت تقول إن المعاناة هي هدية من الله إلى الفقراء. وأمضت حياتها وهي تحارب العلاج الوحيد للفقر، وهو تمكين المرأة وتحريرها من كونها بقرة للإنجاب الإجباري. كل ما يعتقد الجميع أنهم يعرفونه عن الأم تيريزا هو خاطئ، يجب أن توصم وظيفتها بأنها واحدة من أنجح الوظائف العاطفية المخادعة في القرن العشرين».

ثم كتب بعد ذلك عدّة كتب، أهمها كتاب «حرب طويلة قصيرة؛ المعركة المؤجلة لتحرير العراق 2003». لكن كتابه الأشهر على الإطلاق صدر عام 2007، وهو كتاب «الإله ليس عظيماً، كيف يُسمم الدين كل شيء». في هذا الكتاب تعرّض للأديان الإبراهيمية الثلاثة، واتهمها (أو اتهم القوى المستغلة لها) بأنها تسيء إلى استقرار العالم والى الوجود الإنساني. من أشهر أقواله الناقدة للرئيس الأميركي الأسبق جورج دبليو بوش: «إنه غير ذكي بشكل يفوق الطبيعة، وغير مثقف بشكل أبعد من الخيال، وغير قادر على التعبير بشكل مذهل، وهو على ما يبدو فخور بذلك كلّه».

في هذا الحوار، يلعب ريتشارد دوكنز دور الصحافي الذي سيستنطق مفكراً مهماً وإشكالياً مثل كريستوفر هيتشنز، قضى حياته الصحفية يلاحق قضايا غاية في التعقيد وازدواجية المنفعة. أراد دوكنز القول بأن هناك من يفكّر مثله في تفكيك المقدّسات، ويناضل بالفعل من أجل حرية فكرية لا تخضع بسهولة للموروث الجمعي للناس. أجرى د.ريتشار دوكنز هذا الحوار مع كريستوفر هيتشنز ونشرته صحيفة «نيوستايتمان» الأميركية في أواخر عام 2011، وذلك بعد وفاة هيتشنز بأيام قليلة. ثم نشره موقع الصحيفة لأول مرّة كاملاً في سبتمبر/ أيلول من عام 2015.

* * *

د. ريتشارد دوكنز: كنت أقرأ بعضاً من آخر مقالاتك، في الحقيقة كنت منبهراً بحجم قراءاتك واطلاعك، يبدو أنك تقرأ كثيراً. في الحقيقة لم أسمع عن شخص بهذه السعة من القراءة منذ عهد ألدوس هكسلي (الروائي الإنكليزي المعروف).

كريستوفر هيتشنز: ربما يهمّك أن تعرف أن نتيجة كون الإنسان واسع الاطلاع، ربما تجرّ عليه المشكلات نفسها التي تصيبه فيما لو كان سطحياً ولا يتمتّع بمعرفة عميقة. في الحقيقة لقد أصبحت صحفياً لأنني لم أشأ التخصص في شيء معيّن. أتذكر أنني كنت في أمسية مع أمبرتو أيكو (الروائي الإيطالي)، وكنّا نتكلم فيها مع سوزان سونتاغ وهي روائية ومخرجة إيطالية، وفجأة ورد في الحديث مصطلح (التعددية الثقافية)، وقتها قال أيكو إنه يتمنى لو تمكن من جعل نفسه (مثقفاً متعدداً). وهنا اعترضت عليه سونتاغ بالقول: إن المثقف المتعدد الثقافات والاهتمامات، هو شخص مهتم بكل شيء، وبلا شيء آخر غير (كل

شيء!). لقد حظيت في طفولتي ونشأتي الأولى بمن يشجعني على سعة القراءة. فكنت «أحلّق وأرتشف»، وفقاً للشعار الذي كانت كلية (ووستر Wooster) تلقنه لطلابها. وأظن بأنني أمتلك ذاكرة قوية، لم أكن أحفظ ما لا أراه مفيداً، فقد كنت انتقائياً في هذا.

د. ريتشارد دوكنز: باعتبارك قد درست أعمال جورج أورويل مطوّلاً، فبالتأكيد تشكّلت لديك نظرة عن كوريا الشمالية، وعن ستالين والاتحاد السوفياتي، وربما واجهك الكثيرون باعتبارك ملحداً بالقول: إن ستالين كان ملحداً أيضاً.

كريستوفر هيتشنز: إننا لا نعلم بموثوقية بأنه كان ملحداً، لكن هتلر على سبيل المثال لم يكن ملحداً بكل تأكيد. وعلى العموم، فإن الإلحاد لا يفرض على الشخص تبني أي منهج سياسي بعينه.

د. ريتشارد دوكنز: الذين نفذوا أعمال هتلر القذرة كانوا معظمهم من المتدينين. وهناك دلائل على علاقة ما بين الكنيسة الكاثوليكية والنظام النازي.

كريستوفر هيتشنز: إذا كنت تكتب عن صعود التيارات الشمولية الأوروبية في الثلاثينيات، فمن الممكن استخدام تعبير «الفاشية» في وصف هذه التيارات في إيطاليا. لكن في البرتغال، أو تشيكوسلوفاكيا، أو النمسا، فإن المعادل السياسي لهكذا تيار كان هو «اليمين المتطرّف للأحزاب المسيحية (الكاثوليكية)»؛ كانت كل تلك التنظيمات الحزبية تقريباً على علاقة جيدة بالفاتيكان، وكانت تعمل بمباركة من الكرسي الرسولي. وهو أمر لا يخفيه أحد. وهذه العلاقة انحسرت بعد الحرب العالمية الثانية، وانتقلت عملياً لدعم الأحزاب اليمينية المسيحية (الكاثوليكية) في الأرجنتين وأماكن أخرى حول العالم.

د. ريتشارد دوكنز: لكن هناك من الواعظين الدينيين من قدّم خدمات خيرية وجليلة حول العالم.

كريستوفر هيتشنز: ليس بالحجم الذي يستحق الذكر، ولو كان هناك الكثير منهم لكنت علمتَ بأمرهم وأسمائهم على الأقل. أرى أن الأحزاب اليمينية تلتزم الصمت تجاه الاستحقاقات الاشتراكية والاجتماعية الوطنية حين يجري التذكير بها وسط الصراع السياسي الديني. في الحقيقة، لقد سعى النازيون إلى حيازة نوع من العبادة الخاصة بهم. وبرزت تلك المساعي حالما بدأ التبشير والتعريف الدعائي بأن الألمان هم عِرق يختلف عن باقي البشر. وبالفعل، فقد جرت محاولات عديدة لاستحضار عدد من القصص الخيالية والخرافية، واعتبارها تاريخاً للعِرق الألماني وللنازية. ولقد أرادوا أن يهيمنوا على الكنيسة، وقدموا عروضاً سخية لعقد صفقة معها. وكان الاتفاق الأول الذي عقده هتلر مع الكنيسة هو الإبقاء على البابوية، ثم انتزع نظام التعليم من أي هيمنة للكنيسة والمؤسسة الدينية. كانت الاحتفالات بعيد ميلاد هتلر تبدأ من منبر الوعظ في الكنائس التي يدعو له فيها قساوستها. وحين نجا من محاولة الاغتيال، تليت الصلوات في كل الأديرة والكنائس حتى في الفاتيكان.

د. ريتشارد دوكنز: كان هناك طقس يتمثل في أكل بعض الأعشاب قبل الطعام تأسياً بأن الفوهرر كان نباتياً. وهناك أيضاً تأليه بطريقة أخرى، وهي أن الفرد عليه ألّا يحنث بالقسم الذي أدّاه إلى الفوهرر أبداً طوال حياته. وهذا ما يخرج تماماً خارج نطاق الإلحاد المفترض.

كريستوفر هيتشنز: لقد ذكرت مثالاً بالنظام في كوريا الشمالية. إنها

في الحقيقة دولة ثيوقراطية (دولة يحكم فيها الحاكم باسم الله، أو باسم إله ما) بكل المعايير. كما أنها ولّفت بين الخرافات والأحداث المتعلقة بالسلطة، فميلاد عائلة الزعيم (كيم إيل سونغ) يتم اعتباره حدثاً غامضاً أتى بالمعجزات. وليس هناك قاعدة منطقية كي نصف كوريا الشمالية وفقاً لها بأنها، دولة إلحادية فقط، أو أنها دولة علمانية فقط؛ سيبقى الوصف منقوصاً وغير دقيق. في الحقيقة إنها محاولات لخلق أديان جديدة على منصّة توفرها السلطة وتحتمي بها، فما فرقها عن الدين؟

د. ريتشارد دوكنز: لكن، على أرض الواقع لا يمكن الربط بين الإلحاد وإتيان الشرور وأفعال الاضطهاد. ومن جهة أخرى، يمكن الجدل اليوم حول العلاقة بين الدين وبواعث الشر، كما يحدث مع الإسلام السياسي المتشدد اليوم على سبيل المثال. وما يمثله ستالين وهتلر، قد وصل إلى مرحلة العبادة الفردية للزعيم بكل تأكيد، وهذا لا يمكن ربطه بالإلحاد قدر ارتباط الأمر بصورة الرعب التي يمثلها شخص متألّه له سلطة مطلقة.

كريستوفر هيتشنز: ولهذا أقول إنها سلطات «دينية» قبل أن تكون سلطات دكتاتورية، أو قبل أن تحمل صفة الإلحاد. بالتأكيد هم مُلحدون فيما يتعلّق بالديانات الشائعة، لكنهم شرعوا بالفعل في خلق ديانتهم الخاصة، والاعتراف بربوبية إلههم الخاص.

د. ريتشارد دوكنز: لديك رأي وموقف مهم من النشاط الخيري الذي تديره المؤسسة الدينية، الكاثوليكية على وجه الخصوص. إنها تدير أعمالاً ومساعدات حول العالم، لكنك وجّهت انتقادات عميقة لها بهذا الشأن.

كريستوفر هيتشنز: نعم، صحيح أن هناك من هذه الأعمال الخيرية ما

ساعد الناس، لكن الكنيسة كانت تبتغي من وراء أفعالها توجيه الفقراء فكرياً، وحتى تسميم أفكارهم. لقد أنفقت الكنيسة أموالاً طائلة في سبيل حثّ الفقراء على عدم استخدام الواقي الذكري مثلاً، لأنه يمنع إرادة الرّب حسب زعمهم. وكلّنا نعرف أن استخدام الواقي الذكري يمكن أن ينقذ الأرواح، ويمنع انتقال الأمراض، ويقلل من معدّلات الإنجاب. إن هذا النشاط ليس نشاطاً خيرياً خالصاً، إنه لا ينفك عن محاولات (تجنيد) الفقراء وجعلهم يعملون لحساب السلطة الدينية في النهاية، سواء كانوا دُعاة أم مُنقادين. في الحقيقة لم أنظر لأي من العاملين في حقل المساعدات التي تديرها الكنيسة بعيداً عن نموذج الأم تيريزا.

د. ريتشارد دوكنز: لديك رأي في الأم تيريزا أيضاً، كيف تجدها؟

كريستوفر هيتشنز: لقد مضت الأم تيريزا تعظ الفقراء حول العالم بأن الفقر هو هدية من الله. وكانت تدعو إلى منع النساء من التحكّم بأنفسهن في القدرة على الإنجاب، وليس للمرأة أن تقرر متى تنجب. لقد استغرقت حياتها كلّها في الترويج ضدّ الحل الوحيد الذي يمكن أن يساعد الفقراء وينتشلهم من واقعهم (أعني تنظيم الإنجاب). وكان رئيس الوزراء توني بلير يعلم جيداً هذه النقطة حين حاورته، لكنه لم يؤكدها كما لن ينفها، واكتفى بعدم التعليق. أذكر هنا قولاً للكاردينال نيومان (Newman)، يقول فيه إن من الأفضل للعالم أن يتحطم، ويخلد في الجحيم إلى الأبد لو أن سارقاً سرق ستة بنسات وأفلت بجريمته. تصوّر مستوى الأولويات الذي يمكن أن تديره هذه المؤسسات التي تسمي نفسها وعملها بأنه عمل خيري.

د. ريتشارد دوكنز: من المدهش كيف أن اليساريين واليمينيين يكمّل

بعضهم البعض من حيث التشابه في الدوافع، انظر إلى موقف أحدهم من الإجهاض، أو عقوبة الإعدام وستجد أن كل مواقفه السياسية الأخرى ستتبدى لك بسهولة، لكنك كسرت هذه القاعدة بوضوح...

كريستوفر هيتشنز: أنا أتخذ موقفاً أساسياً ابتداءً، وهو أن أكون ضد الشمولية. الشمولية المستندة على اليمين، أو تلك التي تنطلق من اليسار. الشمولية في رأيي هي العدو الحقيقي؛ إنها لم تقتصر على محاولة الهيمنة على القرار السياسي، أو الهيمنة على المقدرات الاقتصادية أو قرصنة الضرائب، بل إنها حاولت بالفعل الدخول والسيطرة والتحكم بعقول الناس. والعامل المشترك في أصول الشمولية اليمينية أو اليسارية هو الثيوقراطية الكامنة خلف التوجّه نفسه. وهي تتضمن في البداية افتراض أن هناك قائداً اعلى، أو (بابا) مسدداً من السماء، أو كاهنا أكبر للكنيس. شخص ما يحمل إلهاماً ذاتياً وسيخبرنا بما يتوجب علينا أن نفعله. وهذا يتوافر منه نموذج (علماني) أيضاً، على شكل المعلّم أو القائد العظيم، أو على شكل دكتاتور سفّاح. لكن الأساس هو نفسه.

وبالتأكيد ظهر مفكرون من الذين أدركوا هذه الحقيقة ـ جورج أورويل على سبيل المثال ـ لكن هناك محرّكاً داخلياً لدى معظم الناس يجعلهم يميلون إلى الخضوع والبحث عن شيء يعبدونه. لهذا فنحن لا نحارب الدكتاتورية فقط، إنما نوجه انتقاداتنا إلى الإنسانية وعموم الأفراد الذين يريدون أن يختصروا خطوط التفكير. إنهم يتصوّرون بأنهم ماضون في تسهيل حياتهم عبر الاستسلام والقول: «لو شملتني بالبركة التي منحها الإلهام لك، فأنا على استعداد أن أتخلى عن بعض من حريتي الفكرية في المقابل»؛ هذا لسان حالهم في الحقيقة. أنا أقول

هنا: إنها مساومة كاذبة وخادعة، إنها صفقة خاسرة لن تنالوا منها شيئاً في المقابل، إنه مجرّد تنازل أحمق.

د. ريتشارد دوكنز: أرى أن جزءاً من انتمائك اليساري السابق ما زال يواجه الشمولية، هل هو كذلك؟

كريستوفر هيتشنز: نعم، لقد كنت أعدّ نفسي تروتسكي الهوى. لكن، بالنسبة لنا فإن الحركة الاشتراكية يمكن أن تزدهر وتصبح محوراً حقيقياً قابلاً للحياة فقط لو أنها نبذت الستالينية وأدانتها. وأعني كل سلوك يقترب أو يتطابق مع سلوك ستالين في السلطة. إنها نقطة مهمة جداً بالنسبة لي أن أبيّن نظام ستالين بأنه كان في الحقيقة نظاماً دينياً ثيوقراطياً.

د. ريتشارد دوكنز: واحد من أهم المواضيع التي كتبت عنها، تمثلت في ترسيم الأطفال منذ الولادة بدين معيّن، ثم بعد ذلك تبنّي القناعات الجاهزة ليصبح عضواً مقتنعاً. ويكون لدينا «طفل كاثوليكي»، أو «طفل مسلم». مع أنه لا يعرف شيئاً عن العقيدة الدينية التي يتم وصمه بها لحظة ولادته.

كريستوفر هيتشنز: الحكومات تفعل هذا حتى دون رغبة الوالدين. فهي في الغالب تتعامل رسمياً مع الأطفال المولودين حديثاً وفقا لديانة والديهما. وقد اقتبست الإمبراطورية البريطانية وبعض أجزائها هذا السلوك من الإمبراطورية العثمانية السابقة. كان العثمانيون يسمحون بأن يكون المولود عندهم عثمانياً بالجنسية، لكنه يجب أن يُنسب إلى ديانة الأب أولاً، كأن يكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً. والجميع يعلم بأن تعاليم بعض الأديان تلقن أطفالها بأن أتباع الديانات الأخرى (حتى الأطفال منهم) سيخلدون في الجحيم بعد موتهم. أي عبارة غير «خطاب الكراهية» يمكن أن تصف هذا السلوك؟

د. ريتشارد دوكنز: ربما قد يسمى هذا السلوك بأنه إساءة واضحة للأطفال.

كريستوفر هيتشنز: هنا يتوجب علينا ألّا نساند ما يسمى بحق الوالدين في اختيار إيمان عقائدي خاص لأطفالهم. هذا كسر لحق حصري للطفل وللمجتمع. هل سيكون سهلاً إخبار الطفل بأنه كان محظوظاً بما يكفي كي يلتحق بإيمان الأب أو الأم ومعتقداتهما؟ أرى أنه من الصعب جداً وقف هذا السلوك، لكن على المجتمع أن ينظر بعين الارتياب إلى هذه الممارسات كي يساعد الطفل بتلمس مشاعر الحرية العقائدية مع بداية تكوينه الفكري.

د. ريتشارد دوكنز: في مقابل هذا الذي تقوله، هناك ميل لدى الليبراليين هنا في الولايات المتحدة أن يضعوا أمور الدين جانباً، ويفضلون الابتعاد عن مناقشتها، مع أنها موجودة في صلب الحراك السياسي والاجتماعي.

كريستوفر هيتشنز: أكثر من هذا، أنا أستشعر وجود حركة مضادة للتعنصر الديني. أي إنهم لا يناقشون الدين كونهم يشعرون بانتماء إلى منطقة قد نسميها منطقة: (لا تتكلم في الدين). وهو أمر مشين فعلاً.

د. ريتشارد دوكنز: المرشح الرئاسي الأميركي ميت رومني واجه سؤال التعصّب المورموني[1]، وفضّل أن يترك الموضوع في دائرة

(1) كان ميت رومني مرشحاً للحزب الجمهوري الأميركي للانتخابات الرئاسية لعام 2008. وهو رجل أعمال منتم للطائفة المورمونية، وسبق له أن عمل كمبشّر للطائفة (عملاً تطوعياً) في أوروبا. ويُعرف عن هذه الطائفة بأن كنيستها تنظر بتمييز عرقي حاد إلى الزنوج وغيرهم.

الحريات الليبرالية دون أن يكشف عن الترابط مع مواقفه الدينية كمرشّح رئاسي.

كريستوفر هيتشنز: بالتأكيد، وساندته الكنيسة أيضاً. لنتذكر أن الكنيسة المورمونية كررت مراراً فيما سبق بأن أرواح السود أو الزنوج ليست أرواحاً بشرية كاملة.

د. ريتشارد دوكنز: أظن أن هناك عُرفاً في الولايات المتحدة يقضي بألا يحاسب أو يُساءل الشخص عن متبنياته الدينية.

كريستوفر هيتشنز: نعم، وكانت حالة ميت رومني تشبه (لحظة حقيقة) أمام الناس، هل سيكونون قادرين على تجاوز حقيقة أن هذا المرشّح ليس مؤمناً عادياً، أو شخصاً وجد نفسه منتمياً إلى طائفة دينية، أو جماعة دينية ومن ثم عاش حياة متوازنة. إنه (داعية) بكل معنى الكلمة. وهذا الداعية يتمترس خلف مبدأ عام وسائد بألا يناقش الناسُ معتقدات الآخرين الدينية. المورمونيون، كطائفة، يدعون إلى زواج الأقارب، وتعدد الزوجات، ويفرضون مهوراً مالية في الزواج. ويرفضون الزواج من خارج طائفتهم. فهل نحن هنا نتعامل مع رئيس محتمل للولايات المتحدة، أم مع رئيس (مورموني) محتمل للولايات المتحدة؟ وكم هو حجم انعكاس طائفة هذا (الداعية) على كرسي الرئاسة فيما لو حصل وتم انتخابه؟

د. ريتشارد دوكنز: هل تظن بأن الولايات المتحدة واقعة الآن تحت خطر التحوّل نحو الثيوقراطية؟

كريستوفر هيتشنز: لا، لا أظن ذلك. الفئة الوحيدة التي تريد أن تنشئ دولة محكومة باسم الله، وباسم الإيمان هم البروتستانت الإنجيليكانيين،

وهؤلاء يرون أن الولايات المتحدة قد أنشأت أساساً على مبادئ أصولية بروتستانتية. ربما يكونون هم التهديد الأبرز لمستقبل الولايات المتحدة في هذا المجال. تاريخياً، كانت لهم صولات تنطلق من اعتباراتهم الدينية ومحاولة فرضها على الآخرين. وهم يتهزون المناخ والنظام الليبرالي من أجل تمرير الاعتبارات الدينية لهم، ففي العشرينيات من القرن الماضي، تمكنوا من تمرير قانون تحريم الخمور، ومنع تصنيعها، وبيعها. لكنّهم هزموا في النهاية. وتمكنوا أيضاً من منع الهجرة القادمة من البلدان التي لا تحتوي على أغلبية بروتستانتية، أو البلدان التي ليس فيها مواطنون يصطلح عليهم أنهم من (العرق الأبيض). ومع هذا، فشلوا، مثلما فشلوا سابقاً في فرض تدريس (النشوء التخليقي) في المدارس، وكانت هناك اعتراضات واسعة من المحاكم والنظام القضائي. ولا أظنّهم سيتمكنون لمرّة تالية من تجاوز ذلك الإخفاق؛ لقد شخّصهم المجتمع بقوّة.

د. ريتشارد دوكنز: وكيف وجدت آراء الناس؟ هل تلاقي الدعوات الأصولية صدى سياسياً يُعتد به؟

كريستوفر هيتشنز: من الجيد أنني كلّما زرت الولايات الجنوبية، وجدت أن عموم الناس يقولون صراحة بأنهم لا يرغبون بأن يتحولوا إلى أداة للسخرية بيد الوعاظ الأصوليين، من أمثال جيري فالويل[1]، وكان هناك رفض ساخر لقضيّة تعميم الصلاة الصباحية في المدارس

---

(1) جيري فالويل (Jerry Falwell)؛ قس أميركي أصولي (1933 ـ 2007)، وداعية تلفزيوني معروف. كان يروّج في مواعظه لأشد المواقف تطرفاً لدى الحزب الجمهوري الأميركي. واستخدم منبر أبرشيته في الولايات المتحدة للتحشيد لصالح الأجندة السياسية للحزب، وأسس ما يسمى (منظمة الأغلبية الأخلاقية)، وهي تكوين دعائي تورّط في السياسة والانتخابات.

الحكومية. حتى أن الناس يسخرون بالقول: «تعالوا... سنبدأ بالصلاة الهندوسية، وبعد ذلك ننتقل لبقية الصلوات، اليوم كلّه متاح أمامنا».

د. ريتشارد دوكنز: هناك من يتصوّر أن التطرّف الإسلامي تسبب في ردّة فعل مهاجرة باتجاه اللجوء إلى المسيحية لدى الأصوليين المسيحيين، أو حتى أولئك الذين كانوا خارج دائرة الأصولية في الولايات المتحدة. هل يمكن أن يتسبب الإسلام الراديكالي برأيك في إعلاء شأن الأصولية المسيحية؟

كريستوفر هيتشنز: في الحقيقة أعرف نماذج من المسلمين قرروا مغادرة الإسلام. لكنّهم فعلوا ذلك عن طريق المسيحية، أو عن طريقها وصلوا إلى حالة من اللا إيمان بشيء محدد (لا أدروية غير مُكترثة).

د. ريتشارد دوكنز: هل تخيّلت يوماً أن انسحاق المسيحية في العالم الغربي، يمكن أن يؤدي إلى فراغ ديني يتيح للإسلام أن يملأه؟

كريستوفر هيتشنز: لقد رتبت الأولويات ليس بتوقع أن تنسحق الأديان، وأن تختفي وتنقرض المسيحية على سبيل المثال. لكن، أن نعمل جهدنا الفكري والثقافي والتنويري من أجل أن نوصل للناس أن هناك اختيارات أخرى عظيمة. وأن هناك بدائل عن الخرافة يمكن أن يتبناها المرء ومع ذلك تستقيم حياته بصورة أفضل بلا أي نسخة من نسخ الدين الرائجة اليوم. وحتى تلك التي سبق أن عرفتها أجيال قبلنا، لم يثبت لها أنها جعلت من حياتهم أرقى في مستواها. الدين في واقعه يهاجم التكامل الأساسي الذي نحتاجه في البحث العلمي والتجارب وتوسعة المعرفة، وكل ما يساعد على النمو والازدهار. وليس من باب المصادفة أن كل فتح علمي تقريباً ظهر إلى الوجود وسط معارضة دينية بشكل أو بآخر. وهذه المعارضة تقول دائماً: «يجب ألّا نعبث بخلق الله». أفترض

أن أحدث هذه الاعتراضات وأخطرها هي محاولة تقييد أبحاث الخلايا الجذعية. كل البحوث المهمة (وخاصة الطبّية منها) واجهت اضطهاداً دينياً وانتقاماً من النظام الديني الشمولي الذي يشعر ويعمل دائماً على فرض الهيمنة على كل شيء.

(10)

تنظيم «الدولة الإسلامية»... الإيمان والأسباب

حوار لـ د. ريتشارد دوكنز مع RT في 26 سبتمبر/ أيلول 2014.

أجرت الحوار، أوكسانا بويكو (Oksana Boyko).

* * *

أوكسانا بويكو: الدين والسياسة، أصبحا مزيجاً خطراً بطريقة غير مسبوقة، لم يعرف التاريخ مثيلاً لها. وخاصة اليوم مع وجود حالة ما يسمى بتنظيم «الدولة الإسلامية». فهل يقف هذا العنف المتطرّف كدليل على أن الدين هو الباعث له؟ أم ربما كان العنف هو من اتخذ الدين وسيلة ليمضي إلى العلن؟ لنفهم بعضاً من هذا التعقيد نستضيف اليوم العالم البيولوجي التطوّري د. ريتشارد دوكنز.

د. ريتشارد، أعرف أنك من نقّاد الدين الأشداء. لكنني أتساءل إن كانت صورة العنف التي تصلنا عمّا يحدث في سوريا أو العراق؛ هذه الإعدامات العلنية، قطع الرؤوس، صلب الأجساد. لو أن أحدهم أخبرك قبل خمس سنوات بأنك ستشهد هذه الأحداث وبطريقتها الاستعراضية هذه، فهل كنت ستتوقع أيضاً أن تكون الراديكالية الدينية هي المسؤولة؟

د. ريتشارد دوكنز: بالتأكيد إن ما يحدث هو صدمة كبيرة، وأنا أشعر بلا شك بفظاعة ما يحدث. لكن السؤال هنا «هل الدين هو المسؤول؟». الدين بحد ذاته ليس مسؤولاً عن هذه الوحشية. لكن يمكن أن نسأل إن كان الدين هو المسؤول عن منحهم المساعدة التي أهلتهم لارتكاب هذه الأفعال. فهنا يكون الجواب نعم، من المحتمل أن الدين مسؤول عن توفير هذه المساعدة. إنهم يتلقون معونات وإسناداً من أناس في بريطانيا، أو في أوروبا، وهناك عدد من الشباب يُقبلون بشكل متزايد على الذهاب إلى العراق وسوريا للالتحاق بتنظيم «الدولة الإسلامية». والدافع لهذا الالتحاق، بشكل ما هو الدين نفسه. يضاف إلى ذلك مشاعر التشارك السياسي، وتصنيف العالم إلى (نحن ضد أولئك). وأرى أن عدداً متزايداً من الشباب المُسلم يشعر اليوم بأنّه مطوّق ومخنوق من قبل باقي الشركاء في هذا العالم. ربما يكون الدين بوجه من الأوجه عبارة عن ذريعة له، لكنّي أظن بأن العامل المسيطر والمهيمن على أفكار هؤلاء الشباب هو الدين بالمصاف الأول.

أوكسانا بويكو: القتل بحد ذاته ليس فعلاً سهلاً. وهنا أريد أن أسألك بصفتك عالم بيولوجيا مختصاً بالسلوك والتطوّر. يمكن أن نصف من يرتكب هذه الأفعال الشنيعة بأنه سفاح ومجرم، أو بأنه منحرف نفسي. لكن أعداد هؤلاء كبيرة، فهل من المحتمل أن يكون هناك خلل سيكولوجي يجمعهم كلّهم؟ أريد تفسيرك الشخصي لهذا.

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة إن عدداً قليلاً منهم يشارك فعلياً في الأفعال الشنيعة. أعني أن المشاركين في قطع الرؤوس، أو التعذيب، أو غيرها هم فئة منهم وليسوا جميعهم. إن مثار القلق الأكبر هو أن عدداً

كبيراً من الأشخاص يعرفون عن يقين بهذه الأمور الشنيعة التي يرتكبها أعضاء تنظيم «الدولة الإسلامية»، ومع هذا ما زالوا مقبلين على الالتحاق بالتنظيم. أمّا من الناحية البيولوجية، هناك ربط ما بين الأنانية العُنفية، والرغبة بالإيثار[1]. وهذا ما شرحته في كتابي الأول «الجين الأناني». في بعض الأحيان يُساء فهم الدوافع على أنها دوافع أنانية محضة، في الحقيقة هي دوافع مركّبة، في الحقيقة إن الإيثار والتحاسد بالغيرة هو الأساس الدافع للفِعل نفسه.

أوكسانا بويكو: لكن لكل نشاط غرض معين يقف خلفه، حتى العنف هناك هدف وراءه؛ ربما من أجل بقاء قيم معيّنة يرغب ببقائها الفرد الممارس للعنف. لكن في حالة «تنظيم الدولة» فإن القتل يبدو بلا هدف. ولا يبدو أنه يخدم غرضاً بعينه. ربما كان لديهم غرض ونحن لا نفهمه، لكن ما يفعلونه يبدو وكأنه بالضّد من الغرائز الإنسانية الأساسية. كيف روّضوا غرائزهم لتبدو بلا مشاعر إنسانية مع كل هذه الوحشية؟

د. ريتشارد دوكنز: لدينا لهذه المسألة نظرية تطوّرية ممتازة، تعتمد على عملية تبادلية يأخذ فيها الانتقام مكانته، ويؤدي دوره. وفيها أيضاً إعلاء لمكانة الثأر، وقد تحدث عبر عدّة أجيال في بعض الأحيان. لهذا يلعب الانتقام دور عامل مؤثر منقول غير عقلاني، خذي مثلاً مجتمعات المافيا التي تتوارث موقفاً عدائياً تجاه جهة ما، وهذا الموقف ينتقل بين أفرادهم وأجيالهم حول العالم. وقد يحوز الانتقام مكانة قبائلية زائفة،

---

(1) يقصد د. ريتشارد دوكنز أنّ ما يحرّك الانتحاري هو رغبة بإيثار الجماعة على ذاته، فيضحي بنفسه من أجل الجماعة. وبما أن التضحية تلقى العرفان من قبل الجماعة ومن قبل النص المقدس، فهذه نقطة الترابط التي تسهّل عملية القتل والتضحية والاشتراك في العمليات الانتحارية ـ المترجم.

وقد يُستخدم الدين كذريعة. لهذا فأنا أشك في دوافع ما يعتقده بعض الناس من أن هذا العنف البشع هو انتقام ـ ولنفترض أنه ـ من الولايات المتحدة جزاء مهاجمتها العراق مثلاً، أو جزاء تحالف الولايات المتحدة مع إسرائيل. هذا الانتقام يجري توجيهه إلى الناس الأبرياء، أو أن يُختطف عامل إغاثة بريطاني ويقطع رأسه تحت مبرر الانتقام من الولايات المتحدة، هذه كلّها مدعاة إلى الشكوك حول الدوافع الظاهرية لهذا العنف. نعم بالتأكيد هناك قاعدة انطلاق للعنف تحتوي على أسباب بيولوجية قد يمكن تفسيرها.

أوكسانا بويكو: هل يمكن أن أبدأ من هذه النقطة السياسية، فهذه الجماعة ذات الإيمان المحدد تحاول أيضاً أن تعكس لنا واقعاً موجوداً على الأرض. صحيح أن وسائل الإعلام قد عكست لنا على مدى عقد من الزمن حجم البشاعة التي تحملها هذه المجموعات، لكن أليس هناك سبيل إلى فهمهم سياسياً؟ أنت تعلم أن العنف فجرته الحرب ولا شيء غيرها أظهر هذه البشاعة.

د. ريتشارد دوكنز: أنت تفترضين أن الحرب فجّرت عواطف الناس واستعدادهم النفسي لاحتضان هذا النوع من العنف. ربما هذا ما حدث، ففي نهاية الحرب العالمية الأولى أو الحرب الثانية، كان هناك نوع من إظهار لهذا العنف بمستواه المتطرّف، لأن الناس بالفعل شهدوا بشاعات غير مسبوقة. وكانت هناك نسبة من الناس قادرة على محاكاة هذه البشاعة.

أوكسانا بويكو: في ميدان الحرب، أرى أن الناس يعانون من مستويات عالية من العنف والقهر، بطريقة تجعل من الدين ملاذهم

الوحيد أو المأوى الأخير لمشاعرهم وعواطفهم. وهذا لا يحدث على مستوى ثقافي، أو بأدوات ثقافية راقية، فهم لا يفكرون في أصل الكون أو الخليقة وما إلى ذلك. تعرف أنهم لو فقدوا أعزاء عليهم فإنهم سيكونون في حاجة إلى مساعدة عاطفية، ولا أظن أن المفكرين العلمانيين أو الملحدين يمكن أن يقدموا لهم هذه المساعدة العاطفية، فهل تظن أن الدين يحوز على مكانته في تلك المجتمعات ويرسخ نفوذه عبر هذا؟

د. ريتشارد دوكنز: نعم من المحتمل كثيراً أن هذا ما يحدث بالفعل. أرى أن من المنطقي جداً أن يُشاع فهم عام بأنه لا يوجد تفسير علمي لما يحدث على الجانبين (أعني مرتكبي العنف، وضحاياه)، وفي الجانب الآخر يوفّر الدين وأدواته نوعاً من المواساة والعزاء للعقول التي وقعت تحت ضغط عاطفي هائل وتحت ألم العنف والتعرّض له. وهو نوع من الاستيهام سيكسب الدين دوراً هو في الحقيقة غير قادر على ملئه وغير جدير به. بعض الناس سيقولون: انظر لا بد أن تكون التعاليم الدينية على حق، فهذا ما حدث وهذا جزاء ما حدث. وسيجري الربط النفسي وفقاً لخيالات تبريرية لا أساس لها، لكن أيضاً لا مجال وسط هذا العنف بأن يركن الضحايا إلى عقلانية التفكير، على الأقل هذا ما لا أتوقعه منهم.

أوكسانا بويكو: نعم، لكن أن يكون المرء ملحداً فعليه أن يقرأ كثيراً، وينال فرصاً مهمة في الاطلاع والتنوير، وفي أماكن عدّة من هذا العالم يبدو ذلك ترفاً غير متوفر دائماً. كيف تفترض أن الناس ستدرك ما هو مخادع وما هو مفيد لها بالفعل؟ خاصة في مجال فكري معقد مثل دور الدين.

د. ريتشارد دوكنز: نعم هذا ممكن، أعني أن أي حث عقلاني أو ثقافي

باتجاه معيّن سيكون عبثاً أن نؤديه تجاه شخص جائع أو خائف. لهذا كانت العقلانية دائماً هي حركة تشبه إلى حد بعيد الإمتاع الموسيقي، أو الانغماس في الرياضيات. ساحات الحروب ليست مكاناً لأي من هذه النشاطات الفكرية، إنما هذه الأفكار قد تكون مفيدة جداً لتفادي الحروب والنزاعات قبل حدوثها فعلياً. من المؤسف أن عدداً متزايداً من الناس حول العالم اليوم لا يُتاح لهم مثل هذه المنافذ الفكرية. ومع هذا فأنا لا أشعر بالإحباط. أنا أعتقد بأن كمّاً كبيراً من مشاكل الناس الفقراء حول العالم كان الدين هو السبب الأساسي في استدامتها. لا أنكر أن الدين شكّل مواساة لهم، لكنهم بالأصل قد تعرضوا للظلم والإحباط وكبح القدرات بسبب من الدين ولا عقلانيته، ليس أوضح على ذلك من مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي التي تعرّضت إلى إساءة كبيرة بسبب القوى الدينية تحديداً وليس بسبب الفقر أو المرض أو أي مؤثر آخر. ستجدين عدداً كبيراً يقول إن ما أصفه بأنه ظلم وإساءة للمرأة إنما هو في الحقيقة وسائل اجتماعية تم تطويرها من أجل الحفاظ على الأسرة، وتمكين المرأة من الحياة بصورة مقبولة، بالتأكيد إنني أشكك في كل هذه الدوافع والتبريرات.

أوكسانا بويكو: بالعودة إلى ظهور «تنظيم الدولة»، هناك من افترض بأن هذا الظهور قد تمكن من توحيد الأعداء السياسيين كي يقاتلوا في جبهة واحدة؛ إيران إلى جانب الولايات المتحدة مثلاً. فهل تتوقع أن يكون هذا ممكناً مع الأفكار الملحدة والملحدين، بأن يصطفوا إلى جانب القوى الدينية التي ترفض بصراحة ظهور هذا التنظيم وما يعنيه؟

د. ريتشارد دوكنز: نعم ربما يكون هذا سجالاً دائماً حول الأسس التي

تُبنى عليها مثل هكذا تحالفات. حدث هذا بعد الحرب العالمية الثانية حين توحّدت جبهات متعددة أمام روسيا الستالينية، وقتها كانت هناك محركات من منطلقات مختلفة يجمعها رفض القبول بوجود نظام ستالين وهو يمارس الاضطهاد بشكل خطر وواسع ينذر بكارثة عالمية. لكنهم قبلها كانوا قد تحالفوا مع ستالين لمحاربة هتلر. ومثل هذه النقاشات تحدث اليوم في الولايات المتحدة، حيث اتفقت آراء المتدينيين من أتباع الليبرالية مع اللادينيين حول المناهج الدراسية، وضرورة تدريس التطوّر النشوئي الأحيائي (الذي هو مفتاح العلوم الأولية البيولوجية والطبّية والكيميائية)، في المقابل هناك الأصوليون المتدينون من الذين يحاولون تأسيس وجود في المناهج الدراسية لفرضية الخلق التي تتعارض مع العلم ومع باقي العلوم التي تدرّسها المناهج العلمية المدرسية. وأنا نفسي انخرطت في جهود مع بعض الأساقفة البريطانيين من الذين أيدوا التدريس الحديث لمناهج التطوّر النشوئي باعتبارها قاعدة علمية لا يمكن دحضها بمجرد تبنّي افتراضات العهد القديم أو العهد الجديد بشأن الخلق. نعم يمكن توحيد الجهود بين خندقين متعارضين من أجل الدفع بعقلانية ممكنة تجعل حياة الناس أكثر يسراً.

أوكسانا بويكو: في الديانات الإبراهيمية هناك فرضية أساسية أو ما يشبه القاعدة الذهبية بأنها أديان تدعو الفرد إلى معاملة الآخرين مثلما يود أن يُعامَل هو شخصياً، وهي نوع من المساواة. ما يهم بالفعل هو ما تؤمن به، وليس (كيف) تؤمن به. لكن احتجاجاتك ومعارضتك تأتي للرد على (كيف) يمكن لهؤلاء الناس أن يؤمنوا، وكيف جرى تبنيهم لإيمانهم أو مبادئهم التي يؤمنون بها، ألا ترى هذا ضعفاً في أطروحتك؟

د. ريتشارد دوكنز: ما يقلقني بالفعل، هو أن المؤمن المقتنع بالأديان (سواء منها الإبراهيمية أو غيرها) إنما يستقي منظومته الأخلاقية من الأديان، وإنه لا يستطيع العيش باستقامة من دونها. بينما نرى أن المجتمعات طوّرت منظومتها الأخلاقية وفقاً لحاجتها ومصلحتها الجمعية، وكلّما كانت هذه المصلحة أوسع وأكثر شمولاً لعدد من الناس، كانت تعبّر عن منظومة أخلاقية ممكنة وتزداد رقيّاً مع ارتقاء المجتمع. هذه القاعدة الذهبية التي تتحدثين عنها كانت موجودة في عدد كبير من المجتمعات، وهي قاعدة عقلانية وليست قاعدة دينية. على أرض الواقع لا تأتي القيم الأخلاقية البناءة من التعاليم الدينية، إنما تأتي من الفلسفة الأخلاقية. ربما تزامنت أو حدث بينها وبين بعض النصوص الدينية بعض (التناص)، لكن هذا لا يعني أن هذه من تلك. والدليل على ذلك أن النصوص الدينية حافلة بما يخالف الفلسفة الأخلاقية المتراكمة لدى الإنسانية. لهذا، فحين نركز على قضية مثل (كيف) يتبنى المؤمنون اختياراتهم الإيمانية، فهو أمر مهم؛ لأنهم سيأخذون ببعض النصوص التي تلاقي رغباتهم بينما لا يلزمون أنفسهم بباقي النصوص التي وصفناها بأنها (متناصّة) مع قواعد الفلسفة الأخلاقية، وهذا أمر انتقائي سيقود إلى صناعة الشر باسم المقدّس.

أوكسانا بويكو: لدي هنا سؤال عن الفوارق الجندرية في ارتكاب العنف، أعني مثلاً أن قيماً مثل الشجاعة والمجالدة وغيرها هي قيم رجولية بالدرجة الأساس، وتبرز أكثر في ساحة العنف. بينما تميل المرأة إلى التسوية من أجل العواطف. هنا أسأل إن كانت عوامل أو مشاعر الإلحاد فيها منحى رجولي؟ ربما هي لكثير من النساء تعد أمراً غير ذي أولوية.

د. ريتشارد دوكنز: في الحقيقة أنا أتردد في وصم آليات الفهم الفكري بوصمات جنسانية، ليس لدينا ما يدعم ذلك عِلمياً. كما لم يسبق لي أن صادفت أدلة سيكولوجية تدعم هذا التقسيم الجندري. لكننا بكل تأكيد بحاجة إلى فهم عميق يتعلّق بهاتين النظرتين المختلفتين للأشياء والأخطار (النظرة الأنثوية والنظرة الذكورية). لكن المهم هو أن نعي في قضية الدين ما هو حقيقي ونفرّقه عمّا هو مزيف. وبالتأكيد أقر بأن للعواطف دورها ونصيبها من توجيه الاعتناق الممكن والمتاح. لكن هذا لا يعني أن نغادر ساحة العاطفة نهائياً. أنا مثلاً أشعر بأني مدفوع بعاطفة مختلطة بالمصلحة تجاه جهود إنقاذ الأنواع الأحيائية المهددة بالانقراض. إن من الصعب الدفاع باستخدام أدوات عقلية فقط عن جهود إنقاذ الأنواع المهددة بالانقراض، الفيلة أو الذئاب البيضاء أو النمور السريلانكية أو غيرها من الكائنات، لست خجلاً من هذا الموقف، وقد يدفعني خسارة نوع وانقراضه إلى البكاء، خاصة الفيلة الأفريقية المهددة بالفناء[1]. لكن الدين بالنسبة لي هو أمر عقلي تماماً. وأنا أبني موقفي منه فقط بالاستناد إلى العقل كأداة قياس وتحليل ومعلوماتية.

أوكسانا بويكو: النظرة الإلحادية التقليدية تطوّرت علمياً وطرحت مسألة أن الحياة العِلمية والتكنولوجية ستجعل الأديان خارج الحلبة، وربما ستتسبب في موت الأديان في النهاية، لكن ليس هذا ما حصل. ولو تمعّنا في التدقيق بالحياة الشخصية لبعض مقاتلي تنظيم «الدولة الإسلامية»، سنجد أنهم قد جاؤوا من خلفيات علمية وأكاديمية. وربما تمكنوا من الهيمنة والتحكم بالآخرين عن طريق تأهيلهم العلمي.

---

(1) انخفضت أعداد الفيلة الأفريقية الرمادية في العالم، من 10 ملايين فيل بداية القرن العشرين، لتصبح أقل من 20 ألف فيل الآن تقريباً.

وأيضاً لم تمنعهم حيازة الدرجة العلمية والإدراك التكنولوجي المتقدم من ارتكاب أعمال العنف بأفظع صورها. 3 من كل 4 بريطانيين مشتبه بهم في التعاون مع الإرهاب ينتمون إلى الطبقة الوسطى. وجميع الذين ارتكبوا العمليات الانتحارية حازوا بالفعل على مستوى تعليمي مقبول. أتساءل هنا إن كان الملحدون في بعض الأحيان يبالغون في وجوب تفكير الناس وفقاً لقواعد عقلانية. هل يضع اللادينيون الكثير من تقديرات الإيمان واستحقاقاته في مسرح العقلانية الإنسانية؟

د. ريتشارد دوكنز: الهويّة السياسية لمرتكبي العنف (في حالة مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية) بلا شك، هي جزء من المشهد. أظنّ أن هناك قدرة داخلية في ذهنية النفس الإنسانية قادرة على فصل الأشياء والعمل وفقاً لما يبدو لنا على أنه أمر متناقض. هذا الأمر إنساني وعام، وليس فقط في حالات المسلمين أو المسيحين الذين يرتكبون العنف. هذا التناقض موجود، على الأقل أضرب هنا مثلاً عن باحث علمي أميركي يعمل في مجال الفلك، كتب بحثاً متكاملاً ذكر فيه أن عمر الكون يمتد إلى 13 مليار سنة منذ أن حدث الانفجار العظيم، لكن بصورة شخصية هو يؤمن بأن عمر الكون لا يتجاوز 10 آلاف سنة منذ أن حدث الطوفان وبدأت الخليقة وفقاً لرأيه. هذا المثال، يكشف لنا أنه من الممكن لعقل مثقف وأكاديمي أن يتعايش مع تناقضات صارخة بين معرفته، وبين ما يؤديه من عمل. أظن بأنه ليس استثناءً لكنه حالة ممكنة في النهاية.

أوكسانا بويكو: بالنسبة لي فإنني قد ولدت في الاتحاد السوفياتي السابق. وأظنّ أن أحد الأسباب التي لم تساعد على استمرار الشيوعية،

هي أنها كأيدولوجيا تبنّت إمّا نظرة مبسطة للطبيعة البشرية، أو أنها بالغت في تقدير قدرة هذه الطبيعة على الخضوع أو الاحتمال. الشيوعية بدأت هناك كحالة من المساواة، والدعوة إلى العقلانية، ونبذ الهيمنة الدينية على الحياة، لكنها انتهت إلى ما تعرفه أنت. فهل يمكن للدعوة إلى اللادينية أن تؤول إلى مآل الشيوعية نفسه؟

د. ريتشارد دوكنز: ما تحاولين قوله هنا هو أنه من غير الواقعي أن نعقد الآمال على عقلانية المجتمع أو الأفراد. لكن، بصرف النظر عمّا إذا كان هذا الأمر واقعياً أم لا، فأنا كشخص أرغب في العيش ضمن مجتمع عقلاني، يلجأ لحل معظم مشاكله إلى طرق عقلانية وواقعية، فضلاً عن كونها طرقاً عِلمية. كما أرغب في العيش وسط مجتمع يمتلك حق الانتقاد والتشكيك. هذا المجتمع بالتأكيد سيكون مجتمعاً لادينياً. طبعاً إننا لسنا بحاجة إلى التشكيك والانتقاد في كل شيء، وفي كل موضوع اعتيادي يومي قد يواجه الناس. لا أريد أن أجعل العشاق يشكّون في حب بعضهم البعض، ثم يسعون إلى دليل عقلي أو برهان علمي لإثبات الحب، في العادة فإن الإنسان يستخدم وسائل إنسانية مسبوقة من أجل إبداء مثل هذه الأحكام. لكن حين يتعلّق الأمر بمصائر الحياة، وهيمنة الدين، وتحديد حياة الناس، هنا أقول نعم، أنا أرغب في مجتمع يشكك ويسأل ويبحث عن الأدلّة قبل أن يقبل بالأشياء التي ستحدد مصيره. أنا لا أمانع مثلاً أن نتمتع بأفكار زائفة عبر الشِعر مثلاً، أو أن يحلّق الأدب في تصوراته. لكن أن يُلقِن رجال الدين الناسَ أفكاراً زائفة عن الكون والفضاء والسماوات وبدء الخليقة، هذه شرور بائنة.

(11)

هل يمكن تحويل العلم إلى دين؟

مقال نشره ريتشارد دوكنز في شباط 1997، في مجلة الـ هيومنست (the Humanist).

* * *

أصبح التحذير والترويع من مخاطر مرض الأيدز، أو مرض جنون البقر، أمراً يشبه الموضة هذه الأيام. وكذلك التحذير من أمراض عدّة تصنّف في مصاف المهلكات. لكني أرى أن تحذيراً مُماثلاً يمكن أن يطلق ليحذّر الناس من المخاطر المروّعة التي يشكلها «الإيمان» على مستقبل الوجود الإنساني. وهو بالتأكيد تهديد أشد خطراً من فايروس يمكن التغلّب عليه في وقت قادم كما سبق للطب أن تغلّب على عدد كبير من الفايروسات لحدّ الآن.

أتحدث هنا عن ذلك النوع من السلوك، وهو الإيمان من دون الاستناد إلى دليل؛ هذا ما سنجده في جوهر أي دين عبر التاريخ. إن نظرة واحدة إلى الأحداث في ايرلندا الشمالية، أو في الشرق الأوسط ستكون كافية لإقناعنا بأن هذا النوع من الإيمان إنما هو فايروس بالغ الخطورة لا

يمكن صرف النظر عن مآلاته ونتائجه. وواحدة من أهم العقد القصصية التي تضخ إلى عقول الانتحاريين المسلمين، خلاصتها بأن «الاستشهاد» هو أسرع الطرق للوصول إلى الجنّة. ليس الجنّة بعمومها، إنما إلى مكان مخصوص سيكافأ فيه الانتحاري بعشرات العذارى.

يبدو لي أننا هنا إزاء حاجة حقيقية تقتضي بإجراء عملية «حظر» للأسلحة الروحية الفتّاكة (على غرار حظر الأسلحة النووية). وهذا الأمر سينفع بالتأكيد في تقليل معدّلات المسافرين الباحثين عن عذارى عبر القطار اللاهوتي.

ومن باب السخرية أنني كلّما طرحتُ مخاطر الإيمان بلا أدلّة، أو كيف أن العلوم نقضت ـ عبر استخدام الأدلّة ـ أبرز ادعاءات الأديان عن الظواهر الطبيعية، وعن باقي الأسئلة التي سألها الإنسان منذ وجوده، برز لي أحدهم واقترب منّي ليقول لي: «طبعاً أنت تتكلم عن مخاطر الدين، لأن العلم أصبح ديناً، وما تدعو إليه أصبح ديناً هو الآخر، بالضبط مثل الأديان التي تنتقدها». أقول بصورة مباشرة، إن العِلم لا يمكن أن يكون ديناً، ولن يتحوّل إلى دين إلّا إذا خرج تماماً عن كونه عِلماً.

العلم يؤسَس ابتداءً وفقاً لأدلّة قابلة للإثبات، بينما يفتقر الإيمان الديني إلى هذا الامتياز. بل إن هذا الافتقار يغدو محلّ تباهٍ وافتخار لأتباعه بشكل يدعو إلى التساؤل عن عقلانية المقاصد وراء تبنّي هذا الدين من الأساس.

ومع هذا، نجد أن قصص الرُسل مليئة بالمعجزات التي كانت ظاهرة للعيان (حسب سردها)، والتي آمن بها من شاهدها، والتي سيؤمن بها ـ فيما بعد ـ المؤمنون، ثم سيدافعون لاحقاً عن غياب الأدلّة بالقول: إن

الإيمان يكفي للأتباع. ثم سيواجَهُ من يطلب الأدلّة العقلية بموجه من الانتقاد، فقط لأنه طالب بأدلّة قابلة للإثبات. في الحقيقة سيكون هذا المُطالب بمثابة قديس حارس للعِلم.

أحد الأسباب التي قيلت لي بأنها تجعل العِلم في مصاف الدين، هو ما أبديه من «إيمان» بصحّة نظرية التطوّر. والبعض يرى أنني أتبناها بطريقة عاطفية. نعم، قد يبدو هذا للبعض سلوكاً يشبه من بعض الأوجه سلوك المتديّنين مع عقائدهم. لكن الفرق هنا، هو أن الأدلّة التي أتبعها من أجل الاقتناع بنظرية التطوّر، ليست فقط أدلّة علمية دامغة، وإنما هي أدلّة مُتاحة للفهم والاطّلاع لكل من يرى أن هناك عقبة في طريق فهم النظرية، أو سهولة إثباتها.

وحينما أقول إن نظرية التطوّر هي نظرية قابلة للإثبات، فهي كذلك لجميع الناس متوسطي التعليم وليس للخاصة، أو للعلماء منهم فقط. بالفعل فإن من المتاح لأي شخص أن يدرس نظرية التطوّر، وسيصل حتماً إلى القناعات التي تبنيتها أنا، ومعي تبناها العِلم الحديث بأسره. أما إن كان ثمة شخص قد تبنّى إيمانه وفقاً للإيمان فقط، فهذا لن يدفعني إلى فهم تلك الأسباب بكل تأكيد، وسيختفي خلف أسوار الإيمان التي لا أستطيع الوصول إليها.

وعلى أرض الواقع، سنجد عدداً من العلماء الذين ينزلقون في بعض الأحيان إلى ساحة تأثير الإيمان، وبعضهم قد يفكّر بصورة فريدة بطريقته الخاصّة لفهم الإيمان ومنطلقاته. لكن حقيقة حدوث هذا الأمر، لا تنفي المبدأ الأساس أن هذه المواربة سرعان ما سيكتشفها العِلم، وسرعان ما سيفضح لاعقلانيتها في النهاية.

إن الاختيار البسيط بين العِلم والدين، سينحصر فيما إذا كنّا نفضّل الخرافة أم سنتبع العقلانية.

إن العلم في جوهره، واحد من أكثر التخصصات التي تحمل حمولة أخلاقية في التطبيق؛ ليس لأن المُشتغلين في حقل العِلم يتمتعون بهذه الصفات، إنما لأن المنظومة العِلمية يمكن أن تنهار تماماً ما لم يتم التقيّد الصارم بمتطلبات تحقيق الآليّة المعرفية، والتي تتصدر الأدلّة رأس أسباب عملها. أقتبس هنا رأي جيمس راندي (James Randi)[1] بهذا الصدد حيث يقول: «... هذا أحد الأسباب التي تجعل من السهل خداع العلماء من قبل السَّحَرة ومدّعي الخوارق. لأن العلماء ببساطة لا يتوقّعون الخيانة المتعمّدة للأمانة في نقل الأشياء».

وهناك تخصصات أخرى أو مهن أخرى، يكون فيها تلفيق الأدلّة، أو على الأقل ليّ أعناقها، هو بالضبط ما يطلبه الناس من أصحاب تلك المهنة، ويدفعون لهم أجورهم على هذا الأساس (لا أحبّذ هنا أن أضرب مثلاً في المُحامين تحديداً).

ولهذا نجد أن العِلم خالٍ من أهم المثالب التي تعيب الأديان، وعلى رأسها الإيمان. ومع هذا، فللعِلم بعض الخصال التي تجمعه بالدين. فالدين يُغري أتباعه بمكاسب جمّة، من بينها أنه يمنحهم راحة امتلاك التفسير، كما يمنحهم العزاء تجاه الإحباط الذي قد يواجهونه في الحياة، فضلاً عن غمرهم بمشاعر الرُّقي النفسي (نتيجة حيازة معرفة غير

(1) جيمس راندي (James Randi)؛ لاعب خُدع أميركي شهير، عُرف بأنّه يسخر من مدّعي امتلاك القوى الخارقة. وأسس مؤسسة تولت التنوير في مجال كشف ادعاءات مدّعي القوى الخارقة، أو مدعي التواصل مع الفضاء وقراءة الأفكار.

رصينة). وعلى المنوال نفسه، فالعِلم يمنح المشتغلين فيه بعضاً من هذه الامتيازات.

إن الإنسان مجبول على أن يعاني عطشاً مستمراً للمعرفة، وأن يكون باحثاً مستمراً عن التفسيرات طوال حياته. وهذا قد يفسّر الأسباب التي جعلت المجتمعات تتبنى الأديان بشكل واسع. لكن معظم الأديان تورّط نفسها في تقديم تفسير كوني وبيولوجي شامل وواسع العمومية، بل إنها تعرض «نظرية للحياة»، فضلاً عن تبنيها لتفسيرات محددة لأصل النشوء، وتركز على أنها تمتلك حقيقة أسباب الوجود نفسه.

وخلال مسيرة فعل الدين وخط تأثيراته في الأفراد، فإنهم يميلون إلى إظهاره بمظهر العِلم. يميلون إلى الخلط بينه وبين المعرفة وآليّاتها المنطقية. وهنا، علينا ألّا نقع في فخّ القول بأن للعِلم وللدين مجالين حيويين مُختلفين، وأنهما ينشطان في بُعدين لا لقاء بينهما، وأنهما يثيران أسئلة من منطلقات مختلفة.

خلال مسيرة التاريخ، حاول الدين دائماً أن يتصدّى لإجابات الأسئلة التي تنتمي إلى اختصاص العِلم. ولهذا، ومن أجل فهم الحقائق، يجب ألّا نسمح للدين أن يتراجع عن المنطقة التي حاول دائماً أن يثبت صحّة إجاباته فيها. إن هذا ممكن اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأن العِلم لم يصل ـ كما هو اليوم ـ إلى هذا الكمّ من الإجابات المعرفية الراسخة، والقابلة للبرهنة. لقد قدّم الدين سابقاً تفسيراته الكونية والبيولوجية عن الوجود، وعن الأمراض، وعن الحياة، وعن ظهور الإنسان، وفي كل تلك الحالات لم تكن تلك التفسيرات أكثر من تزييف غير متقن.

وعلى غير ما درج عليه الدين، فمن الصعب توفير العزاء للعِلم، أو

للمشتغلين فيه. فالعِلم لا يَعِدُ الثكلى بأن لقاءً مجيداً سيتم حتماً مع أحبائهم في الآخرة. ولن ينال الخاطئون ـ وفقاً لوجهة النظر العِلمية ـ أيّ فرصة كي يسترحموا ضحاياهم في حياة أخرى. وهناك من يحتج بأن الحياة الأخرى، لو كانت وهماً (كما أعتقد أنا)، سيكون إذن عزاؤنا أجوفاً من أي تبعات. لكن هذا ليس بالضرورة أمراً صحيحاً دائماً. ولنفهم بأن الإيمان الزائف يمكن أن يمنح مشاعر الراحة الزائفة، ويوهم المؤمنين بأن أحداً لن يكتشف خطاياهم أبداً، مثلما أن أحداً لن يكتشف زيف إيمانهم الداخلي.

لكن، إن كان الثواب أو العزاء بهذا الرّخص وبهذا المستوى من الزيف، فالعِلم قادر أيضاً على توفيره (طالما أن الأمر يتعلّق بحيازة مشاعر لراحة الضمير فقط)، وسيكون الأمر سهلاً مثل استخدام المسكّنات، وبإمكان العلم توفير عقاقير تقتل الألم، وتقتل حتى الإحساس بتأنيب الضمير. نعم، ستكون راحة وهمية، لكنها في النهاية مشاعر راحة مثلها مثل تلك التي يبحث عنها المؤمن في تفسيراته الدينية.

لكن الارتقاء الحقيقي، يحدث فقط حين تسند الأشياء كلّها إلى العِلم فقط. وعندها، سيكون لكل الأديان مختبأ تتخفّى فيه أمام ما يمكن أن يبنى من براهين وازدهار فعلي وتكنولوجي. للعِلم نشوة يقدّمها مع الانتقال من حالة المعرفة الفقيرة إلى حالة الغنى المعرفي. وفي كل نقلة سيقدم مثيلاً لها. بل هي تقترب كثيراً من نشوة العبادة، وستملأ الصدر بلذّة العجب والمعرفة في آن واحد، كل هذه يمكن للعِلم الحديث أن يسبغ الإنسانية بها. وما جلبه العِلم إلى أرض المعرفة، فاق ما وعد به كل القديسين والأولياء أتباعهم إن هم اتّبعوهم. إن حقيقة ألا مكان

للخوارق في أرض العِلم، وحقيقة انعدام أي مجال لتفسيرها، وفقدان الفرص لتعليلها، هذه الحقيقة لن تلغي نشوة المعرفة، ولن تبطئ من عذوبة الانتقال المعرفي من حالة إلى حالة أخرى أكثر غنى، وأكثر غزارة بالمعلومات. إن إطلالة واحدة عبر المايكروسكوب على دماغ نملة، أو عبر التيليسكوب على مليار عالَم آخر ستكون كفيلة، بدهشتها وذهول المعرفة التي تحملها، أن تلغي كلّ الوعود الشحيحة التي بشّر بها سفر المزامير بطريقة ساذجة ولا تحترم عقول البشر.

والآن، أنا دائماً ما أنكر بكثير من السخط أن يكون تبني نظرية علمية (مثل نظرية التطوّر) يشبه، من وجه من الأوجه، اعتناق المؤمنين لدين ما. لكنّي بدأت أنتبه مؤخراً إلى أن هذا الإنكار قد يكون تكتيكاً سيئاً للنفي. وربما يكون الخيار الأفضل هو قبول التحدّي، وأن نطلب وقتاً متساوياً لكل من العِلم والدين أن يثبتا وجهتي النظر المتخالفتين. ولنحسب من منهما شكّل بالفعل مضماراً لضياع فرص الازدهار والتقدم.

وهنا أود أن أشير إلى قضية التعليم المدرسي والمساحات التي قد يلعب بها العِلم دوراً هاماً جداً. في الولايات المتحدة لا تسمح المدارس بأن تُفرض على الطلاب دروس دينية معيّنة، وفي المقابل يُمنح الأبوان حق اختيار الصورة التي يريدانها لنشأة الأبناء الدينية. وفي بريطانيا، تنعكس القضية، فتفرض المدارس المُمولة من الحكومة دروساً دينية على جميع الطلاب، وهو الأمر الذي يدفعني إلى صلب الموضوع، وهو الإساءة العقلية التي يتعرّض لها الطفل.

في عام 1995، صدرت صحيفة الـ«إنديبيندينت»، وهي واحدة من الصحف الرائدة في بريطانيا، وفيها موضوع عن مشهد لطيف ومؤثر.

وكان يومها قد حلّ موسم أعياد الميلاد، وظهر في الصورة ثلاثة أطفال وقد ارتدوا ملابس الحكماء ليمثّلوا أدوارهم في مسرحية. القصّة كانت تكشف أن أحد هؤلاء الأطفال كان مسلماً، والثاني كان هندوسياً، أما الثالث فقد كان مسيحياً. وما تفترضه القصّة بأنه شيء «مؤثر، ولطيف» هو أن الثلاثة كانوا يمثّلون أدواراً في مسرحية تحكي قصّة ولادة المسيح.

لكن الذي لم يكن لطيفاً، ولا مؤثراً، هو أن الأطفال الثلاثة كانوا كلّهم بعمر أربع سنوات. كيف يمكن أن نصف طفلاً بأنه «مسلم»، أو «مسيحي» وهو بهذا العمر؟ هل من الممكن مثلاً أن نتكلم عن قدرة طفل ذي أربعة أعوام بأن يتحكم بنفسه مالياً مثلاً؟ هل يمكن أن نقول إن هذا الطفل ذا السنوات الأربع ينتمي إلى حزب الليبراليين الجمهوريين مثلاً؟ هنا، نجد أن الدين ـ من بين سقطات مجتمعاتنا الثقافية ـ يجري القبول به من دون أدنى نقاش، وبلا أدنى تفكّر في حق الطفل أن يتبنى هذا الدين أو يرفضه في المستقبل. ومن هنا نتساءل عن شكل التفسيرات التي سيقدم هذا الطفل على اعتناقها في كبره (أو ربما سيضطر إلى اعتناقها)، وأين ستنتهي مساحة التفكير الحر لديه، هل عرفتم الآن ما أعنيه حين أتكلم عن الإساءة العقلية للأطفال؟

يمكن للعلم أن يؤمّن رؤية للحياة والكون تساهم في إلهام الطفل بالمشاعر والتصورات أكثر بكثير مما يمكن أن تفعله المُسلّمات المتناقضة التي يجلبها التعليم الديني له، والتي تقتفي التقاليد المستنسخة للأديان حول العالم.

على سبيل المثال، كيف يمكن للطفل في درس للتعليم الديني أن يواجه فشلاً في محاولة تحفيز مكامنه العقلية والإلهامية، إذا كنّا سنمنحه تجربة محدودة عن عُمر الكون الذي نعيش فيه؟

لنفترض أن خبر موت المسيح انطلق من الأرض بالفعل يوم مات، وبدأ يتحرك هذا الخبر في الفضاء مبتعداً عن الأرض بأسرع ما يمكن أن يتاح من سرعة. وأخذ هذا الخبر بالانتشار نحو المجرّات. ووفقاً لنظرية النسبية الخاصة[1]، فإن الأخبار لن تصل بحلول اليوم ـ تحت كل الظروف ـ إلى أبعد من 20% من قطر مجرّة مجاورة واحدة، في كون يتكوّن من 100 مليار مجرّة.

إذن، سيكون الكون بأكمله غير مبالٍ بالمسيح، أو بولادته، أو بأحاسيسه، أو حتى بموته. حتى تلك الأخبار المهمة المتعلّقة بنشوء الحياة على سطح الأرض فإنها لن تصل أبعد من عنقود واحد من عناقيد المجرّات المجاورة، منذ الظهور الفعلي للحياة قبل 3 مليار سنة من يومنا هذا.

ومهما كان ذلك الحدث قديماً بمعايير الوقت على كوكبنا، لو فتحت ذراعيك لقياسه، فإن كل التاريخ الإنساني، كل الثقافة الإنسانية، يمكن أن تقع بين طيّة ألياف أصغر من أصغر أظفارك بالقياس إلى حجم ذراعيك.

إن الجدل في وجود التصميم الكوني، هو جزء مهم من تاريخ الدين، ولن يهمله التعليم الديني المفروض على المدارس. ولا أشك هنا، في أن الأطفال سيختارون الطريق الصحيح للتمييز بين ما يقال لهم عن فرضية الخلق، وبين وعيهم بنظرية داروِن للنشوء، فيما لو تم تزويدهم

---

(1) النظرية النسبية الخاصة لآينشتاين (special relativity theory)؛ تثبت أن سرعة الضوء هي السرعة القصوى في الوجود، ولا ينطبق عليها قانون (سرعة+سرعة = ضعف السرعة). ومن نتائجها أن الفاصل الزمني بين حدثين، هو أمر متغيّر من مراقب إلى آخر. وتعرّضت إلى ما يعرف بقانون ازدياد الكتلة، حيث ثبت لدى آينشتاين أن الكتلة يمكن أن (تزداد) وفقاً للسرعة.

بالأدلّة بصورة عادلة وغير منحازة. لكن المقلق، كما أراه اليوم، ليس مسألة الوقت المخصص لدراسة نظرية النشوء، بل إنهم بالأصل لا يُمنحون الوقت الكافي لدراسة هذه النظرية ودعائمها العِلمية، بينما يجري تلقينهم بفرضية الخلق التي تقفز على كل ما يحيط بهم من تطوّر علمي ودلائل تملأ المتاحف والأكاديميات المختصّة.

وأما الأسطورة المُهيمنة، والتي يجري تدريسها بكثرة، فهي النسخة اليهودية من فكرة الخلق. والتي أخذت محتواها من الأسطورة البابلية. وأتفهم أيضاً أن هناك من الهندوس من يؤمن بأن الكون قد خُلق من رغاء زُبدة كونية. وفي نيجيريا هناك من يؤمن بأن الله قد بنى الكون من فضلات النمل. وبالتأكيد فإن لهذه الأساطير الحق في أن تنال فرصة في التدريس مثلما تناله الأسطورة اليهودية ـ المسيحية عن آدم وحواء.

والآن، لو عدنا إلى مسألة الرسل، فإن مذنّب هالي (Halley's Comet) سيعاود الظهور مرّة أخرى في العام 2061، لا شك في هذا. طبعاً لم يحدث أن عرضت علينا نبوءات الكتاب المقدّس أو النبوءات الإغريقية أمراً من الممكن أن يحدث بهذه الدقّة. وحتى المنجّمون وأتباع نبوءات نوستراداموس لم يتجرّؤوا على مثل هذه الدقّة في التحديد، بل أخفوا شعوذتهم خلف ستار من الكلمات الغامضة والجمل التي تعني المعنى ونقيضه في وقت واحد. وحين سبق أن ظهر المذنب في الماضي عدّه الكثيرون آية من آيات قرب حلول العذاب. ولعب المنجّمون دوراً مهماً في معظم الأديان، بما في ذلك الديانة الهندوسية. وهنا أعود إلى مسرحية الأطفال التي أدّوا فيها دور الحكماء الثلاثة؛ في الأسطورة المسيحية فإن هؤلاء الحكماء قد استدلّوا على ولادة المسيح عبر مراقبة

النجوم، وهي من أخبرتهم بولادته عبر مذنّب يعرفونه، فهل يمكن لنا أن نضع نبوءة تصاحب ظهور مذنّب هالي؟ وستكون أكثر من أكيدة لأننا نعرف بالضبط متى سيظهر، ومن أي جهة في السماء سيبزغ. بالضبط مثلما كان العلماء يعرفون الساعة التي ظهر فيها في (9 شباط/ فبراير 1986)، وسيظهر في (26 حزيران/ يوليو 2061).

وحين يبرر التعليم الديني وجوده بأنه مصدر لنشر الأخلاق وترسيخها، فالبديل الواضح هو تعليم الفلسفة الأخلاقية العقلانية. وهل يظنّ الأطفال بأن هناك معايير مطلقة تحدد ما هو صواب وما هو خطأ؟ وإذا كانوا بالفعل يظنّون أن هناك مثل هذه المعايير المطلقة، فمن أين أتت بصفتها المُطلقة هذه؟ أليس بالإمكان صياغة مبادئ جيدة للعمل والتعامل؟ مثلاً «كن للآخرين كما تحب أن يكونوا بالنسبة لك»، أو «إن الشيء الجيد، هو جيد بالنسبة لك، وفي الوقت نفسه جيد للآخرين». وهل يتوجب علينا تقديس الحياة الإنسانية ومنحها الأولوية فوق كل شيء؟

هذه المعايير، لا تجلب الطفل إلى منطقة تناقض واضحة تدخله فيها روايات الأديان، ولا تعرّضه إلى التناقضات في فهم الأسباب الدافعة لتبنّي المنظومات الأخلاقية، فضلاً عن قدرة هذه الأديان على تطويع الأخلاق لصالح بقائها، واستخدامها كوسيلة في الترويج وكسب الأتباع.

وفي قضيّة الحياة الأخرى، فإن القانون الثاني للثرموداياناميك[1]

---

(1) لهذا القانون صيغ متعددة، أشهرها ـ صيغتا (كيلفن Lord Kelvin) و(سيلسيوس Rudolf Clausius)،وهي تنص على: «إن دالّة الأنتروبي لأي نظام معزول حراريا ستكون إمّا في حالة إزدياد أو ستبقى ثابتة في الحالات المثالية، لكنّها تميل إلى أن=

يخبرنا بأن كلّ الحياة، بكلّ ضحكاتها وأحزانها، بكلّ تعقيداتها، تسير إلى العدم البارد في النهاية. كلّها تسير إلى مصيرها بأن تُطرح عرضة باتجاه نظام موحّد من الأداء الجزيئي. الميل نحو الاستقرار هو حتمية عِلمية لا سبيل إلى عكسها تحت أي ظرف كان.

لقد أخضع العلماء الكون لقوانين الثرموديناملك، وقد فسّرت آلاف العقد المعرفية وفقاً لهذه القوانين الفيزيائية التي تثبت نفسها مع كل اكتشاف علمي جديد. ولم يجدوا سبباً واحداً يدعوهم إلى عدم تطبيق هذه القوانين على الكون باعتباره كوناً معزولاً (لا كون غيره كي يُعد مؤثراً خارجياً)، وقد أيّدت الرياضيات وعلوم الفلك توسّع هذا الكون (ازدياد دالّة الأنتروبي للكون المعزول). والخلاف هنا، فقط فيما إذا كان سيتوسّع إلى ما لانهاية أم أنه سيتقلّص بعد الوصول إلى الصفر المطلق لعملية نمو التوسّع. لكننّا نعلم أيضاً (مهما حصل للكون) أن الشمس الحالية ستبتلع الأرض بعد 600 مليون قرن من الآن. بعد أن تتحول إلى ثقب أسود، كما تحوّلت شموس من قبلها في مجرّات أخرى.

لقد بدأ الزمن في لحظة معيّنة، وقد ينتهي في لحظة معيّنة. بل إنه سيسقط في مجرشة مصغرة تنشأ من ثقب أسود يحل محلّ آخر الشموس المحلّية (باعتبار أن المجرّات تتباعد عن بعضها البعض بعداً يجعل ما في داخلها يبدو محلّياً تماماً). وربما سينتهي الزمن عندنا ليبدأ في مجرّة

= تصل إلى نهاية عظمى لها». وكنتيجة مباشرة لهذا القانون، تكون الحرارة في حالة انتقال دائم، من الأعلى درجة إلى الأقل درجة. أمّا دالة الأنتروبي، فهي معيار لعشوائية النظام المعزول. وكلمة «معزول»، تعني العزلة عن التأثيرات الخارجية، ولحد الآن تعتبر قوانين الثرموداينامك هي أهم القوانين التي استند عليها العلماء لتفسير توسّع الكون.

أخرى. ومرّة أخرى، هناك من اقترح فرضية وجود أكوانٍ معزولة عن بعضها البعض بدرجة عالية، وقد يكون بينها ما يشبه القوانين الداروينية في بقاء الكون الأصلح للبقاء.

صحيح أن هناك من يتهم العلماء أو المشتغلين في الحقول العلمية بملازمة سلوك متعصّب في بعض الأحيان، وهو سلوك يشاطر السلوك الديني في لا عقلانيته. لكنّه يبدو أقل كارثية في نتائجه، فالعلماء المتعصّبون لا يرفضون الاستماع للآخر، كما أنهم في العادة لا يقتلون الآخر المختلف أو يقاتلونه. ومع هذا، فهناك فرق كبير وشاسع بين من يتعصّب لفكرة يظن بأنه تلقى ما يكفي من الأدلّة لاعتبارها فكرة مثبتة، وبين من يتعصّب للتمسك بإيمان لا يدعمه سوى الظن، وسوى الموروث والإيحاءات المتخيّلة... فرق كبير بين هذين السلوكين.

(12)

وجبت تخطئة أحد الطرفين

عن تدريس مفهوم «التصميم الذكي»، وعواقب القبول بفرضية التخليق ومآلاتها في المنهج الدراسي العلمي.

مقال مشترك نشرته صحيفة الغارديان، لـد.ريتشارد دوكنز و جيري كوين، بتاريخ 1 أيلول/ سبتمبر 2005. يتولّى الرّد على الداعين الى تضمين المناهج الدراسية نظريتي؛ «التخليق» (أو حسب اسمها الأحدث «التصميم الذكي»)، الى جانب نظريّة «التطوّر والنشوء»، التي أرسى دعائمها تشارلز دارون، وألفريد راسل والاس (Alfred Russel ـ Wallace). ومن بعدهما هنري هكسلي (Thomas Henry Huxley)، وجان باتيست لامارك (Baptiste Lamarck ـ Jean). وعشرات العلماء بعدهما من الذين اختصّوا بفرع البايولوجيا التطوّرية، أو التاريخ الطبيعي، أو تنقيبات الأحفوريات وعلم النشوء.

***

الأمر يبدو معقولاً جداً حالما تسمعون مقترحاً يقول: لماذا لا ندرّس كِلا النظريتين؟. ثم نترك الأطفال ليقرروا بعد ذلك بأنفسهم. وكأننا

نتحدث هنا عن رأيين مختلفين في مسألةٍ تتقبل آراءً عدّة. وبالتأكيد حين يُدعى شخص مُهتم بالتعليم ـ مثلما نحن ـ الى أن يفتح نوافذ متعددة وفرصاً مختلفة للمعرفة أمام الطلّاب فالمفترض فيه ألّا يرفض.

واحد منّا على الأقل قد أمضى عمراً في تدريس الطلّاب في أوكسفورد. وكان من عادته أن يختار مواضيع متناقضة ويقترحها عليهم لتكون محوراً يكتبون فيه تقريرهم الدراسي الأسبوعي. يُطلب من الطلّاب في العادة أن يذهبوا الى المكتبة، ويتقصّوا وجهتي نظر مختلفتين لقضيّة علمية واحدة، ثم يدونون خلاصات وتعريفات متساوية وحيادية لكل وجهة نظر. ثم بعد ذلك يستخدمون آليّاتهم العِلمية والمعرفية للتوصّل الى ترجيح إحداهما على الأخرى، من وجهة نظرهم وفقاً لما تعلّموه.

كان التشديد في الإشراف عليهم أن تكون المقاربات متوازنة وعادلة، هو أمر متكرر في كل مرحلة من مراحل العمل البحثي. مع الأخذ بنظر الإعتبار؛ إنه لو تساوت وجهتا نظر مختلفتان في قضيّة ما، فإن «الحقيقة» لا تقع بالضرورة في منتصف المسافة بينهما، لأن من الممكن ببساطة أن تكون إحدى وجهتي النظر خاطئة.

وانطلاقاً من كوننا تدريسيين، كنّا نكرر على الطلّاب ضرورة قيامهم بتحليل التناقضات، لأن هذا التحليل سيأخذ بهم الى عملية تقييم أكثر دقّة للمعطيات، وستكون دورة تعليمهم أكثر رصانة.

وهنا نقول لا يجب أن يُخدع القارئ حين يرد عليه مصطلح «التصميم الذكي»، فلا يوجد عملياً أي فرق بينه وبين مصطلح «التخليق». والفضل في ذلك الترويج للمصطلح الجديد يعود الى شركات العلاقات العامة

التي يُصرف عليها من الأموال الضخمة التي تهرب من الضرائب في الولايات المتحدة.[1] يجري هذا في ظل التعديلات التاريخية للدستور الأميركي الذي فصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الدولة.

إذن، ما المشكلة فيما لو حدث وقبلنا بمنح وجهتي النظر(نظرية التطوّر الداروينية، وفرضية التخليق) فرصتين متساويتين كي تدرّس في المدارس؟. الجواب سيكون في منتهى البساطة، إن هذا ليس اختياراً علمياً بين نقيضين أبداً. وربما سيكون مضيعة بائنة للوقت، حيث أن علم التطوّر قد خاض بالفعل ما يكفي من جدل التناقضات هذا حين أثبت نفسه كحقيقة علمية.

بالفعل هناك عدد من القِيم العلمية التي يواجهها الطلبة الدارسون لعِلم التطوّر تنضوي تحت قائمة التناقضات التي على هؤلاء الطلبة أن يواجهونها. ومنها؛ إلتزام الحياد في مقابل الإنتقائية في تفاصيل التطوّر الجزيئي. ومنها أيضاً مفهوم القدرة على التكيّف، أو مفهوم معايير انتخاب المجموعات، أو براعة الباحثين في تقييم عملية التوازن البيني التي تتخلل الدورات الطويلة من اللاتغيير. أو فهم عملية الإنتقاء الجنسي، أو فهم آليّات تطوّر الجنس بذاته. ما نريد أن نقوله؛ هو أن هناك كمّاً كبيراً من القضايا ذات الأبعاد المتناقضة، أو المُعطيات المتناقضة التي يمكن أن تشغل ذهن الطلّاب، ليس فقط في مسألة إعداد تقرير علمي، إنما قد تنسحب الى خياراتهم الدراسية أيضاً، العِلم والبحث العلمي لا يخلوان أبداً من وجود مُعطيات متناقضة.

---

(1) يشير كاتب المقال هنا من طرف خفي الى العلاقة بين المحافظين الجدد في الولايات المتحدة(وهم أبرز دعاة نشر نظرية التخليق في الغرب)، وبين كارتلات الشركات الكبرى الداعمة لهم ـ المترجم.

لكن فرضية «التصميم الذكي»، ليست ملفاً متناقضاً كما هو الحال مع هذه العناوين التي هي في صلب الدراسة التطوّرية. بل إنها ليست فرضية علمية قابلة للنقاش، كما إنها لا تخضع لمنطق الجدل، أو لمعطيات الأدلّة من أجل القبول بها. إنه بالأساس قضية(دينية)تخضع لمعطيات الأديان، وليس العِلم.

قد تستحق النقاش في فصل دراسي يختص بتاريخ الآيدولوجيات والأديان. أو ضمن الدراسات المقارنة للأديان. أو قد ترد ضمن فصل دراسي يختصّ بفلسفة المتبنّيات الشعبية. أو إنها قد تكون موضوعاً في مجال دراسة الأساطير التي تعتقد بها الشعوب.

أما العلاقة الحقيقية بين دراسة فرضية «التصميم الذكي»، و دراسة البايولوجيا الحديثة فهي تشبه دراسة عمليات الهلوسة التاريخية بتحويل المعادن الى ذهب[1]، ضمن فصل دراسي يدرس الكيمياء الحديثة. الأمر ليس علمياً على الإطلاق.

وفي هذه الحالة، سيكون منح النظريتين؛ (التطوّر والتخليق) فرصتين متساويتين من أجل استيضاحهما وتدريسهما، ضرباً من الخيال المضحك.

ونفس الشيء قد يحدث في حلقة لتدريس تاريخ أوروبا في القرن العشرين، لو جرى الطلب من الأساتذة أن يمنحوا(فرصة متساوية)، لنظرية تفترض أن الهولوكوست هي مجزرة لم تحدث على الإطلاق.

---

(1) يضرب المقال هنا مثلاً بدراسة «الخيمياء»، أو تحويل المعادن الى ذهب وما ارتبط بذلك من ممارسات. وهو أمر انشغل به كيميائيون قدماء، لكن العلم الحديث بالطبع أكّد استحالة حصول مثل هذا التحوّل ـ المترجم.

لكن لماذا نحن واثقون جداً من أن «التصميم الذكي»، هي فرضية غير علمية تماماً؟. وبالتالي لا تستحق أن نساويها مع باقي النظريات العلمية فنمنحها فرصة كي تدرّس؟. أليس هذا مجرّد تمسّك بالرأي الشخصي؟.

إنه «رأي»، لكن يشترك فيه الغالبية الساحقة من علماء البايولوجيا. مع الأخذ بنظر الإعتبار إن العلم لا يجري إثباته عبر التصويت بين العلماء.

لماذا لا يجري اعتبار «التخليق» ـ أو المصطلح البديل عنه «التصميم الذكي» ـ مجرّد نظرية أخرى تناقض بعض المعطيات العلمية، مثلما هو الأمر في عدد من فروع الدراسات العلمية؟.

لو كانت فرضية «التصميم الذكي» تمتلك بالفعل مقومات علمية ودلائلية، وقرائن للإثبات لوجدنا أن الدراسات والبحوث في هذه القرائن قد ملأت خزائن من الصحف والكتب التي لا يمكن تصوّر حجمها. و لوجدنا أن أقسام البحث العلمي في الجامعات حول العالم تدرّس مئات الآلاف من طلّابها كل معطيات القرائن والدلائل على أن التخليق هو مورد علمي يجب أن نأخذ به في فهم الظواهر والعلوم. لكن هذا لم يحدث، ليس لأن محرري الصحف العلمية يرفضون استقبال مثل هذه البحوث، إنّما لأنها ببساطة لا تصنّف ضمن البحوث العلمية، ولا تستوفي أي شرط من شروطها.

إن هذه الفرضية(المتمظهره بمظهر النظرية) قد تجاوزت مرحلة النقاش العلمي، وتجاوزت طرح نفسها في البحوث والمجلات العلمية، وتجاوزت التدريس في الأقسام العلمية للجامعات، لتتجه مباشرة الى الجمهور اللاعلمي، وبعين ترنو في الوقت نفسه الى السياسيين

والمسؤولين الحكوميين الذين انتخبهم هذا الجمهور، بمعيّة رجال الدين المتخادمين لهذه السياسات.

ولم تقدم أطروحة «التصميم الذكي»أي دليل أو قرينة تدافع عن ذاتها كلّما طرحت للنقاش، إنما يكتفي المدافعون عنها بتعداد بعض المثالب التي تعتري نظرية التطوّر في المقابل. أو بالأصح؛ ما ينظرون إليه على أنه مثلبة فيها.

لقد قيل لنا دائماً، إن هناك فجوات في سلسلة التفسيرات التي تقدمها الأحفوريات. أو أنهم يصفون العضويات بأنها معقّدة للغاية بما لا يحتمل أن يكون التطوّر والإنتخاب الطبيعيين مسئولان عن تطورها.

فرضيّة التخليق تحاول أن تستند الى مسلّمة جدلية عرجاء، مفادها؛ «لو عانت النظرية(أ) من شحّة الأدلّة في تفسير الظاهرة(س) على سبيل المثال، فعلينا أن ننتقل على الفور الى تبني النظرية(ب)، بغض النظر عمّا يدعمها من أدلّة متوافرة). وهذا أمر يفقد العقلانية والموضوعية المفترضة توازنها تماماً. لكنها تمنح الأطروحة التخليقية شكل موضوعياً يجعل بعض المراقبين يقولون: «وماذا يضر لو درسنا كلا الأطروحتين!».

لكن الإشكال الفلسفي هنا، يتلخّص في أن إحدى الأطروحتين تكفّلت بتهيئة الدليل العلمي المتوافق مع العقل والمنطق في كل خطوة جرت الى أن اكتمل وجودها، بينما الأطروحة الأخرى لم تقدّم حتى دليلاً علمياً واحداً في سبيل إثبات نفسها. بل نجد دعاة فرضية التخليق يدفعون بصحّة أطروحتهم كلّما تعثر العلم في إيجاد حل لمعضلة ما، وفاتهم أنه يواجه العقبات دائماًكجزء من العمل العِلمي

اليومي. في الحقيقة فإن العلماء يخرجون من منازلهم ويلتحقون بأعمالهم يومياً تحديداً من أجل حلّ المشاكل وتجاوز العقبات في سبيل بحثهم العلمي.

لكن ماذا يعني وجود ثغرات في التسلسل الأحفوري الموثّق لعملية التطوّر؟. إنه يعني ببساطة إن هناك ثغرة لم يعثر عليها بعد، كي تملأ تصوراتنا ومعلوماتنا عن كائن حي عاش ومات في سلسلة التطوّر البايولوجي الطويلة والبطيئة. وهي تعني أيضاً أننا نبحث عن استكمال لعرض «سينمائي» لكل الكائنات الحيّة التي مرّت بمراحل لا تحصى من التطوّر. وعلينا هنا أن نتذكر أن نسبة قليلة جداً من الكائنات الحيّة قد ماتت بطريقة جعلت الأحفوريات تحفظ شكل أجسادها وبقاياها، بينما ماتت معظم الكائنات بطرق أخرى وتحللت تماماً.

لكن ماذا لو طُلب من دعاة الفرضية التخليقية أن يملئوا الثغرات التي تعتري عملية إثبات فرضيتهم؟. سيتعيّن عليهم أن يجمعوا عرضاً «سينمائياً» لكل أفعال الإله، أو الصانع القدير الذي يفترضونه. على أن تكون هذه الأفعال متسلسلة منذ بدء الخليقة التي يقولون إنه تولاها بتصميمه الذكي. في الحقيقة، لم نجد في أكثر الدفاعات حماسة عن فرضية التخليق أي وصف استعراضي للأحداث التي أدت الى الوجود، ولا توجد أي روابط منطقية أو سببية بين أي مرحلتين مختلفتين من مراحل التخليق المفترض.

في المقابل، فإن علماء البايولوجيا بإمكانهم أن يستعرضوا توصيفات متتابعة للأحفوريات يمكن أن تشرح عدداً كبيراً من التحوّلات التطوّرية البايولوجية التي جرت على عدد كبير من الأحياء، وبإمكانهم ربطها

بالأسباب التي أخذ بها الإنتخاب الطبيعي لإحداث تلك التغييرات أو التحوّلات.

نعم، لا نمتلك سجلاً بحثياً كاملاً عن كل التحوّلات لكل الأحياء. لكن يتوفر سجل أحفوري علمي مليء بالأدلة التي جمعت من كل أنحاء العالم عن تطوّر نوعنا الإنساني وانحداره عن القرد الأعلى السائر على قدمين «الأوسترالوبثيسيوس» (Australopithecus)[1].

والجدير بالملاحظة هنا، إن كل أبحاث العلماء لم تجد أحفورية واحدة في العالم بأكمله يمكن أن «تخالف» في معناها، أو في مكان وجودها، أو في تاريخ تكوينها السلسلة الطويلة التطوّرية التي بدأ دارون في الإشارة لها، ثم استكمل الفجوات فيها من تلاه من علماء الأحياء والكيمياء الحياتية.

ليس غريباً أن نسمع من يقول بأن البكتيريا السوطية(bacterial flagellum)[2]، على سبيل المثال، هي من التعقيد في السلوك والنشأة بما

(1)وهو ما يعرف بأحفورة(لوسي)، نسبة الى هيكل عظمي متحجّر لفتاة عثر عليه في اثيوبيا. ويعرف أيضاً بـهيكل عفار. اكتشفه عالم الأحياء التطوّري دونالد جونسن(Donald Johanson). وتطلق عليه بعض المصادر العلمية تسمية(القرد الجنوبي العفاري). يقدر العلماء أن(لوسي)عاشت قبل أكثر من 3 ملايين سنة. ـ المصدر/ «أعظم استعراض على وجه الأرض» ـ د.ريتشارد دوكنز.

(2)مصدر هذا المثال، هو أن البكتيريا السوطية، تمتلك جسداً اسطوانياً، يلحق به ذيل طويل من عدّة فروع يعمل عمل الرّفاص في الغوّاصة. وهي قادرة على أن تقطع المسافات سباحة في الأوساط المائية بما يعادل(25 ـ 60) مرّة من طولها خلال ثانية واحدة. ويمكن لها أن تغيّر اتجاه سباحتها في ثلاث أبعاد، كما إن لها القدرة على كشف المحيط والتعامل معه بنوع من «الذكاء». كلّ هذا في حجم لا يتجاوز طوله 5 أجزاء من المليون للمليمتر الواحد. وأكتشف آليّات عملها وتطوّرها العالمان؛ نيكولاس ماتزيك(Nicholas Matzke)، ومارك بالين(Mark J. Pallen)، عام 2006. =

يجعل توقّع تطوّرها عن المايتوكوندريا البدائية أمراً مستبعداً بشكل كبير. لكننا نقول: لو كانت البكتيريا السوطية من التعقيد بما يجعل تطوّرها عن الاشكال البدائية للبكتيريا أمراً مستبعداً، فإن هذا التعقيد هو نفسه سيجعل افتراض تخليقها من لا شيء أمراً مستبعداً أيضاً.

وأي نظرة فاحصة ودقيقة ستفترض بأن إلهاً ما قد خلق البكتيريا السوطية(على ما فيها من تعقيد ودقّة متناهية)، سيكون هو بذاته إلهاً بالغ التعقيد. وهذا أمر غير محتمل إحصائياً. فضلاً لو طبّقنا هذا الإفتراض على الكون كلّه، فسيكون هذا الإله بذاته هو أكثر تعقيداً من الكون. لأنه من المنطقي أن يكون أكثر تعقيداً من مخلوقاته. وبهذا سيتعيّن علينا إيجاد تفسير لهذا التعقيد الذي عليه هذا الإله المفترض.

ولن يكون حلّاً أبداً لهذا التلازم المنطقي أن نأخذ بما يحتج به اللاهوتيون من أن هذا الإله، أو «التصميم الذكي»، إنما هو عصي على الخضوع للتفسيرات العلمية.

سيكون الأمر وكأنما أطلق أحدهم النار فأصاب قدميه. لهذا، لا يمكن لنا أن نأخذ بهذين التفسيرين سويّة.

ولا يمكن الأخذ بهذه الفرضية حتى عبر هذين الطريقين المتاحين؛ فهي لا يمكن أن تصمد على منضدة البحث العلمي، ولا يمكن أن تلبّي أياً من اشتراطاته.

=وعدّ اكتشافهما طرق تشخيص انتقال البكتيريا في الأوساط المائية، و معرفة بنائها الداخلي فتحاً علمياً غيّر مسار الفهم البايولوجي لنشوء وتطوّر البكتيريا بالعموم، ورشحهما لنيل جائزة نوبل. ونشر بحثهما في مجلة(PERSPECTIVES) العلمية في أكتوبر / 2006ـ المترجم.

كما لا يمكن الأخذ بها، لو طرحناها بعيداً عن البحث العلمي وأرجعناها الى الكنيسة حيث تنتمي بالأصل.

لكن الواقع يقول إن البكتيريا السوطية ليست من التعقيد بحيث يتعذر قبول تطوّرها(بدلاً من التخليق). والأمر ذاته ينطبق على أي كائن حي آخر، مهما بلغت درجة تعقيده؛ سنجد حتماً روابط تطوّرية تجمعه مع كائنات أخرى.

وحتى لو توفرنا على حالة يعجز فيها علم الأحياء عن توفير إجابات مقنعة عن أسباب تعقيد كائن حي بعينه، فستبقى فرضية التخليق عاجزة عن فك أي سببية مبنية على قاعدة علمية، أو قانون فيزيائي.

لقد أصبحت نظرية التطوّر واضحة بما يكفي، حتى لأولئك الذين لديهم قدرة بسيطة للوصول الى المعلومات الأولية عنها. باختصار، «نظرية التطوّر» هي حقيقة. بالضبط مثلما أن الصفائح التكتونية لسطح الأرض هي حقيقة علمية. ومثلما أن المسار الأهليلجي للكواكب حول الشمس هو الآخر حقيقة علمية.

ولهذه الأسباب، سيكون تدريس الفرضيات المتعلّقة بالتخليق أمراً غير محمود العواقب. فهو سيسحب الأفكار باتجاه التصديق بفكرة وجود «نظريتين متكافئتين» للنشوء، وهذا أمر مشوّه علمياً. ثم إنه سيتسبب في التعتيم على أوجه التناقضات العلمية الحقيقية التي تحتاج الى دراسة وتقصّي، وبالتالي المزيد من البحث في أعماق الحقائق العلمية المتعلّقة بالتطوّر والنشوء. بل إنه سيمنح فرضية التخليق النصر الوحيد الذي يمكن أن تحققه، وهو أن يُعترف بها كنظرية، والإنتقال بها من مقاربات الخوارق للطبيعة وأحاديث الخرافات لتكسب مقعداً

علمي الصبغة. وهذا سيكون فيه نهاية مستقبل تدريس العلوم الطبيعية «الحقيقية» في دول العالم المتقدّم.

وعلى الرغم من أن التنقيبات الأحفورية قد اثبتت أن الكائنات المتعددة الخلية قد عاشت قبل 640 مليون سنة، إلّا أن التعدد في هذه الكائنات بقي فقيراً الى غاية 530 مليون سنة مضت. في ذلك الوقت تحديداً بدأ ما يشبه «الإنفجار التنوّعي»، وبدات أنواع جديدة بالظهور والتنوّع بكثرة. وتعددت الكائنات البحرية بشكل متسارع وفجائي. وظهرت الأشكال الأولى من الرخويات، والمفصليات، وشوكيّة الجلد.

وحينما نقول «فجأة»، حدث هذا التنوّع العريض، فهو مفاجئة بالمعنى والمقاييس الجيولوجية، لأن هذا التنوّع الواسع حدث خلال فترة تتراوح بين 5 ـ 10 ملايين سنة!. وهي فترة قصيرة جداً بالمقارنة مع الوقت الذي استلزمه التطوّر لظهور أولى الثديات.

هذا التطوّر المتسارع(نسبياً)، أبرز لنا تساؤلات عدّة عن ظهور وظائف لأعضاء جديدة وفي مقدّمتها العين، وأعضاء أخرى تطوّرت باستقلالية.

أمّا تطوّر الجانب النفساني للبشر، ويطلق عليه «علم النفس الأحيائي»، فقد أكد عدداً من السمات الكونية للبشر، وبخاصة «السمات السلوكية الجنسية». وكل هذه، ومعها الفوارق البينية للمجموعات الأثنية(في الجانب السلوكي)، إنما قد نتج عن فوارق جينية موجودة فعلاً. هذه السمات والفوارق سبق وأن «تطوّرت» نزولاً من أسلافنا عبر الإنتخاب الطبيعي. وبالتأكيد، تشهد هذه الساحة العلمية الكثير من الدلائل المتناقضة، لأن من الصعوبة جداً وضع خريطة علمية سلوكية

لمؤثرات التي سبق وأن نفذت الى الجماعات البشرية المختلفة. فضلاً عن امتناع السواد الأعظم من المؤسسات العلمية عن إجراء تجارب جينية على البشر بدوافع أخلاقية.

صحيح أن علماء التطوّر يعتقدون بأن التعديلات التي تطرأ على الأنواع الحيّة، إنما تحدث عن طريق الإنتخاب الطبيعي بصورة مستمرة ولا تتوقف، لكنّ هناك بعض السمات تحدث أيضاً عن طريق ما يسمى بالإنتخاب الجنسي. مثال ذلك الإختلاف في حجم أنواع الطيور والريش الي يغطّي الذكور منها.

إن الإنتخاب الجنسي، يعرّف على أنه الإنتخاب الذي يجري داخل النوع الواحد من قبل أحد الجنسين (في العادة تكون الأنثى)، على أساس سِمات معيّنة تتوافر في الشريك. ويطرح العلماء توقعات متقابلة تبيّن مدى الإختلاف بين العمليتين؛ الإنتخاب الطبيعي، والإنتخاب الجنسي. ويطرحون أيضاً كمّ النواتج المختلفة (تبدو بعضها متناقضة الأغراض) بين نواتج العمليتين. حتى أن داروين وقع في شك من أن بعض الدوافع في الإختيار المؤسس لعملية الإنتخاب، إنما يشابه من بعض الأوجه التمييز العنصري الذي يمارسه البشر بينهم.

ويرى العلماء بأن الإنتخاب الطبيعي إنّما يفعل فعله في الجينات ضمن العضويات. حيث يحمل الأفراد جينات تمنحهم تقدمة أو امتيازاً للبقاء أكثر من غيرهم، وبعض هؤلاء الأفراد سيكون لهم وفرة من النسل أفضل من غيرهم. وبالتالي، سيتبقى جيناتهم وتنال فرصة البقاء أكثر من الآخرين. وهذا بالتالي يتسبب في تغيير للمُحتوى الجيني السائد بين نوع محدد من الكائنات الحيّة. يمكن تسمية هذه العملية بـ"الإنتخاب

الفردي». لكن بعض العلماء رأوا أن هذا الإنتخاب يمكن أن يؤثر بطريقة أعمق ايضاً. وتظهر هذه الخاصّية في الكائنات المنظّمة جماعياً، وهنا سيدخل عنصر «الإنتخاب النوعي»، أي أن التفضيل سيكون على أساس انتماء الفرد الكائن الحي الى جماعة محددة من ضمن النوع الأحيائي. وهو أمر ما زال محلّ المزيد من الأطروحات والبحوث العلمية.

إن عملية الإنتخاب الطبيعي تقود في النهاية الى استبدال جين معيّن محل جين آخر. وتضع الجين الجديد موضع التفعيل، بينما ينزوي الجين القديم الى زاوية غير فاعلة. في عملية يمكن التنبؤ بها وتقدير نواتجها. لكن أيضاً في هذه العملية بعض المضمون العشوائي، وهي ما يعرف بـ«الطفرة الجينية»، وهي المعادل الجيني لعملية رمي قطع النقود وتوقّع ظهور أحد وجهيها. وهذه الطفرة الجينية تقود في العادة الى ظهور نتائج غير متوقعة في السمات الأحيائية للنوع الواحد. ولقد ميّز العلماء عدداً كبيراً من مواقع التغيير في الـ(DNA) البشري الذي نتج بالأصل عن طفرة جينية. ومن المهم أن نفهم اتفاق علماء الأحياء على أن التكيّف إنما نتج عن تغير جيني عبر الإنتخاب الطبيعي، لكن ليس كل التغيرات الجينية (سواء التي تسبب بها الإنتخاب الجنسي، أو التي تسببت بها الطفرات الجينية) ستؤدي الى تدعيم تكيّف الكائن الحي مع ظروفه.

ملحق

❖ مختصر خط الأحداث الكونية

*Based on: http: / /www.sciencealert.com.

- قبل 13.8 مليار سنة؛ بداية الزمن. الانفجار العظيم الذي انبثق منه الكون والوجود والمادّة.
- قبل 13.1 مليار سنة؛ بدأ تشكّل أول المجرّات من انخفاض درجات حرارة الغازات السماوية، تكثف الدقائق وبدء الانفجارات النجمية الأولى. تمركز نجم كبير (أو عدّة نجوم)، ثم انخراط عدد من الأجرام السماوية في مدارات حوله.
- قبل 12.8 مليار سنة؛ تشكل أول كوازار (Quasar) في الكون. وهي أجسام سماوية تنتج طاقة هائلة في مساحات محدودة نسبياً، وهي تمثل مرحلة من مراحل تشكّل المجرّات، وتحولت على الأرجح فيما بعد إلى ثقوب سوداء.
- قبل 8.8 مليار سنة؛ تكوّن أول نجم شبيه بالشمس الحالية.
- قبل 8.4 مليار سنة؛ تشكل مجرّة درب التبّانة (Milky Way)، التي تحتوي مجموعتنا الشمسية. المجرّة ذات شكل حلزوني يبلغ قطره ما يقرب من 100 ألف سنة ضوئية. وتحتوي على عدد

من النجوم يتراوح بين 100 ـ 400 مليار نجم، أكبر أو أصغر من شمسنا التي نراها.

- قبل 7.4 مليار سنة؛ انخفضت درجة حرارة الكون إلى (سالب 268 سيليزية).
- قبل 4.5 مليار سنة؛ ولدت الأرض التي نعيش عليها. وبدأت الشمس في وقت متزامن تنتج الطاقة بمعدلاتها الحالية. وتشكل المعدن الأول على سطح الأرض من تكاثف الغازات، بعد ذلك احتوت الأرض على بضعة آلاف من أنواع المعادن.
- قبل 4.25 مليار سنة؛ ظهور الشكل الأول للحياة على سطح الأرض. تفترض أحدث النظريات العلمية أن الأصل الكيميائي قد نشأ مع توفر الأساس العضوي (حلقات كيميائية عضوية) ساهمت في تشكيل الحوامض الأمينية من قواعد غير عضوية. ثم عملت على تركيب ما يعرف بالشحوم الفوسفورية. وهذه البيئة الكيميائية كوّنت معقّداً (ما قبل الخليّة الحيّة). وهناك نظريات علمية أحدث تفترض أن الحياة نشأت قبل هذا التاريخ، لكن ليس بعده.
- قبل 3.8 مليار سنة؛ انتهى الجزء الأكبر من سقوط النيازك الكبيرة على سطح الأرض، وبقيت النيازك الصغيرة تتساقط لكنها تتعرض بنسبة عظيمة منها للاحتراق لدى مرورها بالغلاف الجوي.
- قبل 3.1 مليار سنة؛ تكوّنت أول بكتيريا أرضية.
- قبل 1.6 مليار سنة؛ بدأت الميتوكوندريا (بيوت الطاقة العضوية) بالتشكّل على أساس هندسة نواة داخلية لها.
- قبل 1.5 مليار سنة، بدأ الصدع القاري (الصدع الأعظم تحت

المحيط) بالافتراق مكوناً ما يعرف اليوم بالمحيط الأطلسي. وبدأت ضفتا المحيط تبتعدان بمعدّل متر واحد كل 300 عام.

- قبل 1.2 مليار سنة؛ حدوث أول انقسام جنسي في العضويات.
- قبل 1.1 مليار سنة؛ ظهور أول أشكال الأحياء البدائية التي تعرف بالسوطيّات.
- قبل 800 مليون سنة؛ ظهور أول أشكال الأحياء البدائية المعروفة بالطليعيات.
- قبل 730 مليون سنة؛ العصر الجليدي الأول.
- قبل 525 مليون سنة؛ ظهور أول أشكال الأحياء البدائية المعروفة بثلاثية الفصوص. ظهور أولى القشريات.
- قبل 500 مليون سنة؛ ظهور أولى البرمائيات. ظهور الأوردوفيكانات.
- قبل 435 مليون سنة؛ الانقراض الديفوني الأول، 60 % من أشكال الحياة اختفت عن وجه الأرض.
- قبل 350 مليون سنة؛ ظهور أولى الزواحف.
- قبل 250 مليون سنة؛ الانقراض البرمائي الأكبر. 96 % من الأنواع انقرضت.
- قبل 125 مليون سنة؛ ظهور أول أنواع الطيور.
- قبل 106 مليون سنة؛ تطوّر أكبر أنواع الديناصورات على الإطلاق (السبينيوصور).
- قبل 68 مليون سنة؛ ظهور الديناصور السائر على قائمتين (التيرانيوسور).
- قبل 60 مليون سنة؛ عودة الحيتان إلى البحار وتباطؤ تطوّرها بصورة قياسية (لم تتطوّر منذ ذلك الوقت سوى بنسبة 15 %).
- قبل 40 مليون سنة؛ بدأت القارة القطبية الجنوبية بالتشكل بتوصيفها الحالي.

- قبل 35 مليون سنة، انتشرت الأعشاب لتغطي أراضي واسعة من كوكب الأرض.
- قبل 18 مليون سنة؛ ظهور الهومينيداي (القرد الأعلى).
- قبل 13 مليون سنة؛ ظهور إنسان الهومينين (الإنسان العاقل). وهي السلالة الرئيسة التي انحدر منها البشر الحاليون، بالإضافة إلى سلالات أخرى انقرضت تماماً.
- قبل 9 مليون سنة؛ تطوّر إنسان الهوموإيريكتوس (الإنسان المنتصب).
- قبل 1.5 مليون سنة؛ أوّل استخدام مسيطر عليه للنار.
- قبل 1 مليون سنة؛ ظهور إنسان الهوموانتسيسور (الإنسان العامل). وازدياد حجم الدماغ.
- قبل 600 ألف سنة؛ حيوان الباندا يسود في الصين.
- قبل 500 ألف سنة؛ أول بناء إنساني للمأوى.
- قبل 390 ألف سنة؛ الاستخدام الأول للأدوات.
- قبل 350 ألف سنة؛ تطوّر إنسان النياندرتال.
- قبل 250 ألف سنة؛ الاستعمال الأول للصبغة على جدران الكهوف.
- قبل 170 ألف سنة؛ الإنسان يرتدي الملابس المخيطة لأول مرّة.
- قبل 165 ألف سنة؛ ظهور الإنسان الحديث (النظير التشريحي للإنسان الحالي) في أفريقيا.
- قبل 160 ألف سنة؛ ظهور وتطوّر إنسان الهوموسابيان في أفريقيا.
- قبل 110 ألف سنة؛ هجرة الإنسان الأول خروجاً من أفريقيا.
- قبل 78 ألف سنة؛ بركان توبا (سومطرة ـ أندونيسيا)، وانخفاض أعداد الكائنات البشرية إلى أدنى مستوى لها (بحدود 10 آلاف كائن). الأرض تتحول إلى شتاء بركاني استمر بحدود 10 سنوات.

قبل 42 ألف سنة؛ أول إشارة إلى صيد الأسماك.

قبل 40 ألف سنة؛ انقراض إنسان النياندرتال، والإنسان الحديث يصل إلى الفليبين.

قبل 30 ألف سنة؛ الاستعمال الأول للحبال المحبوكة.

قبل 28 ألف سنة؛ تمثال «فينوس ولندروف»، أقدم التماثيل المعروفة التي نحتها الإنسان.

قبل 16 ألف سنة؛ اختراع الفخّار والعجلة الدوّارة.

قبل 13 ألف سنة؛ نهاية العصر الجليدي الرابع والأخير.

قبل 7000 سنة؛ أول إشارة إلى صناعة المراكب النهرية من القصب (تنقيبات الكويت).

قبل 5000 سنة: سومر تستخدم القوارب بشكل يومي.

قبل 4600 سنة؛ تطوّر الكتابة (الحروف) بشكل مستقل في سومر (تطوّرت بشكل مستقل أيضاً على شكل مقاطع صوتية في الصين بحدود 1700 ق.م. كما تطوّرت بشكل مستقل ومختلف أيضاً في مصر بحدود 2300 ق.م)

ـ انتهى الكتاب ـ

صدر للمترجم:

1. «الأمة التي يمكن الاستغناء عنها ـ السياسة الأميركية في حالة تراجع»، وَلي نصر (ترجمة) ـ دار المعقّدين/ البصرة 2016.
2. «الانهيار ـ قصّة الآمال العريضة والفرص الضائعة في العراق»، أيما سكاي (ترجمة) ـ دار سطور للنشر والتوزيع/ بغداد 2016.

في التطور والنشوء والعلم وانكشاف فضاء الوهم

هذا الكتاب، يحوي حوارات، ومقابلات صحافية، ومقالات للعالم البايولوجي التطوّري البريطاني د.ريتشارد دوكنز.
أقوى أشكال الإحتجاج العلمي والمنطقي في مواجهة الخرافة، والتعجيز المتعمد للعقل، وفي مواجهة فجوات التسلسل التاريخ الفاضحة التي تهملها الأساطير المكونة للعقائد الموروثة بعيداً عن حقائق وبراهين العلم الذي ملأ حياتنا وصار جزءاً من الوجود الإنساني.
ومنذ سبعينيات القرن الماضي، شغل دوكنز الراي العام العالمي بآراءه الجريئة، والمبنيّة على منطلقات علمية بائنة، ابتداءً من كتابه المثير للجدل"الجين الأناني- 1976".
و استمر في الترويج لأفكاره(التي هي خلاصات لأفكار علمية تجريبية متراكمة لعلماء آخرين)، عبر أكثر من وسيلة. فاستخدم اسلوب المحاضرات المفتوحة، أو المناظرات التي ينقلها التلفزيون. كما أجرى بنفسه حوارات صحافية مع علماء وكتّاب ومختصين في علوم الأديان وقساوسة ودعاة دينيين، أراد منها أن يوفر للمتلقي بوابة منطقية كي يحتكم في مفاهيمه الى العِلم بدلاً من أي شيء آخر.
ثم خطى دوكنز خطوته الأهم في كتابه الأشهر"وهم الإله- 2006"، وهو الكتاب الأكثر جدلية في ملامسة قرارات الأفراد فيما يتعلّق بالدين والإختيار.
ما يهمّنا في هذه المجموعة من المواد الفكرية المتنوعة، هي أن تصل الى القارئ العربي بجدلها، وبكل حصيلتها، وأن يكون على دراية بنمط الحِراك الفكري الذي تثيره في الأوساط العالمية المختلفة، لأننا لم نعد نعيش في معزل عمّا يحدث في العالم.

الناشر





دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com